مذاهب وشخصيات
زكي مُبارك
دراسة تحليلية لحياته وأدبه
بقلم
أنور الجندى

اهداءات 2003

المهندس/ طارق احمد احمد هاشم
القاهرة

مذاهب وشخصيات

زكي مبارك

دراسة تحليلية لحياته وأدبه

١٨٩٢ - ١٩٥٢

بقلم

أنور الجندي

حياة زكي مبارك وأدبه

هذا كاتب لم ينصفه جيله . ولكنه ينصف الآن ، في ظل نهضتنا العملاقة ويقظتنا العربية الكبرى ، التي جعلت الوفاء للعاملين ، والتقدير للباحثين ، من بين أكبر أعمالها .

فقد كان زكي مبارك من أصدق الناس ايمانا بمصر ، والقومية العربية ، واللغة العربية ، غير ان هذا الحصاد الضخم من العمل الأدبي الذي أنشأه خلال رحلته الطويلة قد شابه طابع الاعلان عن النفس . نتيجة لعوامل الاضطهاد ، والاحساس بعدم التقدير الذي كان سمة العصور المتخلفة ، والذي كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب ، أو يجرون في ركاب الزعماء والوزراء وذوي النفوذ . وقد كان زكي مبارك أبيا عيوفا ، لذلك لم يجد المجال مفتوحا أمام كفايته ، سواء في ميدان التربية والتعليم أو في ميدان الفكر أو في ميدان الصحافة . فقد شق طريقه بنفسه ، ونحت حظه من الصخر ــ على حد قوله .

قدم من ريف سنتريس شابا معمما . فدخل الأزهر . وكان يمكن أن يكون واحدا من عشرات العلماء والفقهاء ، غير أن ذكاءه وطموحه وطبيعته المندفعة اللماحة ، قد مدت بصره الى بعيد . وكانت الجامعة المصرية القديمة قد فتحت أبوابها ، واتجه اليها كثيرون ، فتطلع اليها وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية ، ثم وقعت ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فيها الأزهر بقدر واضح ، فكان زكي مبارك من أعلام الخطابة في هذه الفترة مع الشيخين : القاياتي ، ودراز . وامتاز بأنه كان الخطيب الذي يستقبل الوفود الأجنبية ، ويتحدث اليها بالفرنسية . وكان نصيبه السجن والاعتقال . ثم عاد بعد الثورة الى الأزهر ، واشترك في الجامعة . وكتب في صحف الحزب الوطني ، وأحرز الدكتوراه من الجامعة القديمة برسالته عن « الأخلاق

عند الغزالى » وتطلع الى احراز الدكتوراه من جامعة باريس ، ولم يجد الوسيلة الى ذلك ، فأزمع السفر على حساب مقالات يكتبها فى « البلاغ » وترك أسرته وأولاده • ومضى يذهب فى اجازة كل صيف ويعود • ثم عزم على الانقطاع ، واكتفى بالقليل من المال ، حتى أحرز اجازة الدكتوراه بأطروحته « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » • وعاد عام ١٩٣٢ ليستقبل الحياة الأدبية ويشارك فيها ، بما عرف عنه من عنف ، وحرص على أحداث الضجيج ، حتى أطلق عليه لقب (الملاكم الأدبى) • وفى خلال عشر سنوات ، حتى عام ١٩٤٢ ملأ الدنيا ، وشغل الناس • وكانت جريدة « البلاغ » ميدانه • يكتب فيها كل اسبوع « الحديث ذو شجون » فيثير الثائرة بآرائه ونقداته ومهاجماته التى خلقت له الخصومات مع رؤسائه فى وزارة المعارف ، و (زملائه) من الكتاب • ولكن « مبارك » كان صافى القلب لا يرى فى هذه المعارك خصومة شخصية ، وانما يراها وسيلة لتحريك الحياة الأدبية الراكدة وبعث الحياة فيها باثارة قضايا جديدة ، وأتيح له أن يطوف بالعالم العربى • ويعمل فى العراق وتمتلىء نفسه بحب الأمة العربية فيدافع عن القومية العربية ، ويدعو الى أن تحل اللغة العربية فى كليات الجامعة بدلا من الاجنبية • ويدخل فى معارك مع أكبر شخصيتين فى الصحافة والجامعة اذ ذاك هما : طه حسين ، وأحمد أمين ، وهى معارك من جانب واحد ، أدارها زكى مبارك وغذاها ، وشغل بها الناس شغلا عظيما •

وكانت الحياة الأدبية فى مصر والعالم العربى فى خلال هذه الفترة يتقاذفها الصراع بين تيارى الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية ، وبين دعوات القومية العنيفة ، كالفرعونية والفينيقية ، وبين دعوات القوميتين العربية والجامعة الاسلامية • وكان الاكبار من شأن الغرب ، والدعوة الى تقليده ، والجرى وراءه ، وكان الغض من شأن العرب وتاريخهم ولغتهم وحضارتهم وأقطارهم هو طابع العصر • ولكن زكى مبارك قاوم هذا الاتجاه كله بعنف ، وسبح ضد التيار ، فى ايمان صادق عميق ، غير أن أساليبه لم تجد من الرصانة والحكمة واللباقة ما يحقق له ابلاغ رسالته الى الناس ، واقناع العقول بها • فكانت العاطفة أغلب ، وكانت الجرأة

تحمل الخطأ والكلمة العنيفة . وكان الطابع الذاتي يبرز كثيرا خلال ذلك كله ، فيقلل من شأن الآراء الصادقة المؤمنة بمصر والأمة العربية وتراثها ولغتها ومكانها .

وكان زكي مبارك مدرعا بالعافية ، كما يقول ، والمستقبل يتفتح له في قوة ، لما كان يملك من وسائل ، وما ألف من كثير ، وما أنشأ من فصول . غير أن اغراقا وقع ، وامتد ، لم يلبث أن قضى على هذا العقل الناهض الذكي والحس القوي ، وأصاره في سنواته العشر الأخيرة مجهدا ، قد انطوى من أسلوبه البليغ الرائع سحره ، ومن مادته قوتها ، ولم يلبث أن ضعف عن الاشتراك في المعارك ، التي أثيرت ضـــده ، ثم انطفأ السراج مبكرا (١٨٩٢ - ١٩٥٢) .

ومنذ مات زكي مبارك ، لم يذكره ذاكر ، الا كتابات قليلة عـــلى فترات متباعدة . فكان حقا على عصرنا الذي جعل من الوفاء أولى علاماته أن يذكر « زكي مبارك » الكاتب الذي لم ينصفه جيله .

أنور الجندي

مطالع الحياة

سنتريس بالمنوفية

عندما اتجه زكي مبارك من (سنتريس) الى القاهرة ليدرس بالأزهر لم يكن أحد يدرى على وجه الاطلاق أن هذا الشاب الذى حفظ القرآن الكريم فى « كتاب » القرية سيكون من أبرز كتاب العربيـــة فى العصر الجديد • وأنه سيثير ثائرات فى الأدب والنقد لم يخف آوارها •

وفى الأزهر بدأت شخصية (زكى مبارك) تبرز فى وضوح • انه ذلك الانسان الملىء بالحيوية المندفع الجرىء الطلعة •• الذى يتأهب للتبرير فى هذا المحيط الصاخب •

وقد استطاع زكى مبارك أن يؤكد شخصيته فى ثلاثة ميـــادين : الخطابةوالصحافة والشعر • فانه لم يلبث أن انضم الى الجمعية الأدبية التى انشأها الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الأزهر ، لتوجيه الأزهريين الى اجادة الشعر والانشاء • فما لبث أن أصبح أظهر الطلبة • وفى المسابقة التى أقيمت للخطباء فى مسجد محمد بك ابى الذهب كانت قصيدته هى أولى القصائد وأبرزها •

وفى الأزهر التقى زكى مبارك بأستاذين كبيرين ، كان لهما أكبر الأثر فى اتجاهه الأدبى ، وقد ظل يذكرهما حتى أيامه الأخيرة هما : الشيخ سيد بن على المرصفى • وقد صحبه سبع سنين • والشيخ محمـــد المهـدى • وقد صحبهأربع سنين • وكان الشيخان أديبين ، يدفعـــان الشباب فى طريق الأدب ، فى الوقت الذى كان أساتذة الأزهر يدفعـون الشباب فى طريق الفقه والدراسات الدينية المجردة • وكان لهـــذا أثره الذى اعترف به طه حسين والزيات ، وغيرهما من شباب الأزهر ، أولئك

الذين كانوا يتطلعون الى حياة جديدة ، تتحرر من القيود . ولذلك حرص الشيخ سيد بن على المرصفى على تجديد شباب « كتاب الكامل » للمبرد وتشذيبه . وقد حدث بين الدكتور زكى مبارك وبين السباعى بيومى صراع طويل ، حول هذا الكتاب ، وحول رأى السباعى فى استاذه المرصفى .

وقد كان لصحبة زكى مبارك لهذين الشيخين أثرها فى طريقته فى التعبير ، وفى اسلوبه فى البيان ، من حيث الكيف والكم . فقد كان زكى مبارك ينظم القصيدة فى ثلثمائة بيت ، ثم عاد فكان ينظم مقطوعات قصيرة تبلغ أحيانا بيتين أو بيتا واحدا . وقد نشر بعض هذه المقطوعات فى « السفور » .

ولا يعرف بالضبط اليوم الذى وصل فيه زكى مبارك الى الأزهر . ولكنه على وجه التحقيق كان طالبا فى الأزهر عام ١٩١٠ يعيش بين الحواشى والتقارير ، وله صوت مسموع ، ولابد أنه كان قد وصل الى الأزهر قبل ذلك بسنوات ..

وقد كان زكى مبارك فى الوقت نفسه كاتبا يكتب فى جريدة « الأفكار » . ولم تلبث الثورة المصرية ان اندلعت سنة ١٩١٩ ، حتى كان فى مقدمة الداعين لها والعاملين . وكان من أبرز خطباء الأزهر فى هذه الفترة الى جوار الشيخين محمود أبى العيون وعبد اللطيف دراز ..

وكان قبل ذلك قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة . كما اتصل بها عدد كبير من شباب الأزهر . وعلى وجه التحديد انتسب زكى مبارك للجامعة بصفة رسمية سنة ١٩١٦ .

وكانت دراسته الفرنسية من أشق الأمور التى منى بها وأقبل عليها ، وقد اتصل ببعض المدارس المسائية ، لهذا الغرض . ولكنه لم يلبث أن شق طريقه بقوة . فقد ذكر فى بعض كتاباته ، أن وفدا من الأجانب زار الأزهر أيام الثورة . فقام فيهم خطيبا ، باللغة الفرنسية . وحاز ذلك اعجابهم حين شاهدوا ازهريا معمما يصعد المنبر ويتكلم الفرنسية بطلاقة .

وليس من شك فى أن « زكى مبارك » فى خطواته هذه كان يتخذ من

طه حسين والزيات ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم من الأزهر بين الذين اتجهوا الى الجامعة القديمة ، مثلا له .. ولم يكن زكي مبارك في هـــذا الوقت يصغر هؤلاء الا بسنوات قليلة .. وقد كن عمره ابان ثورة ســـنة ١٩١٩ سبعة وعشرين عاما .

وقد كان زكي مبارك الشيخ الأزهري الذي يطلب العلم فقيرا بسيط الحال . وكان يعيش حياة بسيطة فقيرة . ويسكن ربع الغورية . وقد صور الفرق بين حياته الأولى وحياته بعد ذلك بسنوات ، فقال : « كنت لأول عهدي بحياة القاهرة أعيش عيشة بسيطة . فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أنتقل لقضاء الصيف في الريف . ثم تحضرت رويدا رويدا الى أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم في سنتريس » .

ولم يكن زكي مبارك يعبأ بالأناقة ولا بحســـن الملبس ولا يبذل اهتمامه بالمظاهر . وقد ظل كذلك الى آخر أيامه .

في سنتريس

ولد زكي مبارك في سنتريس عام ١٨٩٢ (١) على وجه التقريب ، وهي تلك القرية المجاورة للرياح المنوفي في اقليم المنوفية ، وقريبة من القاهرة . أرضها من أجود الأرض . وكان والده من الزراعين الأذكياء الذين عرفوا بالخلق والكرم . وقد أحب زكي أباه . وكان موضـــع فخاره واعجابه ، وقد رسم له صورة وصفية عندما توفي عام ١٩٣٥ تمثـــل فيه صباحة الوجه وصحة الدين وصدق القول وفصـــاحة اللسان وثبات الجنان والعزيمة والرزانة . وقال ان ثغره كان لا يعرف غير الابتسام ، حتى في أشد الأزمات والخطوب . وأن الدنيا كانت عنده هيئة لا تستحق أن يقطب لها جبينه . وهذه هي الصورة التي رسمها زكي لأبيه « عبـــد السلام مبارك » .

---

(١) لم يكتب تاريخ ميلاده بالضبط . ولكنه قال في مقـــدمة ديوان « ألحـــان الخلود » الذي كتبه عام ١٩٤٧ « ان ديوان الحـــان الخلود يرد الى شبابي وقد جاوزت الخـــامسة والخمسين » . ومعنى هذا انه ولد عام ١٨٩٢ . وبذلك يكون قد توفي في سن الستين (توفي في فبراير ١٩٥٢ على أثر سقطة زلقت فيهـــا قدماه . فـــكان النزيف الذي استنزف حياته ، رحمه الله) .

أبي

« لقد عرفت بموتك حقيقة نفسي . وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدى في عالم الوفاء . فطب نفسا ان كان يعوزك ذلك . فما أثار موتك في صدرى الا ذكريين غاليتين : ذكرى أمى التى فقدتها فى سنة ١٩١٧ . وذكرى أخى سيد الذى فقدته فى سنة ١٩١٨ . أما أطفالى الذين دفنتهم من قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان . لأن حزنى عليهم نوع من الأثرة .

.. أقسم ما رأيت أصبح منك وجها ، ولا أصح دينا ، ولا أصدق قولا ، ولا أفصح لسانا ، ولا أثبت جنانا .

لقد أخرجنى موتك عن وقارى . ورمانى بطوائف من التحرق والالتياع . فاخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود . وكيف تتعاقب النجوم فلا يعوقها أفول . ثم نظرت فرأيتك تذهب الى غير معاد . وفكرت فى الغلالة الانسانية التى وعدت بها الأنبياء . وتمنيت أن تكون الحق كل الحق . وأقسم ماكفرت منذ آمنت . ولكن موتك قلقل يقينى ، ورمى بقلبى فى أتون من الجزع .

هل تعلم أنى ما تلفت الا رأيتنى مغمورا بأياديك . فهذا دمك يجرى فى عروقى . وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب من الصخر وعزيمة أمضى من السيف . وتلك رزانتك أتمثلها ، فأزداد سخرية بالحوادث والخطوب . وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع الأحوال ، أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون من أن يقطب لها جبين الرجل الشجاع . وذلك ايمانك ، أتذكره ، فأعرف أن اليقين كنز ثمين .

لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحنان . وكان النظر الى وجهك ربيعا للقلب والروح . وكان اتجاه الفكر اليك يغمرنى بالرفق والروحانية . »

وقد رسم زكى مبارك صورتين لحياته الأولى فى القرية : فقال فى

الأولى انه نشأ فلاحا ، وما زالت في يده آثار الفأس والمحراث • وانه لم يعرف السعادة فى ظلال العواطف الا بفضل ذلك العهد • وانه فى ايام حداثته : « كانت سنتريس لا تعرف الطلمبات ، فكن الماء يحمل الى المنزل من النيل أو من السواقى • فكنت ترى فى الصـــباح اسرابا من الصبايا يحملن جرات الماء ، وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب النشوان • وانه فى تلك الأيام ، أيام الشباب كان يخرج لصلاة الصبح • ثم ينفتل مسرعا الى داره • فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل • ويخرج الى الغيط • وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسراب الصبايا فى طريقهن الى السواقى أو النيل • وكانت تلك المشاهد تتكرر فى الصـــباح ، وفى الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشون بقلوب مشـــبوبة فى الغدوات والأصائل • وكان الشباب لا يغدو ويروح الا بقلب مفتون • »

أما الصورة الأخرى فيرسمها فى مقدمة كتاب التصوف الاسلامى :

« كنت فى حداثتى — كأكثر من ينشئون فى الريف — أشهد مجالس الصوفية • وكانت لأبى صلات روحية بأهل الطريق • وكنت أعرف وأنا طفل أنى موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد • وكذلك درجت على احترام ارباب الصوفية » • وهكذا يجمع زكى مبارك بين شخصيتين مختلفتين فى أعماقه ، لعلهما استمرتا تتنازعانه طوال حياته •

صورة الشاعر المفرد ، والانسان العاشق الولهان •

وصورة الصوفى المؤمن ، المحب لله ••

أما سنتريس ، تلك القرية التى أخرجت « زكى مبارك » • فهى — كما وصفها — بلد طيب يمتاز عن أشمون وشطنوف باشرافه عـــلى النيل •

قال : « ولم نهتد الى تحقيق الاسم • وبعض الناس يظن أن التسمية فيها مسحة رومانية • ولكن الأستاذ « محمد رمزى » يؤكد أنها تســـمية مصرية • والمعروف أن هذا البلد قديم للغاية • وكانت مساكن أهله عــلى تلال عالية ، آخرها يسمى « جرف العيسوية » • وهو تل لم يرفع الامتد

خمسين عاما . وكانت آخر بقاياه مسجد سيدى سالم ومقامه .

وسيدى سالم هذا ، كان يظن علماء سنتريس انه سالم بن عبد الله أحد فقهاء المدينة . ولكنى رأيت أخيرا فى شرح العينى على البخارى أن « سالم بن عبد الله » دفن بالمدينة . وقد بنى المسجد المقام على الأرض بعد أن رفعت بقايا التل منذ ثلاثين عاما .

وكانت سنتريس فى العهود الخالية من المعاهد التى يحج اليها الشعراء (١)

وقد صور زكى مبارك مشاعره عن سنتريس فى بعض قصائد فقال :

ليالى النيل واللذات ذاهبة وجدى عليكن أشجانى وأضنانى

لو يرجع الدهر لى منكن واحدة فى سنتريس ويدنى بعض خلانى

اذن تبين دهرى كيف يرحمنى من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

وقوله :

آه لو يسمح الزمان ونلقى من طوى قربهم عناد الزمان

وترى (سنتريس) والدهر غاف ما قضينا من الليالى الحسان

وقد رسم صورة « العيد » فى سنتريس فقال :

« فى سنتريس صورتان مختلفتان لطعام العيد . الأولى لعيد الفطر ، والثانية لعيد الأضحى . ففى عيد الفطر يغيب الكعك . وهم فى بلدنا ينطقونه بالحاء المهملة . ويكثر كذلك (المنين) وهو أقراص صغيرة تحلى بالسكر أو بالعجوة . وللكعك فى نفس أهل سنتريس صورة الفرح والانشراح . وهم لذلك يحرمونه على أنفسهم فى العيد ، اذا كان فى

---

(١) ادعى زكى مبارك فى مقال له بالبلاغ (١٧ من يونية سنة ١٩٣٢) بأن المتنبى زار سنتريس وله فيها قصائد . ثم عاد فى خاتمة مقاله فقال « وأهل العلم يرتابون فى نسبة هاتين القصيدتين الى المتنبى ويرجحون انها من وضع أحد شعراء العصر الحديث » . وهى القصائد التى نشرنا بعضا من أبياتها فى هذا الفصل .

البيت حزن . والأهل والجيران يراعون خــواطر من مات لهم ميت ، لم يمض عليه العيد فيمتنعون عن خبيز الكعك . ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فانهم يصنعونه أحيانا للصــدقة على روح الأموات ولصلاة العيد اسم طنان فى سنتريس . وأشهر مساجدها جامع أبى فراج . وجامع سيدى سالم . وهم يزعمون ان « ابا فراج » من العراق .

وان أهل سنتريس يذهبون الى المسجد قبل الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتهجدون ورد السحر ، ويرتلون الدعوات والتسبيحات .

وزيارة الأموات فى ليلة العيد من التقاليد المعروفة فى سنتريس . ولكن لايبيت أحد منهم ، كما يقع فى القاهرة ، ولا يذهب رجل الى المقبرة الا فى يده فانوس . »

وفى خلال فترة حياته فى القرية ، تعلم فى المكتب وحفظ القرآن . وكان متطلعا فى هذه الفترة الى نظم المواويل ولم يلبث زكى مبارك أن وجد طريقه الى الأزهر ، شأن لداته فى ذلك العصر .

مطالع الحيــاة فى الازهر

ترك زكى مبارك قريته سنتريس ، ويمم نحو القــاهرة ليلحق بالأزهر سنة ١٩١٠ وهو فى سن العشرين . وفى الأزهر بدأ حياة جديدة . كانت حياته بسيطة ساذجة ، فى احدى الأزقة القريبة من ذلك المعهد الذى كان له أثره الكبير فى تحول حياته ، وقد سكن فى ربع الغورية العتيق .

وكان من أبرز أساتذة الأزهر الذين تأثر بهم اثنان هما : سـيد المرصفى وقد صحبه سبع سنين . ومحمد المهدى وقد صــحبه أربع سنوات . وكان لهما أثرهما فى طريقة فهمه للشعر . فبعد أن كان يـكيله بالمكيال ، حتى تصل القصيدة الى ثلثمائة بيت ، عاد الى المقطوعات حتى كان يكتب بيتا واحدا (١) .

---

(١) نشر زكى مبارك قصيدة من بيت واحد فى مجلة السـفور سنة ١٩١٦ تحت عنوان « ظلام الليل »

وجن على الليل حتى حسبته ... جفاء كريم أو رجاء لئيم

وقد صور صلته بأستاذيه الكبيرين : فقال فى فصل عقده عن الشيخ المهدى : آن هذا الشيخ « هو آول من تلقيت عليه الأدب فى الجـــامعة المصرية • وقد صحبته فيها أربع سنوات ، وسمعت محاضراته فى عهــد الجاهلية وعهد بنى آمية وعصر بنى العباس • وكنت أصل جناحه بعــد المحاضرة حتى يصل الى المحطة • وقد كان رحمه الله يؤثر ســـكنى الضواحي على سكنى العاصمة • ويمكن الحكم أنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر واستمعوا نداء الجيل • »

كما رسم صورة استاذه سيد المرصفى فقال :

« يأيها الرجل الذى عرفت بفضله اسرار اللغة العربية ، واستطعت بفضله أن أرفع رأسى بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام •

يأيها الرجل : أنا مدين لك بكل شيء فى حياتى اللغوية والأدبية • ولا يزاحمك فى قلبى الا انسان واحد ، هو فقيد الأدب والبيان : الشـيخ محمد المهدى • لست وحدى تلميذك أيها الشيخ الجليل • فهناك مئـات انتفعوا بعملك وأدبك • ولكنى الرجل الوحيد الذى بكى لموتك فى حرارة دونها بكاء الأطفال • فى سنة ١٩١٣ رأيت فى الأزهر رجلا نحيل الجسم غائر العينين لا يفصح سيماه عن شيء • وحوله عشرة من الطلاب وهـو ينشد بصوت شجى :

حمـــامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغوادى مطـيرها
أبينى لنا لازال ريشك ناعمـــا ولازلت فى خضراء جاد نمـيرها

فجلست أستمع لانشاده • وما هى الا لحظـة حتى تبينت آن الذى يحرم دروس ذلك الرجل لا يخرج من الأزهر الا بصفقة المغبون • ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس فى حماسة واعجاب • وكانت عادة الرجل أن يلقى الأسئلة على الطلبة فى تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستنبطون الجواب

وبعد يومين من اتصالى بدرسه جاءت كلمة ابن عباس (ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله :

أهذه مثلية أم منفية ؟ فقلت : يريد ابن عباس ان شعر ابن أبى ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب . فينقلها من الهدى الى الضلال » .

فقال الشيخ رحمه الله في حماسة شديدة : «ايه ياعروس الأدب!»

وكانت أول كلمة حببت الى قلبى دراسة الآداب .

كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت أبكر الى درسه لأقرب منه، وكنت أكتب كل ماينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسة ، هى اليوم أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف . وكان الشيخ قد تعود أن يرانى أمامه . فجئت يوما متأخرا . ورفض الطلبة أن يفسحوا لى المجال . فقال الشيخ : أين زكى ؟ .. فأجبت من بعد : «هانذا يا مولاى » . فقال الشيخ رحمة الله عليه : « وسعوا له لعله ينفع » .

« فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما أكتب ، ولو مرة واحدة ، فليذكر أن الفضل فى ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد المرصفى ، طيب الله ثراه »

وانى لأذكر انه كان يلقى درسا فى مسجد السلطان برقوق . ثم حضر الشيخ على الزنكلونى ، حفظه الله . فقال الشيخ : انه ليحزننى يا شيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها . وانى لأخشى أن يضيع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين .

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى . فكنت أحضر جميع دروسه ، وأصحبه فى الطريق . وأمضى الى بيته ، فأطلع على مالديه من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية . وأنشده شعرى . فيقومه . ويصلح منه فى رفق كثير » .

ولم يلبث أن اشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ . فكان واحدا من خطبائها المبرزين . وقد ظل طول حياته يذكر موقفه هذا ويزدهى به . وقدحق له أن يزدهى فان هذا الحظ من المشاركة فى ثورة سنة ١٩١٩ لم يتح للكثيرين من كتاب مصر . وكان يردد دائما كلمته « أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هياب » .

وقد كتب عن هذه الفترة من حياته عديدا من الفصول والكلمات :
يقول : « كانت السلطة العسكرية تبحث عنى لتقتلنى . وكنت من خطباء الثورة المصرية وشعرائها . وكان الجواسيس قد أخبروا السلطة العسكرية أنى ألقيت قصيدة سياسية فى الأزهر . وكان يجب أن أحترس فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكانى . فقضيت ثلاثة أشهر وأنا لا أعرف أين أبيت . كان مأواى غرفة فى سطح بيت يقيم بها أحد الشبان الأقباط من أبناء سنتريس . وهو شاب على جانب من اللطف والذوق هو الأستاذ أنيس ميخائيل (١) .

وقد أرسل زكى مبارك خطابات الى صديقه أنيس ميخائيل ، نشر منها هذا الخطاب فى كتابه « البدائع » وهذا جانب منه :

من رسائل المعتقل

« سأضرب صفحا عن الدمعة التى سكبتها على القرطاس . لأن مثلى لايبكى له . ولا يبكى عليه . انما خلقت لأكون مثلا فى الشمم والاباء . ولو كان بى حب الدعة والطمأنينة لما مكثت فى المعتقل هذه الشهور الطوال. فقد فكر القوم فى مساومتى لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل ولكنى أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء فى سبيل البلاد . وأقسم لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الانجليز لما كان فى ذلك مايزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم ، حتى يكون الجلاء وأعيذك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر ، ان تم ونحن أحياء ، ينسينا ما فعلوا بنا ، وبأهلينا ، منذ كان الاحتلال .

ليست انجلترا هى العدو الوحيد للأمة المصرية بل هناك عدو آخر

(١) كان زكى مبارك يلجأ الى منزل أنيس ميخائيل بحى القللى فى ضاحية السبتية قبل أن تعتقله السلطة العسكرية البريطانية الدخيلة المحتلة .

مارس ١٩٢٠ — من رسالة الى صديقه انيس ميخائيل .

مازال من قبل يبطش بالأمة غير وان ولا راحم . ألا وهو الجهل . هـــذا العدو اللدود ، الذى تستعين به انجلترة لاغتصاب وادى النيل . وسأعرف ما أصنع حين أعود الى القاهرة ولو بعد حين . ســــأعرف كيف أحارب الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رءوس من يستغلون جهل الأمة ، فينالون به ما لهم من سيىء الأغراض ومنكر الشهوات . » كما كتب فيما بعد ذكرياته عن هذه الفترة من حياته تحت عنوان :

ذكريات طالب اشترك فى الثورة

« كنت من خطباء الثورة المصرية ، فاكتويت بنارها وشـــــهدت آلام التشريد ، والاعتقال شهورا طوالا . ومع هذا فما تمثلت هذه الأيام ، الا بدت لى بعيدة غاية البعد ، كأنما ألقى بها القدر فى واد من النســـــيان ســـــحيق . »

ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والتوثب لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب تتطلع الى الخلاص من الآصار التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية .

وكانت السلطة العسكرية البريطانية المحتلة قد منعت الناس طوال أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل . فلما كان يوم ١٠ من فبراير سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا الى قبر مصطفى كامل . وذهبت مع فريق من الطلبة . ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندا يقرأ القرآن . والنـــاس يستمعون فى صمت ورهبة . وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل (بك) ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية . وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال . وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة . فقضوا أياما وأسابيع . وذلك فيما أذكر أول عهـــد الطلبة بعد الحرب بالسجن والاعتقـــال .

ولأذكر الآن أننا ذهبنا الى الأزهر لاقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة معها علمها الخاص . ووقفنا صفوفا أمام الأزهر نخطب ونهتف . وظلت

الطيارات الانجليزية تحوم فوق رءوسنا تحويما وقحا • وبقينا كذلك حتى انتصف النهار •.

ومن مظاهر ايام الثورة أن الخطب كانت تجرى منظمة فى الأزهر كل مساء • وكان الشيخ عبد ربه مفتاح ينقل أخبارها الى جريدة الأهرام• كما كانت الخطب والمظاهرات واقامة المتاريس والاستحكامات فى كل مكان فى مصر ، بين جميع الطبقات ، وبين الجنسين ، وكان الأزهر يموج كل مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية • وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون • وكان الانسان لايصل الى موقف الخطيب الا بجهد جهيد • وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع • وظللت أياما لأخطب • وطال الانتظار • وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية • وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فسألنى الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم فتقدمت بجرأة وحماسة • وخطبت خطبة فرنسية رنانة ، شهد الشيخ الزنكلونى بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية • ومنذ تلك اللحظة كنت أصل الى موقف الخطيب برغبة الجمهور الذى كان ينتظر خطبى كل مساء • وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادى (بك) والشيخ مصطفى القاياتى • والدكتور محجوب ثابت • وغيرهم من الأساتذة والطلبة والمثقفين والشبان والفتيات • • »

ومما سجله فى بعض كتاباته قوله عن هذه الفترة :

« كان الانجليز قد سمحوا للمعتقلين أن يستحموا فى البحر مرتين فى الأسبوع • فكنت اوغل فى البحر ايغالا شديدا • فيرفع الجنود بنادقهم ويهددوننى بالرصاص اذا لم أرجع الى الشاطىء • وكان الوهم عندهم أننى قد أسبح الى أن أصل الى الشاطىء الفرنسى » (١) •

كما ذكر أنه كان يشترى فى المعتقل بجزء من طعامه (كتبا) •

ولا شك أن هذه الفترة من حياة زكى مبارك تعطى خطا عريضا من خطوط تلك الشخصية • ولقد كان مجمل هذا الأثر ما صوره فى قوله :

---

(١) من مقدمة ديوانه « ألحان الخلود » ــ ١٩٤٧

« لقد تمردت على الظلم كما تمرد أجدادي • فكنت بين خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ • فاعتقلني الانجليز وصيروني أسير حرب •

ان أيام الاعتقال أورثتني أحزانا كثيرة ، وهي أحزان ما زالت تفطر قلبي • ولكنني أفدت من أيام الاعتقـال • فقد عرفت معنى الاغتراب في الحياة ، وهو معنى جميل • • »

وفي خلال حياة زكي مبارك في الأزهر ، تلك التي امتـــــدت من (١٩١٠ - ١٩٢٢) كانت هناك عوامل متجددة تغلي كالمراجل ، تريد أن ترسم صورة حياته المستقبلة :

هذه العوامل هي : (بعد ثورة ١٩١٩) : (١) اتصاله بالصحافة • (٢) واتصاله بالجامعة المصرية القديمة •

كان الشيخ زكي طالب الأزهر يعيش بين الحواشي والمتون والتقارير وقد افتتحت الجامعة المصرية أبوابها • فاتجه اليها الشباب المتطلع الى الظهور وكان هو في مقدمة من اتجه اليها • ولم يلبث أن تطلع الى أن يعبر البحر • فراح يتعلم اللغة الفرنسية ثم يدرسها • وفي خلال ذلك كان هو الشاعر الذي يقول الشعر ، ويكلف لونا من ألوانه • هو شعر الغزل • فيلقي أولى محاضراته في الجامعة عن حب عمر بن ابي ربيعة وشعره • وكان في خلال ذلك قد حفظ عددا ضخما من قصائد الشعراء ، بلغ على حد قوله ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي (١) •

« ولم يكن كلامي ضربا من التحدي المؤقت ، وانما كان حقا من الحق • وما اكتفيت بالثلاثين الفا الا اشفاقا على طلبة الجامعة • فقد كانت مختارات البارودي من بعض محفوظاتي • وكنت أحفظ دواوين برمتهـا

---

(١) يقول زكي مبارك في عام ١٩٢٧ « خطر للدكتور طه أن يغمز اساتذة اللغة العربية في احد دروسه بالجامعة المصرية . فقـال : كيف يجوز لهؤلاء أن يتولوا تدريس الادب في المدارس الثانوية او العـالية وليس فيهم من تصـفح ديوانين اثنين من دواوين الادب العـربي . فنهضت وقلت « ارجو استثنائي من هؤلاء فانا احفظ ثلاثين الف بيت من الشعر العربي . واستطيع انشادها جميعا في أي وقت » .

من الشعر الفرنسى . وقد حفظت معظم كتاب (تليماك) عن ظهـــر قلب سنة ١٩١٩ .

ولم أكن أعرف نظام الجذاذات عنـــــد الشروع فى تأليف كتاب « الأخلاق عند الغزالى » فكنت أرجع الى الشواهد فى مؤلفات الغزالى ، بغير أن احتاج الى دليل » .

ثم يعلق على ذلك بقوله : « ما استطعت ذلك كله ، لأن ذاكرتى أقوى من سائر الذاكرات . أو لأنى أذكى من سائر الناس . وانما استطعت ذلك لأنى لا أعرف المسامحات فى صيف ولا شتاء . ولا أذكر أنى انقطعت عن الدرس فى يوم من أيام الدراسة والأعياد ، حتى أيام البواخر ، قرأت فيها أشياء ، وكتبت أشياء . »

اتصل زكى مبارك بالجامعة المصرية القديمة رســـميا عام ١٩١٦ . فبدأ فيها حياة جديدة ، تطورت حين تقدم برسالته للحصول على الدكتوراه عام ١٩٢٤ .

وفى الوقت نفسه ، أو قبل ذلك بسنوات كان قد اتصل بالصحافةفقد كان يكتب سنة ١٩١٤ بامضاء « الفتى الازهرى » . وألف لجنة لاصـلاح الأزهر والمعاهد الدينية ، وكتب رسائل مختلفة فى نقد المعاهد الدينية .

وقد تولى رياسة تحرير جريدة الأفكار عام ١٩٢١ . وكانت صحيفة الحزب الوطنى يقول : « وكنت أكتبهـــا من الألف الى الياء . وعـلى صفحاتها نقدت أعمال لجنة الدستور بصورة لاتخطر على البال » .

عمل زكى مبارك فى الصحافة منذ وقت مبكر ، منذ كان طالبا فى الأزهر . فقد كان حريصا على أن يؤكد ذاته بالحديث عن الحياة ، واعلان رأيه فيها . وكان فى أدبه الصحفى ناقدا جريئا يتمثل فيه كل عنفـــه وجرأته واندفاعه .

وقد صور استهلال عمله فى الصحافة فقال :

« فى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفانى (بك) لرياســـة تحرير

جريدة الأفكار • وكنت من محرريها قبل الاعتقال • فبذلت ما بذلت من الجهــود فى تأييد الحزب الوطنى • ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رياسة تحرير الأفكار غير عام وبعض عام • فقد اتفق الصوفانى (بك) مــــع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقا يقضى بأن تصبح الجريدة وطنية وفدية • واشترط الأستاذ عبد القادر شروطا كان أهمها أن يكون حر التصرف فى اختيار المحررين • واشترط الصوفانى (بك) ان يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشئون • وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك • وقبل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء • ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر من الأفكار غير مباحث أدبية لاتقدم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية •

ثم فوجىء عبد القادر حمزة بأن وجد أن لى نشاطا صحفيا يغيب عن عينه الواعية • وهو مقالات كنت أرسلها الى جريدة الأمة بامضــاءات مختلفات • فأدرك أنه لا أمل فى أن أسير كما يسير •

عندئذ بدا لعبد القادر حمزة أن يصاحب شابا له أهداف • فوثق بى فدعانى الى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣• ولكنى رفضت بحجة أن هواى سيظل مع الحزب الوطنى •»

وهذه بعض نماذج من كتاباته فى هذه الفترة :

• « نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر دراسة الآداب العربية• ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة ، التى وضعها قـــوم ، أقل عيوبهم أنهم لايفقهون لغة القرآن المجيد • ونود لو تفضل القائمـــون بادارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتقصير • لنطمئن كما اطمأنوا ولنترحم مثلهم عـلى المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ما للطلبة من قلوب وعقول • »

• لانجد كتابا من الكتب الأزهرية قد خلا من الحكم على الشعر : احرام هو أم حلال ؟ وهذا خلاف قديم • رويت فيه هذه النكتة الطريفة• وهى أن « سعيد بن المسبب » سمع رجلا يذكر أن انشاد الشـــعر ينقض الوضوء ، فأنشد من فوره :

انبثت أن فتاة جئت أخطبها .. عرفوا بها مثل شهر الصوم فى الطول ثم أقام الصلاة .

. رأى الكاتب المرقص الحديث لأول مرة . وهو شيخ يلف علـى رأسه العمامة ويرتدى الجبة والقفطان . وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٢. فكتب فى وصفه هذه الرسالة الساذجة التى تمثله وهو يفتح عينيه علـى فتن الوجود فى دهشة وانجذاب :

. أعرف أنى شيخ . وأعرف فى نفسى أنى من حماة الدين الحنيف. والله عليم بذات الصدور . ولكنى تذكرت بجانب ذلك أنى صحفى . وأن المهنة تقضى على بارتياد مواطن الشبهات ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس . ولأقابل بين ما أراه على لوح الوجود ، وما أراه على لوح التاريخ. وعندى أن الصحفى كالطبيب . فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ماتستر المرأة ، ليقف على موقع الداء ، يجوز للصحفى أن ينظر أغرب ماتـكتم الأمة ، ليقف على مواطن الداء .

وتذكرت أنى كاتب . والكاتب كالمصور . لاغنى له عن رؤية كل مكنون . ولن يعذره أحد اذا أخفق فى تصوير الغرائب المستـورة ، والعجائب المكنونة ، بحجة الدين والأخلاق . لأن (الفنان) لادين له فى قرارة نفسه .

. « ان طلاب الأزهر لايعرفون غير متاعب الحياة . فهم فى سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقـدة ، والدروس المتعددة . ثم اذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل ، والهم الجزيل ، دخلوا فى حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، فى ميدان كله رماح طوال وسيوف صقال .

ان النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهريين فى الزمن القديم أو الحديث ليس أثرا من آثار الادارة التى تولاها زعماؤه الأقدمون أو المحـدثون ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هيـأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية .

في الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض تراهم اذا زرت الجامعة المصرية أو مدرسة الازهر الفرنسية تراهم فلا تشعر بغير الاعجاب بهم والاعظام لهم ».

ماذا تستطيع أن تعطينا هذه النماذج لنرسم صورة زكي مبارك ؟ .. الواقع انها تعطينا صورة الاندفاع والحماسة والايمان والرغبة في الاصلاح والاتجاه نحو التبريز والشهرة . ولكن من هذه النماذج ما يعطي صورة زكي مبارك التي عاشت معه الى آخر الحياة :

صورة الاعتزاز بشخصيته والبعد عن مزالق النفاق والمصانعة . يقول في مقال له ، نشرته جريدة الأفكار (نوفمبر سنة ١٩١٩) :

« تنصحني يا هذا بأن أجامل . وأن أصانع . بل تريد أن أنافق . ويحك . انما ينافق الضعفاء .

ان الله لم يخلقني لأكون ألعوبة . أداري هذا وأجامل ذاك . أنا خير منكم جميعا . أنا في نعمة من الله . لاأبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم . وان الله لأكرم من أن يضطرني الى مصانعة جماعة من الكسالى لاقيمة لهم في هذا الوجود . ان فضيلة الوفاء هي التي تضطر مثلي الى أن يجامل بعض الناس . كلا : لن يكون هذا . انكم تنافقون لتعيشوا . أما أنا فحي بالرغم منكم . لأن الله لايريد أن اموت . وسوف تعلمون .. »

هذا هو زكي مبارك سنة ١٩١٩ . وهو زكي مبارك الى آخر الزمن . لم يتغير بعد ذلك . ولم يجامل . ولم يتملق . ولم يصانع السلطان . ولذلك عاش حياته غريبا لم يقتعد مكانه الحق في الحياة .

وفي هذه الفترة من حياة زكي مبارك لن ننسى الجانب الروحي . فقد اتصل زكي مبارك في الأزهر بالطرق الصوفية . كما اتصل بالجامعة . يقول :

« في سنة ١٩١٢ وأنا طالب في الأزهر اشتدت رغبتي في صحبة الصوفية . والح الشوق فأخذت أتنقل من ناد الى ناد . حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف . كان يومئذ من كبار الصوفية .

فأخذت عليه العهد . وبدأت أقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية . وكان فى صوتى من المرونة مايساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقـــدمين فى الانشاد . وفى سنة ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء . وكان لى فى سنتريس وغير سنتريس مريدون وأتباع .

وفى عام ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع . فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وانتهى ذلك بالقطيعة ..

ومرت أيام عانيت فيها من الضجر ماعانيت . وحاولت أن أصـــلح ما بينى وبين الشيخ . ولكنى لم أفلح فى جذب نفسى اليه . فقد اقتنعت ان بعض الصوفية أرباب ظواهر . وان ادعوا انهم أرباب قلوب .

وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب « الأخلاق عند الغزالى » . ذلك الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ . وهو كتاب تجنيت فيه على التزمت فى التصوف . ورميت بعض أشـياعه بالغفلة والجهل ؟ وهكذا تبدو حياة زكى مبارك فى مطلع الشباب ، وقـد غمرها اضطراب عنيف .

حياة الأزهر ، تلك التى أمضى فيها اثنى عشر عاما ، قد تخللها الكثير من عوامل التحول عن الأزهر الى الحياة الحديثة والتعليم الحديث ، فولى وجهه شطر الجامعة ، وحاول اتقان اللغة الفرنسية . وكتب فى الصحف . وأحب التصوف ، ثم هجره . وبدا فى صورة الرجل الذى يريد أن يعارض الأراء المعروفة والتقاليد حتى يكون ذلك مصدرا للشهرة والتبريز .

حياته في الجامعة

اتصلت حياة زكي مبارك رسميا منذ سنة ١٩١٦ ، ثم زادت اتصالا عميقا . وفي الوقت نفسه بدأت تنقطع من ناحية الأزهر ، بل ربما شابهـا كثير من الفتور والاغضاء . غير أن اثر الأزهر في زكي مبارك ظل قويا عميقا طوال حياته . فالأزهر هو الذي أهدى اليه أعظم خصائصه : أسلوبه البليغ ، وتراث العربية والاسلام ، ممثلا في الشعر والنثر ، وصلته بالشيخين المهدي والمرصفي . كل هذا ظل واضحا بارزا في انتاجه ، وأدبه ، وحياته وان كان قد تطور ففهم بعض أصول الأدب ومراميه وفنونه ، بعد أن اتصل بالجامعة ، ثم اتصل بالثقافة الفرنسية .

ولكنه حين تحول الى الجامعة ، تحول عن بعض معتقداته وآرائه . فهو الذي كان محبا للصوفية . ثم أنكر بعضهم . بل لقد بلغ في ذلك غاية العنف حين هاجم الغزالي ، فأثار الناس ثورة عنيفة ، رجع عنها بعد ذلك ، وأنكرها من نفسه ، وكتب يقول : « اليك اعتذر أيها الغزالي » .

أما في هذه الفترة فقد استطاع أن يدرس العلوم التي تؤهله للاشتراك في الجامعة . فحصل على الليسانس ، وكان من أسـاتذته في الامتحان ، أستاذه ورائده والرجل الذي ظل ينظر اليه ويترصد خطاه طوال حياته : طه حسين . وقد أسقطه طه حسين في امتحان الليسانس مرتين . فلمـا أن ظفر بها بدأ يعد رسالته عن الدكتوراه . وكان موضوعها « الأخلاق عند الغزالي» عام ١٩٢٤ حيث تحقق له ذلك الحلم .فأحرز اجازة الدكتوراه

وكان زكي مبارك قد أثار ضجة قبل ذلك بسنوات ، حين حاضر في الجامعة عن « حب ابن أبي ربيعة وشعره » . ولم يكن هـذا النوع من الحديث مقبولا في ذلك الوقت ، وخاصة اذا صدر من أزهري يلبس العمامة .. اذ لم يكن الحديث عن الغزل وعن وصف النساء والتشبب بهن أمرا

سهلا أو يسيرا حتى يكون موضع محاضرات تلقى ، أو كتب تؤلف . ولكنه كان حريصا على أن يثير الناس ليظفر بالشهرة . فعل ذلك فى الأزهر حين كان يكتب المقالات الطوال فى نقد نظم الأزهر وأساتذته . ثم فعـــل ذلك بمحاضراته عمر بن أبى ربيعة . ثم فعــل ذلك وبلغ الذروة برســـالته فى الدكتوراه التى نوقشت مناقشة علنية على مدرج الجامعة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٢٤ .

وقد صدر زكى مبارك رسالته عندما طبعها بهذه العبارة :

« هذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية . والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد . هذا هو كتاب « الأخـــلاق عند الغزالى » . أقدمه للجمهور ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبـلغ المغرضين من الصدق . وحق المرجفين من الصواب . هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللهـــو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهـــرت به . فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم . أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولغو اللاعنين من مرضى القلوب وضعاف العقول . »

وقد كتبت الصحف غداة هذا الامتحان بأن « زكى مبارك » هو ابن الجامعة الخامس . فقد أحرز اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » وقالت صحيفة الأفكار : « ان جو الامتحان كان عنيفا . وان الأسئلة دارت حول القديم والجديد . وكان أنصار القديم كثيرين » وأنصار الجديد قليلين . ولكن زكى مبارك لم يجد حرجا فى أن يظهر ، ولم يجـــد حرجا فى أن يصدم من أنصار القديم . ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم ينضبون ورآهم يثورون ، ليهدىء من ثورتهم ، ويخفض من غضبهم » .

وقال الأستاذ محمد جاد المولى ، مفتش اللغة العربية ، بالمعارف فى ذلك الحين ، يصف هذه المعركة :

« كنت فى تلك الأيام لا أعرف الدكتور « زكى مبارك » معرفة شخصية وانما كنت أعرفه عن طريق ما يكتب فى الصـــحف والمجـلات . فكنت

أتصوره شابا بعيد الهمة ، كلفا ينقد الشعراء والكتاب والمؤلفين ، محبا للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء .

ولما أطلعت على رسالته التي قدمها لامتحان الدكتوراه فى تلك الأيام وهى الأخلاق عند الغزالى ، رأيت فيها صدق ظنى : رأيته يهجم على حجة الاسلام الغزالى ، ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد فى حسابه ، لأعجم عوده وأسبر غوره .

فلما أخذت فى محاسبة الدكتور زكى مبارك على ما صنع فى نقد الغزالى تكشفت جوانب ، أثارت فضيلة الشيخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء . وكاد الجمهور يموج من الغيظ . ولولاحكمة رئيس اللجنة : الدكتور منصور فهمى ، لاضطراب النظام ، وانفرط عقد الامتحان .

وحين خلت اللجنة للمداولة أسفر نقاشها عن منح زكى مبارك اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » . واقترحت أن ينص فى محضر الجلسات على أن اللجنة غير مسئولة عما فى الرسالة من الشطط والجموح .

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد . ولكنى تبينت مع الأسف أن هجومى على الدكتور زكى مبارك كانت له عواقب . فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم ، وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهم الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ أحمد مكى .

وعند ذلك عرفت أن الدكتور « زكى مبارك » قد يقضى حياته فى المصاولة والمجادلة لما قد استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب » .

وهكذا كان استهلال زكى مبارك لحياته الفكرية : « باحث متعسف مشاغب » على حد تعبير الاستاذ أحمد جاد المولى .

وقد وصف عبد الله حبيب صديقه « زكى مبارك » فى هذا الجانب من جوانب حياته : فقال :

« أما ما أثاره من ضجة حول آرائه الجديدة فى شعر ابن أبى ربيعة

فقد ظهر لى بعد ذلك أن هذا هو ديدنه فى كل ما يتناوله من موضوعاته .
وهو فى هذا كأنه خلق ليسبب للعقول (رجة) لا قبل لأحد على احتمالها .

وأشار زكى مبارك فى بعض كتاباته الى أن الشيخ « حامد الفقى » وقف يوم الجمعة التى تلت امتحانه . وخطب خطبة الجمعة . فقال : ظهر فى مصر ملحد اسمه زكى مبارك . ذلك الذى فرحت الجامعة المصرية بالحاده . فمنحته الدكتوراه . ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل الجنة » . وقال : « ان خطيب مسجد الهدارة حرض المصلين على قتله »

أحب زكى مبارك كل مدينة عاش فيها : أحب باريس ، وبغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية .. وكانت جميعها مصدر الوحى له ..

« لماذا أحب الاسكندرية ؟ » « يقول : « السبب يرجع الى انى دخلت الاسكندرية أول مرة ، وأنا حزين ، دخلتها فى قفص . دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى أيام الثورة المصرية . دخلتها فى الظلام . فلم أر من جمالها غير أطياف . ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك الى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم صبابة ومدارج فتون . ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال .. ؟!

.. قضيت فى هذه المدينة شهورا طوالا بدون أن أشهد من جمالها غير ما يطوف بالأوهام والظنون . ولن أنسى أبدا كيف كان هدير البحر يقرع سمعى وقلبى فى غفوات الليل . ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لأرى الاسكندرية بعينى ولا طوف فى رحابها حيث اشاء بلا حارس ولا رقيب (١) .

وهو ينتهز كل فرصة يكتب فيها عن أى موضوع ليزود القارىء بمزيد من التاريخ والثقافة :

« وسكان الاسكندرية يرجعون فى الأغلب الى عنصرين اثنين :

---

(١) وصف زكى مبارك الاسكندرية اكثر من مرة فى مقالاته . وقد أوردنا صورة أخرى لها فى مكان آخر .

العنصر الوافد من الصعيد • وهو عنصر معروف بالعناد ، والعنصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الأندلس فى أيدى الأسبان ، وهو عنصر معروف بقوة المراس ••• كما أقبلت على الاسكندرية طلائع الجيش الاسلامى ، وجعلت للاسلام دولة على شاطىء المحيط • وقد كان بحرنا هذا أول بحر خفقت فيه الراية الاسلامية • وسيظل الى الأبد همزة الوصل بين حضارة الاسلام فى الشرق وحضارة النصرانية فى الغرب »

أما القاهرة فلها عنده صور متعددة : فهويراها شيئا ضخما مهولا •• ويراها ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف •• وفى مقال له عنوانه « ويسألونك عن القاهرة » يقول (١) •

فى القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم •

أكتب هذه الرسالة ، وقد هربت من ضجيج القاهرة ، فى مساء العيد •

نعم هنا القاهرة • ولكن أين مكان الأديب فى المدينة التى أصبحت عاصمة الشرق ، هنا فىالقاهرة زادالعقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدى ما أداه عشاق بغداد فى القديم ، وعشاق باريس فى الحديث •• ؟

وسأذكر بعد فوات الوقت أننى جنيت على شبابى حين أضعته بين سواد المداد وبياض القرطاس فى زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب •

وهل يستطيع قاهرى ان يمضى يوما واحدا بلا كفاح ، وهو يعيش فى مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة ؟

ان هذه المدينة التى تفتنكم لم تخلق فى يوم وليلة • وانماهى عصارة العزائم الشداد فى الأجيال الطوال • فمن أقام فى القاهرة وله عقلوذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللحظات ليؤدى الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه ان كان من الموفقين •

---

(١) الرسالة ــ ٥ من فبراير سنة ١٩٤٠

في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش ، لأن الدنيا في بلاد الشرق ما زالت ، وستظل ، تتسع للأوساط من الرجال ٠

أما في مصر - ويرحم الله أهل مصر - فليس فيها للرجل الوسط مكان العالم الوسط ٠ فهو لا يستطيع العيش ٠ والأديب الوسط لا يجد الرزق ٠ والصحفي الوسط لا يملك الوصول الى خبز صغير ٠

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء ، لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران ؟

ويسألونك :

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب ، لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده ، وعلي يوسف ، وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطي ، ومحمد المويلحي ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ولكنهم سيموتون بغصة الحسرة على أن نشئوا في القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذي لا يسلم من كربه غير الفحول الصوالية ٠

لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثلي أن يعتمد على ما ضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية ٠ ولكن القاهرة تعيش في وجه الرجل الذي يعتمد على ما ضيه ٠ لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء ٠ أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق ، هي حسناء لعوب لا تعرف حتى العاشق المزود بأطايب الثروة والعافية ٠

في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي مرة ٠ ولم أكذب عليه غير تلك المرة ٠ كتبت اليه أقول اني سأقضي أيام العيد في الاسكندرية ولم يكن الا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت ، لأكتب فصلا من فصول « النثر الفني » ٠ وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية ٠

انما أنا قاهري يحبس نفسه في البيت يوم العيد ، ليحفر بسنان القلم

ثقبا يتطلع منه على ضوء العظمة فى القاهرة ، عساه يقنع القاهرة بأنه رجل مجتهد يستحق أن يعيش .

القاهرة لا تعرف الرجل الوسط . فافهموا هذه الحقيقة ، يا أبنـــاء هذا الزمان . والا فهناك سلة المهملات تنتظر الألوف ممن يراسلون الجرائد والمجلات .

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوصى روح سيدنا عمر بن الفارض قبل أن أشرع فى كتابة الفصل الخاص به فى كتاب « التصوف الأسلامى » فراعنى أن أعرف أن تلك الناحية هى انفع مكان فى القـــاهرة من الوجهة الصحية . وكذلك ألفيت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات .

وطنى ! لقد شقيت بعظمتك . ومن أجل هــذا أحبك ، وأســتعذب الصاب والعلقم فى هواك » .

فى باريس

تعقب زكى مبارك خطوات أستاذه طه حسين ، الذى أحرز الدكتوراه من الجامعة المصرية القـــديمة ، واتجه الى فرنسا . كذلك فعل هو مع اختلاف الوسائل والأساليب . فقد ذهب طه حسين على حساب الدولة . أما هو فقد عجز عن تحقيق هدفه عن هذا الطريق فسافر على حسابه . كان فى السنوات الاولى يقضى الشتاء فى مصر ، والصيف فى فرنسا ، يدرس ويتأهب ، ثم انقطع عامين فى باريس ، عاش خلالهما على مورد ضعيف من جريدة البلاغ . واستطاع أن يحقق أمله ويظفر بالدكتوراه من السربون برسالته « النثر الفنى » .

وكان ذلك عملا ضخما يرسم صورة لطبيعة زكى مبارك وصلابته فيما يؤمن به ، وايمانه بالوصول الى هدفه مهما وقفت الصعاب فى وجهه .

وقد صور زكى مبارك هذه المرحلة من حياته فى مقدمة كتاب « النثر الفنى » فقال :

« هذا كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع ، وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين . فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة مجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى . وان رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو ، فليذكروا أنى ألفته فى أعوام سود لاقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين . أقضى شطره الأول فى القاهرة ، حيث أؤدى عملى ، واجنى رزقى . وأقضى شطره الثانى فى باريس ، كالطير الغريب ، أحادث العلماء واستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت . وكانت العاقبة أن أنعم على الله عز شأنه بالنصر المبين » .

وفى كثير من كتابات زكى مبارك وصف لحظات العبور وماتبطن نفسه اذ ذاك من مشاعر بالظلم « أسلمنا القطار الى الباخرة فى غير عناء ونقلت أمتعتى الى مكانى فى السفينة . ثم جاءت ساعة الغداء ، فشغلنا عن توديع الاسكندرية ، ان كانت تحتاج منا الى توديع . وهيهات ، فقد تمادت بنا مظالم الحياة . وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : اذ كنا فى بلادنا غرباء . والمظلوم فى وطنه غريب »

وفى مكان آخر يقول تحت عنوان « غريب فى يوم العيد » .

كان أول يوم دخلت فيه باريس سنة ١٩٢٧ من الأعياد الاسلامية : كان يوم عيد الأضحى . فلم أشعر بضجر ولم يساورنى اكتئاب . فقد كنت أعرف ان أهلى فى مصر يجتمعون للعيد ، ثم يسألهم الناس عنى ، فيجيبون بأنى على سفر ، فتجرى على الأفواه كلمة « رعاه الله » . ثم بادرت يومئذ الى الجامع ، لأشهد المسلمين وهم يتصافحون . فازددت أنسا الى أنس . وزالت عنى وحشة الاغتراب . واليوم يحتفل الفرنسيون بعيد ميلادهم . ويتسابق الأقرباء والاصدقاء والمحبون الى التحف المختلفة . فيتهادونها ، وعلى وجوههم علائم البشر ، وعلى شفاههم أشعة الابتسام . أما أنا فوحيد فى غرفتى . لا أنتظر أحدا . ولا ينتظرنى أحد » .

وقد صور زكي مبارك في مقـــدمة كتابه « ذكريات باريس » كيف وصل الى باريس بعد يأس وبعد شوق . وانه أمضى بها خمس سنوات . ويوم دخل باريس كان يعـــرف من دقائق اللغة الفرنســـية ما لا يعرفه الا الأقلون . وكان قبل ذلك قد آلف هـــذه اللغة آلفة شديدة (حتى كان لا يتكلم بها جماعة في جد أو هزل الا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس الفاحص)

وقال أن اقامته قد طالت في باريس ، لأسباب علمية ، سدد الله فيها خطاه . وان صورة باريس تبدو في نفسه في صـــورة كرام الناس الذين عرفهم هناك . وهما مسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونان .

وفي باريس لم يترك زكي مبارك صلابته واندفاعه وعنفه ، حتى مع أساتذته . فانه سرعان ما اختلف معهم في صميم العمل الذي ذهب من أجله . وهو رسالة الدكتوراه .

وكان في مقدمة من اختلف معهم مسيو مرسيه ، رأس المستشرقين الفرنسيين اذ ذاك ، ذلك الذي كان مفروضـــا أن يرأس لجنة امتحانه . فهو يخالفه في الرأي . ولذلك فقدهم بمهاجمته عندما وصل باريس ، لأن له آراء مدونة في نشأة النثر الفني عند العرب ، تختلف مع آرائه . وقد نصحه مسيو ما سنيون بألا يفعل . وأفهمه أن مسيو مرسيه رجل صعب المراس ، وان منزلته عظيمة ، وأن المستشرقين يحبونه . ولكن ، هـــل انتصح زكي مبارك ؟ لا بل انه يقول :

« ولكن كتب الله ألا أنتصـــح برأي مسيو ما سنيون . فابتدأت رسالتي التي قدمتها للسربون بفصلين في نقض آرائه من الأســـاس . فغضب الرجل ، وثار . وأصر على حذف الفصلين ، بحجة انهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث . وأصررت على ابقـــاء الفصلين ، بحجة انهما العماد الذي تنهـــض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني .

وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره . فمضى يعاديني

عداء خفيا ، كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا ، من عجـــز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقـــد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه . فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وانتهينا الى عاقبة أفصح عنها مسيو ما سنيون كل الافصـــــاح اذ قال حين لقيته أخيرا فى باريس :

ان مسيو مرسيه لا يحبك . ولكنه لا يستطيع أن ينساك . أمـــا أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل . لأنه من خيرة الأســاتذة الذين تلقيت عنهم فى باريس . ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفـــرت فيه بدبلوم الدراسات العليا . والله سبحانه هوالقادر على أن ينسينى مالاقيت على يديه من ظلم واجحاف »

وقد أحب زكي مبارك باريس حبا يفوق الحد . وأعجب بها أشد اعجاب . وهو يقول أن دراساته فى باريس لم تحل بينه وبين التأمل فيمـا يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضـــلال . فأنشأ كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة .

وقال ان باريس تتمثل فى صور تلك الوجوه الصباح التى رأتهـــا عيناى وألفها قلبى ، ثم أقصتنى وأقصتها ضرورات الحياة الى حيث لا أمل فى تراسل أو تلاق . وقال انه قد ألف الفراق وراضت قلبه الايام بعـــد الجموح فأصبح يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وفى أول أسفاره (يونية – ١٩٢٨) الى باريس يصف فراق مصر فيقول :

« خليت مصر وخليت ورائى فيهـــا هموما مريرة أثقلت كاهلى ، وأقضت عيشى : وراضتنى بعد الجموح . وكنت أحسبنى أقسى وأصاب من أن أعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين الى حين . ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيناى لفراق الاسكندرية . ولم يخفـــق القلب لفـــراق الوطن العزيز . ومرت بالنفس طوائف من الذكـــريات

الحزينة تمثلت فيها كيف شقيت بأهلي وأصـــدقائي • وكيف ضن وادى النيل بنفحة من نسمات البر على من يشقى ليسعد • ومن يغنى ليقـــدم له أسباب الخلود •

ثم ماذا ؟! هذا جرس يصلصل ! وهذه أفواج من المسافرين تمضى الى الغداء ، وأنا كذلك أمشى الى حيث يمضون بين الفتور والنشاط »

فى السربون

أقام زكى مبارك فى باريس سنواته الخمس ، حتى ظفر باجازة الدكتوراه ، فى ٢٥ من ابريل ســـنة ١٩٣١ • ثم عاد الى مصر حيث بدأ حياته الجديدة •

كانت حياته في باريس هى حياة طالب العلم الفقير ، الذى لا يملك أحيانا الا قوت يومه • كانت الجنيهات الخمسة عشر التى يرسلها اليه عبد القادر حمزة هى كل ما يملك من مورد • ولكن مراسلة البلاغ كانت تقتضيه أن يتعمق فى فهم الحياة فى باريس •

وقد سجل هذه المرحلة فقال : « كنت حين انتسبت الى جامعـــة باريس أقضى أربعة أشهر فى كل ســـنة فى مدينة النور ، ثم أعود الى وطنى لأجمع بين الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع الى باريس من جديد • ودام ذلك بضع سنين • ثم عرفت انى لن أصل الى غرضى الا اذا قررت بطريقة حاسمة الا أفارق باريس الا فى أحد حالين : النصر أو الموت • وكانت الاقامة الدائمة فى باريس تبدو من المستحيلات • لأن أبى رحمه الله لم يكن يقـــدر على امدادى بكل ما أحتاج اليه • وكان ما ورثته عن أمى طيب الله ثراها لا يزيد على بضـــعة قراريط • وكانت زوجتى أفقر منى • ولم يكن لى فى الحكومة المصرية عم ولا خال •

فى تلك الظلمات استطعت أن اتفق مع الاستاذ عبد القادر حمزه على مراسلة البلاغ فى باريس ، بمرتب قدره خمسة عشر جنيها • فتوكلت على الله • وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السربون •

وكان لا بد من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت اليه من الالقاب العلمية » .

وكان اتصاله عنيفا . فن « زكي مبارك » الفلاح لم يفقد (في باريس) ، طبيعته المندفعة ، وعباراته الجريئة ، ولم تعلمه باريس المجاملة ولا المداراة . قال زكي مبارك في قلب السربون : « جئت لأصحح اغلاط المستشرقين » . ومن هم هؤلاء المستشرقون ؟ هم اساتذته والذين يمتحنونه ، وبيدهم أمره كله . وقد حدثنا كيف وقف في وجههم في ديارهم . وقد صدق في قوله هذا . وجرى تاريخه بعد عودته من باريس نقيا قويا مؤمنا باللغة العربية ، مدافعا عنها . ولم تفلح باريس أن تحول أمانته للأمة العربية الى فرنسا واللاتينيات ، كما فعلت بعشرات غيره

ولكن هل اكتفى زكي مبارك في باريس ، بحياة الطالب في باريس؟ كان لابد له من معرفة الحياة في باريس ، لينجح في مراسلة البلاغ . ذلك الذي كان يدفع له مرتبه الشهري الذي يعيش به هناك . وقد صور هذا فقال :

« هدتني الفطرة الى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والملاعب والمراقص والقهوات ، فكنت أقضي في هذه النزعة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل . كنت شابا ، ورحمة الله على شبابي ، الشباب الذي بددته في طلب الحب والمجد . كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لماقالاتي جوا من الحقيقة لا من الخيال . وأعانني على ما أسموا اليه لسان مرن في اللغة الفرنسية مرونة محببة ، تقدر على جذب من أحادث من أسراب الظباء .

والفرنسيين يغفرون للرجل جميع الذنوب اذا أمدته العناية الالهية بلسان فصيح . وكان لي في باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جدا في بولميش بجوار قهوة الرجل التي كان يجلس فيها الدكتور طه حسين ، يوم كان طالبا في جامعة باريس . وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة

للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية . فكيف صارت اليوم ؟ ليتنى أعرف
أما القهوتان الأخيريان فهما الروتوند والدرم فى حى مونبارناس .

وفى قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التى أدونها فى هذا الحديث

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل . وجلست بالقرب من تلك السيدة عسانى أنهب منها نظرة أو نظرتين ، أستعين بهما على اتمام بعض الفصول فى كتاب (سحر العيون) وما هى الا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف .

ثم أشارت بأن اقترب . فاقتربت ... رباه متى تعود أيامى ؟!

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة ، عرفت أنها من البغايا ، أعوذ بالله . أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجوة (الأوباش) ،

أتكون هذه الحسناء الفاتنة شبيهة الشمس ، ينعم بضوئها من يشاء ولو كان من الخفافيش ؟ أتكون هذه التحفة الفنية الشبيهة بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب ؟ ألك يا رباه حكمة فى اذلال هذه الروائع الفنية التى زينت بها الوجود ؟

وهجمت على تلك السيدة بعنف . فقالت :

« أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب . وكان ثمرة الحب طفلا . هو اليوم بمدرسة (..) وقد هجرنى الحبيب والد الطفل . وتركنى وحدى أربيه وأرعاه فأنا أتسول باسم الحب ، لأنفق على ذلك الطفل المسكين ، الى أن يظهر أبوه . »

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى .

ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها . وليس لى من جريدة البلاغ ، ومن الدروس الخاصة (الخصوصية) ، الا مبلغ ضئيل من المال ، لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على الغرباء فى باريس .

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعا نبيلا قد يرفع روحى

بعد اسفاف • وقالت فى استحياء ان لغرفتى مفتاحين • لك مفتاح ، ولى مفتاح • فخذنى لنفسك • وراقبنى كيف تشاء • فان استطعت ان تشهد على ما يريب بعد اليوم ، فاقتلنى • والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من الجهل والجوع • •

•• وقد أنسى كل شىء • ولكن لن أنسى طلعة موريس ••••

وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته انى توجهت الى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهبه •

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع الى أجواز السماء •

وفرحت مرجريت بما صارت اليه من راحة البال وصفاء النفس ، بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس • ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات ، فعلمتنى الرقص ، وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل •

وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين •

ولم تكتف بذلك • بل نقلتنى الى دران والهافر • وأطلعتنى على المستور من شواطىء المانش ، وأقامت معى فى الضواحى النائية أسابيع •

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء • فلو أنى قلت انى كنت فى حبها من الأطهار ، لما صدقنى مخلوق • وأجمل ما نلت منها لم يزد على قبلة شهية ، طبعتها على جبينى ، حين أخبرتها أنى متأهل ، ولى أبناء • وقد قهرتنى على قبول هدية من العطر والكريم لأرسلها الى ابنتى أو زوجتى • وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين •

وكانت مرجريت متعبة الى أبعد الحدود • قالت لى ذات يوم : « أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة » •

كانت مرجريت ضجرة من حياة الفنون • وكنت ضجرت من حياة الفتون • وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب • وكيف لا نتصوف فى الحب ، وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس ؟

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شـــهرا ، وصـــلت الى ما أريد من امتحانات مدرسة اللغـــات الشرقية ، وامتحانات السربون . وأصررت على الرجوع الى أهلى وأبنائى . ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس .

وأى توديع . كان من الواجب أن أرد المفتـــاح الى مرجريت . فرفضت والدمع فى عينيها الزرقاوين . وقالت : « احفظ المفتاح . لقـــد تصل على حين غفلة الى باريس .. »

فى بغـــداد

عاد زكى مبارك من باريس سنة ١٩٣١ وسافر الى بغداد ســـــنة ١٩٣٨ للتدريس فى دار المعلمين العليا ببغداد . فى خلال هذه الفترة عمل زكى مبارك رئيسا للقسم العربى فى الجامعة الإمريكية ، وموظفـــا فى وزارة المعارف .

وكتب خلال هذه الفترة فى جريدة البلاغ . ويمكن أن يقال ان هذه هى أخصب فترة فى حياته الادبية . كان يكتب كل خميس مقـــالا تحت عنوان « الحديث ذو شجون » وفى خلال ذلك كان يعد العدة لرسالته فى الدكتوراه من الجامعة المصرية عن رد التصوف الاسلامى » يوم ١٤ من ابريل سنة ١٩٣٧ . حيث أحرزها فى الفلسفة بدرجة الشرف .

وهذه هى الدكتوراه الثالثة التى أطلق بعدهـــا على نفســـــه لقب « الدكاترة زكى مبارك » وفى خلال هذه المرحلة أثار زكى مبارك خصومات ضخمة متعددة مع أدباء مصر حتى ليمكن القول انه لم يترك أديبا بارزا دون أن يطاوله . وفى مقدمة من طاولهم الدكتور طه حسين .

وقد سجل زكى مبارك أنه بعد أن رجع من باريس ، لم ينحرف ، ولم يكن حريصا على أن يقدم ألوانا من الادب الفرنسى وأعلامه ، كمـــا حدث بالنسبة للأدباء الذين سافروا الى فرنسا ، وعادوا . وهو يصـــور هذه الفترة فيقول :

« حين رجعت من باريس سنة ١٩٣١ ، أخـــذت أنشيء في جريدة البلاغ مقالات عن ذخائر الادب العـــربي • ولكن الدكتور ابراهيم ناجي ضاق صدره بتلك المقالات • فقد كان ينتظر أن أكتب عن الادب الفرنسي ولهذا كتب مقالات بتوقيع مستعار في احدى الجرائد الأسبوعية ، تقـــوم على الغمز والتجريح • واستمر غمزه وتجريحه سنتين » •

وكان زكي مبارك في خلال هذه الفترة يذكر النثر الفني على أنـــه قمة ضـــــخمة من قمم أعماله الادبية : ما تذكرت كتاب النثر الفني الا شعرت بنيران تتأجج في عروقي » •

وقد أعلن في أكثر من مناسبة أنه أول حائز لدرجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وأول حائز لدرجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة •

وتعد رحلة زكي مبارك الى العراق رأس مرحلة جديدة في حياته • فقد أتاحت له الفرصة لأن يزداد ايمانا بالعروبة • ويوسع دائرة ثقافتـــه ويعمقها ، ويحرص على أن يكتب عن العراق والشاعر الشريف الرضي •
وقـــد ظل زكي مبارك يربط بين رحلته الى باريس ورحلته الى العراق ، ويؤكد أنه باقامته في العراق قد أعز العروبة •

وما أظن أن كاتبا من الكتاب العرب أشاد بجزء من الوطن العربي ويلغ في ذلك أروع صور الوفاء ، كما فعل زكي مبارك ، حين أشاد بالعراق وأحيا فيه جوانب الحياة هناك في حب واعزاز • بل ان « زكي مبارك » ذهب في حبه للعراق الى أبعد الحدود • فلبس السدارة العراقية • وأعلن أنه سفير للعراق في مصر • وقد كان عام العراق (١٩٣٨) من أخصـــب أعوام حياته • فقد شغل مطبعتين في بغداد ، كان عمالهما يطرقون بابـــه مع الشروق ، ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول •

يقول : « كونتني بغداد ثم شفتني بغداد ، كونتني لأني عشت فيهـــا محبوسا ، لا أدري أين أذهب • وشفتني بغداد لأني أنست بسواد الليل حين فاتني الأنس بسواد العيون ، فشرفت نفسي بمراسلة الصحف في

مصر والعراق ولبنان ، وخرجت من ذلك بمحصول سيملأ خمسة مجلدات » . وفي مجلة اخرى يقول : « لقد احصيت ما كتبت في هذه الفترة فوجدته يزيد على خمسة الاف صحيفة . ونظرت فيما القيت من الدروس والمحاضرات في بغداد ، فوجدته يزيد عما أذاعه الأستاذ فلان في عشر سنين » .

ويقول : انه لم يعرف طعم الحياة في بغداد . فقد قضى جميع لحظاته والقلم في يده . واشترك في أكثر أندية بغداد ، ونظم محاضرات ولم يترك زكي مبارك في العراق طبيعته ، فدخل في معارك ومساجلات بل انه أثار الجهات المسئولة ضده ، على أثر حديث له في الاذاعة . وكانت اذاعة أسبوعية كان يشهدها من يشاء من أفاضل البغداديين ، وجعل مساء كل خميس سهرة أدبية في نادي المعارف .

وكان يرى أن مهمته في بغداد لم تقف عند حدود التدريس . وانما هي أعظم من ذلك : « أدركت أن لي مهمة تفوق العمل الذي انتدبت له ـ وهو التدريس ـ أدركت أنه يجب أن أجاهد في السر والعلانية . ونظرت فرأيت « بغداد » توحي الى قلمي بأشياء لم يلتفت اليها من قبل ، ورأيتني في حال أو أحوال تضيفني الى أرباب القلوب من أهل الاشراق »

وقد كانت من أبلغ أعمال زكي مبارك في بغداد دعوته الى الجامعة العراقية التي طالما رددها . وكان مما قاله :

« هل تراني أفلح في دعوة الشعب العراقي الى الصوم يوما واحدا لتكون أثمان طعامه في يوم واحد كافية لانشاء جامعة تنافس الجامعة المصرية ؟ »

ويصور كرم العراق في أكثر من صورة . فيقول :

« ما ذقت طعم الحياة الا في العراق ..

ولا رأيت صدق القلوب الا في العراق ..

ولا عرفت جمال النيل الا بعد أن رأيت لون مائه في دجلة والفرات

أحب أن تسمعوا سجع الحمائم فى الموصل • وأن تروا غابات النخيل فى البصرة • وان تعانوا السحر فى بابل • وان تكحل أعينكم بغبار الصحراء فى النجف • وأن تستصبحوا بظلام الليل فى بغداد • »

وفى موضع آخر يقول :

« هل عرفت معنى الصداقة السليمة قبل أن أعرف العراق ؟

لقد أحببت أولئك الناس وأحبونى • فلى فيهم أصدقاء ، هم الغاية فى الوفاء • وسأبقى ما بقى من حياتى وأنا اليهم مشتاق • مشتاق » •

ويصور عبوره دجلة من الكرخ الى بغداد :

« فعبرت دجلة من الكرخ الى بغداد • وأنا فى ذهول • فحدثتنى النفس بحلاوة الغرق فى النهر الذى وعى ما وعى • وضيع ما ضيع من أسرار القلوب • ثم تذكرت ديونى فى القاهرة ، ديونى لجريدة الصباح التى تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك •• »

وقد تساءل هو عن سر شغفه بالعراق ، فقال :

« أنا فى الواقع تلميذ بغداد ، قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو باريس» وتساءل كيف سيطر العراق عليه كل تلك السيطرة فقال :

« السبب واضح : وهو أنى نقلت الصدق عن أهل العراق » والحق ان سر نجاح زكى مبارك فى حياته الأدبية لأنه أحب كل بلد عاش فيه •

ملامح شخصية

لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح فى ملامحها وأصرح من شخصية زكى مبارك فانه من اليسر الوصول الى شمائل هذه الشخصية من آثاره وكتاباته • فهو أصرح كتابنا المعاصرين فى الحديث عن نفسه • وأجرؤهم فى الكشف عن دخائله • وأقدرهم على مجافاة التقاليد •

وهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابة ، والولوع بمهاجمة المنافقين والذين يظهرون غير ما يبطنون . فهو يعلن رأيه في كل انسان ، وفي كل شيء في صراحة تامة ، دون أن يبالي عواقب ذلك في حياته العامة . ولقد جر عليه مذهبه هــذا عداوات كثيرة . وكان سببا في تخلفه في الحياة وعجزه عن الوصول الى مكانه الحق .

ولعل مرجع هذا عنده أنه قد احتفظ بطبيعة الفلاح ، في عنفــه واندفاعه وصراحته وصوفيته . فاذا أحب أو كره ، بلغ غاية الغايات ، ووصل نهاية الشوط . لا وسط عنده ولا اعتدال . تتحكم فيه عاطفتــه وأعصابه . وتذهب به مذهب الرضا أو الغضب .

وهو الى هذا قادر على مواجهة أخطائه ، والاعتراف بها ، ولعــل أبرز مواقفه في ذلك عندما هاجم الغزالي ، في مستهل حياته الفكرية ، ثم لم يلبث أن رأى نفسه قد أخطأ في ذلك . فكتب في صراحــة ينكر رأيه الأول ويعترف بخطئه .

يقول انه برأ نفسه من المجاملة والنفاق المصنوع ، وانه ترك لعقله الحرية ، رغبة في تخليص الادب من براثن الرياء والصــــنعة وقيود الهوى . ولعل هذا هو الذى صير حياته أتونا متقدا من العداء الصـارم الماحق الذى سد أمامه أبواب الرزق ، وفصله من عمله مرة بعد مرة

وهو من الواقعيين الذين يواجهون الحياة مواجهــة عملية ، حين يرى (ان الرحمة شيء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيهــا بناء واحــد على أساس الرحمة . والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على أساس الاشفاق . وانما قام كل شيء في الوجود على أساس القهر والغلبــة وسيطرة القوى على الضعيف .)

ويمضي في فهم الحياة على هــذا النحو فيرى أن الشيطان مخلوق شريف ، لأنه لا ينافق . فهو يعلن في كل وقت أنه من الضــــالين المضلين . ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان لأصبحنا جميعا من الملائكة لا من الشياطين .

وقد يتهم باسرافه فى الاتجاه العاطفى ، وتغليبه على الاتجاه العقلى فيدافع عن نفسه « آنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزانا من العقل . وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذهدايته من الفطرة . على حين لا يهتدى العقل الا بالبراهين ، وهى فى الاغلب تقوم على مقومات لا تخلو من تضليل » .

وهو لا يستطيع أن يعيش فى ظل أحكام العقل . ولعل هـذا هو الذى يجعل خصومه يتهمونه أحيانا بالجنون . يقول :

« أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون . فمن وصفنى بالعقل فهـو متلطف . ومن وصفنى بالجنون فهو مسرف . لأنى فى حقيقة آمرى انسان يعيش بثورة العواطف ، فوق ما يعيش بقوة العقل . وهى حالة تجعل آمرى وسطا بين العقل والجنون . والتوفيق الذى ظفرت به فى حياتى العلمية مدين لحياتى الوجدانية . فقـوة الوجـدان هى التى جملتنى على أن أستقتل فى الدراسات الأدبية والفلسفية . وقـد يأتى يوم آعترف فيه بالأسباب الوجدانية التى جعلت عقلى يتفوق الى أبعـد حدود التفوق ، فى مثل كتـاب « النثر الفنى » أو كتاب « التصـوف الاسلامى » .

وهو يؤمن بالصدق والصراحة بالرغم مما جرا عليه من متاعب : « النفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام ، فأوغلوا فيها ، وافتتنوا فى جميع أسبابها .

والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد ، حتى لا أمل فى ردهم الى الحد المعقول » .

وهكذا يكشف زكى مبارك عن حقيقة كان لها أثرها الواضح فى حظ حياته كله . لقد اقتنع بأن الصراحة محنة . ولكنه ظل عنيدا فى الإيمان بها .

وفى هذا يقول مخاطبا نفسه : « لقد وصـل ناس لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت . ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك

وفيت • وتقدم ناس لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جددت • وانتفع ناس لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت » •

وهو يحاول آن يقنع الناس بأن (الصدق لا يغضب عقلاءالرجال ، وانما يغضبون من التحمل البغيض الذى تمليه الضغائن والأهواء) ولكن أحدا لم يقتنع •

وهو لا يحب الهدوء وينفر منه ، ويبحث عن الضجيج : يقول : « الجنة لا تستهوينى لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب وأنا اكره الحياة الخالية من المتاعب • مضيت مرة للبحث عن مكان هادىء فى احدى ضواحي باريس • فوجدت شيئا كتب على بابه هاتان الكلمتان : (هدوء مطلق) • فانزعجت لأنى أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون الا فى مساكن الأموات •

وفى بغداد اخترت دارا يجاورها مصنع حديد ، لأفر من الهدوء المطلق • وبنيت دارى بمصر الجديدة فى مكان يجاور ضجيج الحياة ، لأسمع اشتجار المعانى فى صدر الوجود » •

وهو دائما يسجل أنه وصل الى ما وصل اليه بجهد بالغ ونضال جبار : « هل عانى أحد فى دنيا الادب مثل الذى عانيت : لقد انتزعت حظى من أنياب الحياة السود • فهو حظ مدون بالسم الزعاف • ولو استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودى لفعلوا • ولكن كيف يستطيعون ، وقد ضيقت عليهم الخناق ، وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبةللصابرين على مكاره الجهاد • وهو يندم على أنه قضى حياته ليعمل فى الأدب : « لو كنت اتجرت بالتراب لصرت من أكابر الاغنياء • ولكنى شغلت نفسى بما لا يفيد ، فذرعت فضاء الله فى فرنسا ، الى أن سبحت فى بحر المانش • وذرعت فضاء الله فى العراق ، الى أن سبحت فى شط العرب • وألفت اثنين واربعين كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية • واشتغلت بالتدريس عشرين سنة • وكانت صراحتى تقطع رزقى • فأخرجنى الاستاذ محمد حسن العشماوى من عملى • وأخرجنى الأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى من وزارة المعارف » •

ويقول : « لم أنتفع بشيء . فمنذ عام ١٩١٣ الى سنة ١٩٥٠ وأنا أحرر في الجرائد والمجلات ، وأملأ الدنيا ضجيجا ، وأنشيء مدارس أدبية وفلسفية ، وأنظم القصائد الجياد . ثم أراني متخلفا في حياتي الرسمية . وأنا معتز بهذا التخلف . فما لأحد في حياتي ما يمن به على اذا اشتجر بيني وبينه الجدل » .

وهو يعيش في حيرة دائمة متصلة ، كأنما هو غريب .. يخشى دائما أن يواجه نفسه . « ما رجعت الى نفسي مرة الا تهيبت اقتحام ما في شعابها من وعور وصخور وأشواك . وقد وقعت مرة على ساحل النفس في ظلمات الليل . فرأيتني عندها من الغرباء . وكيف لا أكون كذلك ، وأنا منها على بعد سحيق ، سحيق ، يعد بالملايين من الأميال ؟ » .

وفي ليلة عيد الميلاد : يمضي يجوب الظلمات . وقد راعه أن يجد في قلبه فزعا مخيفا يذكر بالفراغ . وفي كل مناسبة أو في كل عيد تراه يقاسي الحيرة نفسها . ويضيق بلياليه وأيامه ، كأنما يبحث عن شيء مجهول .

وهو الى ذلك قد يمضي العام دون أن يعرف طعم السهر في مغاني القاهرة . وترى أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب ، فقد بقي قلبه كالغابة في ضمير الظلماء . « فان قلت اني أشكو خيبة في الحب أو اخفاقا في المجد أو غدرا في الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة ، تزعج النفس لحظة ، ثم تزول .. وأكاد أحسب ان الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم .

وأنا لم أنجح في شيء من ذلك ، لأن استقلال ارادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات . وأنا بين المؤمنين ، ملحد . وبين الملحدين ، مؤمن . وأنا بر عند الفجار . فاجر عند الابرار . فأنا في كل بيئة أجنبي . وفي كل أرض غريب » .

ولا يلبث أن يرى نفسه متحررا من كل تبعية فيقول « كان يجب أن يكون في مصر كاتب مفكر متحرر من العبودية لمن في أيديهم الرفع والخفض ، وأنا ذلك الكاتب » .

وقد صدق ...

وعندما عاد من العراق ازداد احساسه بالغربة ، فرسم هذه الصورة التى تدل على الامعان فى الغرابة ...

« هذه دارى ، الدار التى أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لافتح أمام قلبى آفاق المجهول فى عوالم المبانى . وهذا وطنى ، الوطن الذى عانيت من أجله ما عانيت ، ولم أخنه فى سر ولا جهر ، ولم يرمنى غير الصدق والوفاء . هذه دارى ، وهذا وطنى . ولكن أين أحبائى وأحبابى ؟ من كان يظن أنى أقضى الأيام والأسابيع فلا أجد من يسأل عنى بعد غياب الشهور الطوال . من كان يظن أنى أحبس نفسى فى دارى ليالىوأياما ، فلا يسهرلعزلتى جفن ، ولايحزن قلب ، ولايرتاع وجدان ؟ من كان يظن أنى لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟ .

أنا أطفىء المصباح بعد نصف الليل ، وأفتح النوافذ ، لأرى كيف يهيم نور القمرفوقرمال الصحراء . آه . ثم آه من حيرة القلب فى غفوات الليل .

أيتها الصحراء : ان حالك مثل حالى . موات فى موات . وقد تمرح فوق تراك الميت هوام وحشرات ، وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هوام وحشرات ، هى السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب وجمال الوجود .

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث ، فتنبت فوق نراك الأعشاب أما قلبى فقد أمحل الى الابد . ولن ينبت فيه شىء .

أيها الليل ، خذ السواد من قلبى ، ان أعوزك السواد . خذالظلام من حظى ان أعوزك الظلام . خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات .

أيها الليل ، لا تجزع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك لا تفزع من الوحدة ، ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات .

انت باق على الزمان . وأنا صائر الى الفناء .. » .

تزوج زكي مبارك مبكرا ، ومنذ عمل في الجامعة سكرتيرا لمسيو كازانوفا بدأ يتطلع الى المجد . ألم باللغة الفرنسية منذ كان طالبا بالازهر وخطب بها على منبره . وكان يدرس في الصباح . وفي المساء ، كان يلقى دروسا مسائية في تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الاليانس فرانسيز .. وكان له أولاد وأسرة .. ولم تمنعه متاعبه هذه من أن يجاهد ويعبر البحر .. وقد فرق بين الزوجة الفلاحة والزوجة السافرة .. فاعترف لزوجته بالفضل .. « يسرني أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة أمها وأختها . فحفظت قلبي سليما من الهموم التي تزلزل عزائم الرجال » .

وذكر أثر الزوجات الجميلات في حياة ازواجهم : « علمتني التجارب ان الرجال الذين لهم زوجات سوافر تقضى لهم مصالح لاتقضى لأمثالنا نحن المحافظين المفضلين الذين يجهلون خلق الزمان » .

وقد صور أحزانه لفقدابنه : « كنت ألقي دروسا مسائية في تدريس اللغة الفرنسية ، بمدرسة الاليانس فرانسيز . وكنت أخرج مكدودا بعد ساعتين من الدرس . دخلت البيت فوجدته في سكون على غير المألوف . فعرفت أن (أحمد) مات . وأن زوجتي لا تريد أن تراني ، لئلا أقرأ في سطور وجهها أن (أحمد) مات . أويت الى فراشي ، وهو في الدور الثاني من البيت . وقضيت الليل كله في أحلام مزعجات . ان للثكل طعما مرا للغاية . كفنته بيدي . وحملته على كتفي الى مثواه الاخير » .

وكان زكي مبارك في شبابه نحيلا . وقد صور ذلك في شعر كتبه تحت صورته في مقدمة كتابه « حب ابن أبي ربيعة » سنة ١٩١٩ :

لم يبد رسمي ضئيلا كالبدر عند المحاق
الا لأن الليالي ومالها من خلاق
ساءت فصارت بلادي غضنفرا في وثاق

وقال انه في هذه السن كان لا يزيد وزنه على ٣٠ كيلو جرام . ثم

زاد وزنه حتى أصبح ٨٤ كيلو جرام • وهو لهـــذا لم يـــكن يأكل الخبز منذ عام ١٩٣٣ بوصية أحد أطباء باريس •

وقد روى عن نفسه أنه كان يصوم رمضان حتى فى باريس :

« كانت صحتى قد اعتلت ، فنهانى الدكتور محمد عبد الحى عن الصيام فى شهر رمضان • ولكنى رأيت أن أصوم فى الاعوام التىقضيتها فى مدينة الحلال فى جميع الأشياء • لقد شعرت بروحانية غريبـــة حين صمت عن الطعام والشراب فى مدينة باريس ، وهو صيام غريب وعجيب ثم أفطرت حين قرأت قول الشاعر الصوفى :

اذا المرء صام عن الدنايا فكل شهوره شهر الصيام

وقد عرف بالوفاء ، حتى كان أهل بيته يترقبون عودته من غيـابه فى كل مرة •

وكانت لزكى مبارك دقـــة جرس معروفـــة ، اذا ما وصـــل صداها الى أهل منزله عرفوا أنه قد وصـــل •• وعند ما عاد من العراق فاجأهم بها • يقول « كانت دقة واحدةمن الجرس كافية لأن يطرب جميع أهل البيت :

قالت زوجتى وهى تبكى من الفرح : ما كنت أحسب أنى سأعيش حتى أراك • فقلت : أنتم تغلون نشاطى بهذا الحنان المزعج •• »

ومن وفائه ما سجله من أنه كان لو عاش أبوه حتى يؤدى له بعض ديونه : « كان فى النية أن أؤدى الى أبى فى شـــيخوخته بعض الديـون التى طوق بها عنقى فى شبابى • ولكنه مات قبل أن أؤدى بعض الديون الثقال •• لم يبق ما أتعزى به فى عقوق أبى الا أنى لم أوجب عليه أن يسهر ليلة واحدة من أجلى • فلم يمت الا بعد أن عرف أنى مزود ومؤهـــل بالألقاب العلمية •• »

وهو بالرغم مما اتهم به من تحلل أو كفران ، يتجه الى الله بقلب مؤمن ايمانا عميقا •• فينادى :

« يا ملاذ كل خائف . ومأمن كل ملهوف « لقد مرت أجيال وأنت المأوى الامين لكل من تضيق عنه بلاده .. »

ويرسم للحق جل وعلا هذه الصورة الرائعة :

« النور القدير على تمزيق الظلمات ، هو نور الله ، النور الغلاب القهار الذى لا يصده حجاب ، ولو كان فى كثافة أنفس المحجوبين عن كرم واجب الوجود . وما تمر بنا لحظة من لحظات الكد والغيظ الا كانت شاهدا على أن ايماننا بالله ايمان مدخول .

ولا تمر بنا لمحة تعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك الا كانت دليلا على أن ثقتنا بالله مزعزعة **الأركان** .

فما بال قوم تطير نفوسهم شعاعا حين يهددون بغضب بعض الخلائق ولا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله

جرب الثقة بالله ان كنت لم تجربها من قبل ، فسترى أن الأنس بالله يرفع عنك اعباء الثقة بالناس ، وما اعتمد أحد على خلق الله الا باء بالخذلان » .

وهو يصور موقفه من الرضا بعطاء الله فى أجمل صوره ، حين يقول :

« فى يوم صائف جاءوا بمالا أريد ، فقدموا الى طعاما لا أشتهيه فى أيام الصيف ، وكانت النتيجة ان أهم بالاعتراض . وفى أقصر من لمح البصر تيقظ قلبى وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانحلال . وأني لو جحدت الرزق في أية صورة لذهب الى غير معاد .

ان نعم الله تواجهنا من كل جانب . ويكذب من يزعم ان الله يتخلى عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء » .

وهو يؤمن بأن الله هو صاحب الضر والنفع : « من تلك النعم : نعمة الرضاء المطلق بما كتبه وقضاه . فما أذكر أبدا انى جزعت أو ضجرت من مكروه يلم بى . وهناك نعمة أعظم ، تفضل بها على الله ،

وهى الايمان بأنه تبارك أسماؤه ، هو وحده القادر على الضروالنفع ، فما خشيت غيره ، ولا رجوت سواه •• »

وهو فى كثير من الأحيان يرى نفسه دون ما يرجو من الايمان بالله :

« هل صفت نفسى كل الصفاء • مازلت أشكو بعدى عن ربى • وكنت قبل ذلك فى فراديس من الايمان الجميل • كنت كلما رأيت ظلم الناس ، أقول : لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى • وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض • يبقى لى الله • تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعد له ، وتكاد تصافحه يمناى • ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة • ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب ؟ أنا أشتهى أن ينعم الله على ، بايمان أقوى وأمتع وأشهى ••

ليس فى الوجـــود كله ما يغنينى عنك ياسر الاسرار ، وياروح الأرواح »

هل أحب زكى مبارك ؟ هل حسن رأيه فى المرأة أم ساء ؟

ما تجاربه فى الحب •• ؟ ان مجموع ما كتبه فى هذا الباب لا يعطى صورة واضحة تكشف عن حقيقة موقفه من الحب والمرأة •

يقول « كيف يصف الحب من لا يحب • أشـــهد صادقا اننى لم أعرف • أنا لا أحب ، لا أحب أحدا • وانى أحب نفسى • أنا لم أحب • ولم أعرف الحب • لأن قلبى أعظم من أن يحب • ولم يخلق الى اليوم وجه يكافىء ما فى قلبى من صراحة الصدق وصـــفاء الحنان • ولو أنى أنفقت فى سبيل المجد بعض ما أنفقت فى سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء • .

يسألوننى عن تجاربى فى الحب • انه تجـــارة خاسرة ، وأرض موات •

لقد جربت الحب وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين • فمن اغتر بالحب بعد ما حذرته وأنذرته فهو مضيع مغبون »

ويقول : الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس • الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلهـــا الروح عن الروح • وتسرى نشوتها فى الأفئدة سريان الصبا فى الغصـــن • الحب قبس من الصهباء فى كأس من الماس • الحب لمحة من لمحات السحر الذى يفيض به الوجود فى ليلة قمراء • الحب نغمة حلوة عذبةتناغى السرائر وتناجى القلوب • الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم • الحب عاطفة ماحقـــــه ، ما يدرى الرجل أهى نعمة أم نقمة • ولا يعلم أهى هدى أم ضلال • انما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائموتدك الجبال ، الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبينوانسجام نفسين • الحب هو أن تذوب القسوة فى كوثر الحنان • وان تأنس الاسود الى الظباء • الحب هو أن تصير قلبا شـــــفافا تجرحه النظرة وتفتنه الخطرة ويأسره الدلال • الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب • الحب هـــو أن تخاطر بالملك فى سبيل من تحب »

ولا شك أن هذه الصورة الرائعة لايستطيع أن يرسمها الا رجل له فى الحب تجارب وقصص ومغامرات بعيدة المدى •

ولعل « زكى مبارك » الذى أحب فى أول شبابه تلك الفتاةالفلاحه (فتحية) • فلما ماتت ظلت تلاحقه بطيفها حتى بعد ان ذهب الىباريس والذى بدا حياته يقول شعر الحب ويكتب عن شيخ المحبين عمر بن أبى ربيعة ، يستطيع زكى مبارك نفسه أن يحدثنا عن فجر حياته :

« لقد ابتدأت حياتى الوجدانية بأخطر بداية • ابتدأتهـــا باللعب بالجمر • وما أخطر الجمر فى أيدى اللاعبين • فقد نظمت فى حداثتى هذين البيتين :

أشجاك ما خلف الستار وانمـا ... خلف الســتائر لؤلؤ مكنون

والنـاس فى غفـــلاتهم لم يعلموا ... انى بكل حسـانهم مفتـــون

وكان ذلك كله مزاحافىمزاح ، ثمانقلباللهو الىجدصراح •فأنا اليومأتمثل الحسن فى كل مكان • فما مشيت فى الطريق الا افترضت ان ثراه قد

نعطر فى صباحه أو مسائه ببعض الاقدام اللطاف • وما رأيت نافـــذة ترفرف عليها ستارة ، الا توهمت أن هنـــاك مليحة تداعب جمالها فى المرآة • وما سكن الليل الا توهمت ســـكونه نجوى حبيبين • ولا لاح نجم أو طلع البـدر الا تذكرت أن هناك قلوبا تخفـــق طربا أو حزنا لمصابيح السماء •• ولا أشرق البدر الا طربت لمن شبهوا به أســــيلات الخدود ، ولا اهتز الغصن الا انتشيت لما يذكر به من رشيقات القدود • ولا ترنم مزهو ولا عود ، الا تشوقت روحى الى ما توسوس به الاوتار من ذكريات الهوى والجمال •

فأنا أعيش فى دنيا من المعانى بعضها بهيج • وبعضهـــا حزين ، والحزن والابتهاج يتراوحان فى قلبى صباح مساء • فما أدرى أشـقى أنا أم سعيد •

ولى فى مشارق الأرض ومغاربها قلوب وأرواح ، أخشى عليهـا غدر الزمان ، وذلك أخطر ما أفكر فيه فى ليالى الأعياد •

ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو واعلام وجدى باقيات كما هيـــا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلابد أن يلقى بشـــيرا وناعيــا

ويرسم زكى مبارك صورا متعددة لأشواقه وعواطفه • ولكن حبـه لمرجريت يفوق كل ما رسم من صور :

« كنت أقول ان مرجريت أوث روحى وقلبى خمسة عشر شـهرا وأمكنتنى أن أصبر أبا كريما لطفل جميل • وكنت أقول ان لمرجريت فضلا عظيما فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية • المرونة التى مكنتنى من أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ســـاعات • وذلك مغنم ليس بالقليل •

كنت أقول ان مرجريت هى التى عرفتنى بدقائق الحياة فى باريس كنت أقول انى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين الا بفضل مرجريت

وكانت مرجريت تكتب الى كل أسبوع خطابين • وكانت تخاطبنى

بالكاف . وكنت أبخل عليهـــا بالمخاطبة بالكاف ، لأني كنت أخشى أن يكون في المخاطبة بالكاف ما يشهد بأني كنت مع تلك المرأة على صلات غزامية . وكانت تقول ان بخلك على بالمخاطبـــة بالكاف يوحي الى بأن أخفي رسائلك عن موريس . وهي كل ما في حياة هذا الطفل المسكين من عزاء . حرسك الله يا موريس وبارك في حياتك الغالية .

وكانت مرجريت تتحدث في رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكـر الا في رسائل العشاق . وكنت أتغافل عن تلك الاشياء حين أكتب الجواب

وكان هذا يؤذيها أبلغ ايذاء . فكانت تتهمني بالقسوة والعنف . والله وحده يعلم كيف كنت أسيء الأدب في مراسلة مرجريت . فأنا أعيش في القاهرة . وهي تعيش في باريس .

هل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالي يحيا في القاهرة بلا ناصر ولا معين ؟ هل تعلم مرجريت أني لا أصلح أبدا لما صـــلح له فكتور كوزان الذي كان أعظم أســـتاذ للفلسفة في باريس . ولم تكن له زوجة . وانما كانت له خليلة تحرســـه وترعاه . ان مرجريت لا تفهم اني مصري ، يعيش في مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس . مرجريت اذكريني بالشعر يوم أموت .. »

وفي الوقت الذي يروي هذه القصة ، يروي قصـــة أخرى عن حب آخر في باريس . « أتحدث عن روح لطيفة عرفتها في باريس . روح جميلة لها في حياتي تاريخ وتواريخ . كان اسمها مادلين . فسميتهـــا ليلى . ودعتني في محطة ليون ، وأرسلت لي برقية على الباخرة شامبليون ثم أخذت مادلين توالينى بالرسائل اللطاف ، وبلغ بهـــا الوجد مبلغـــا قضى بأن تنظم الأشعار في حبي ، حتى شاء هواها أن تزور القاهـــرة لتراني . فلما لقيتني قالت : متى تتزوج ؟

فقلت لها انني متزوج ولي أبناء .. »

وغير هذا قصص أخرى عن ليلى المريضة في العراق ، والزمالك ومصر الجديدة ... الخ .

بدأت هذه القصص بالآنسة : مى زيادة •• التى كانت زميلته يوم كان طالبا فى الجامعة « وكانت آية فى الجمال • وكنت أمضى معها الى بيتها ومعى مذكرات الفلسفة • فأملى ، وتكتب • وأنا أشرب جمالها بعيونى » •

ولكن زكى مبارك الذى يحب ، ويصور حبه فى مثل هذه المعانى له رأى فى المرأة عجيب • فيه مرارة وحقد وكراهية •• ونقمة !

« المرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخيف • لأنها تجهل ما فطرت عليه من الضعف • وهى لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال • والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة ، بفضل ما فطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء • وتظن أنه لا يراعيها الا بفضل ما تملك من السحر والجاذبية وفى المرأة سحر وجاذبية وان كانت شوهاء لأنها باب الى الضلال •

المرأة ، المرأة ••• غضبة الله على جميع بنات حواء ••

المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيب • والمرأة الدميمة قد تسعد زوجها بلا ترفق •

والمرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان • وما أطاع رجل امرأته الا هان وذل • وأعظم ميزة لدين الاسلام هى دعوته الى الحذر من النساء •

أعاذنا الله من كيد النساء فان كيدهن أعظم من كيد الشياطين •

ولكن ما الذى أشكوه من المرأة ، حتى أصب على رأسها هذا السوط •

ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوها فى الغيرة •

لم تكتف المرأة بالسيطرة على الرجال فى البيوت ، وانما تريد السيطرة على الحياة الاجتماعية ، وتطالب بحرية الانتخابات والمساواة فى الميراث • وما وقع ذلك الا لأن الرجال حرموا فضائلهم الاساسية •

فهم اليوم يتظرفون ليقال انهم متمدنون • غضبه الله والملائكة على رجال هذا الزمان •

وبلائى فى دنياى أعظم بلاء : لانى متزوج وعاشـــق • انا ارى المرأة فى البيت وفى خارج البيت • أراهاحيثما توجهت • لأن الله كتب أن أكون من الأشقياء • واذا دق التليفون فى المنزل تظن زوجتى أن جميع المحادثات التليفونية آتية من سعير الوجد فى الزمالك وحلوان • واذا ذهبت الى باريس فهى تظن انى ماض الى محـــادثة مرجريت • واذا مضيت الى بغداد فهى تظن انى ماض الى مغازلة ظمياء • واذاتقلبت من مدينة الى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على ميعاد معحسان الاسكندرية ، أو ملاح أسيوط • فمن يفهم هذه المرأة • اننى لا أريد غير فهم سرائر النساء لأقدم الى الأدب ألوانا منالدراسات النفسية » (١)

•• وهو يصور المرأة فى أكثرمن موضع تصوير الخبير وان بدا فى آرائه بعض التحامل الذى ربما كان مصدره فشله فى الحب •

• ان المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شىء وهى تجد لذة فى الجحود وتستروح به كما تســـتروح الافاعى بسواد الليل •

•ان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش •

• المرأة التى تجود عليك بابتســـامة يكون من حقها عليك أن تحفظ معها الادب فى السر والعلانية • والمرأة تعطى كثيرا جدا حين تجود بابتسامة • والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من المعشـــوق لأن العاشق يأخذ • والمعشوق يمنح • والفرق بين الحالين بعيد •

وقد أعلن زكى مبارك رأيه خفية فى المرأة فاعترف بأنه يحقـــد عليها كما يحقد على الأدب : « أحقد على المرأة لأنها لئيمة • وأى لؤم أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تســـتطيع دائما أن تجد انسانا سواك ، وهى مع هذا اللؤم شر لابد منه • لأن الحياة قضت

---

(١) ص ١٩٥ جزء ٣ ليلى المريضة فى العراق .

بذلك • وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كارها الى سلطان تلك الحية الرقطاء » •

« •• فكرت فى شر المرأة ، ولكنى لم أستطيع الخلاص ، لأن المرأة شبهت صدقا بالشمس ، فهى تلقانا فى كل مكان ، وليس عن سحرها محيد •• »

هكذا وصف عبد الله حبيب (زكى مبارك) « الجسم المكتنز • الوجه الأحمر الطلق • الانف الكبير المقوس • الالواح العريضة المنبسطة • المنخر المنتفخ • الصوت الناشز المدوى •

وهو بعد هذا فى رأى عبد الله حبيب ـ « خلق بغير فرامل ، أو هو كالسيارة الضخمة التى لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة سيرها • فهو ان سار لابد من حادثة تصادم • كان طالبا يصطدم فى دروسه بشيوخه ورفاقه • وكان مدرسا يناوش وصفاءه (زملاءه)فى آرائهم ، ويصاولهم فى بحوثهم • وألف كتبا ، فكانت سببا فى أن يصطدم كل من يتناولها ، بنقد أو تجريح •

•• فاذا أضيف الى شخصية زكى مبارك الموصومة بالاندفاع ،روح الفكاهة والسخرية الحلوة ، استطعنا أن نفهم قوله : « لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس • »

• « وللخمر فى تصوير ملامح شخصية زكى مبارك حديث » فقد كان لزكى مبارك رأى فيها •• ثم تحول هذا الرأى الى شىء خطير ، كان بعيد الأثر فى وضع نهاية حياته • فيقول عام ١٩٣٠ •

« أنا لا أشرب الراح الامشعشعة مقتولة ، لاترخي المفصل ، ولاتزيغ البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار • وليس لى منها ، يعلم الله صبوح أو غبوق ، الا حين أبكى عهدا سلف ، أو اطرب الى عهد مأمول •

وقد صحا القلب والحمد لله فلم يبق داعية الى معاشرة الشراب وتذكر الأحباب • وأغرب ما يمر بخاطرى فى هذه اللحظة حديث الشيخ

يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه ، بالازهر ، انه لايشرب الا الماء ويعلق على ذلك بقوله : « والماء مع هذا شراب الحمير • »

وكنت اذ ذاك اعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أنه لم يرزق من الشراب الا ما يشارك فيه الحمير • ثم عرفت بعد ذلك ان الكلام قديم • وأنه يرجع الى الأخطل الشاعر النصرانى المعروف ••

ولكن لم تمض على هذا الكلام غير سنوات حتى بدأ زكى مبارك يعاقر الخمر • فيكون له منها صبوح وغبوق •

حتى جاء الوقت الذى أسرف فيها اسرافا • فأصبحت ترخى المفصل وتزيغ البصر •• وتحول اتجاهه كله وانتاجه كله الى شىء غير قليل من الضعف والتفسخ •

ولقد كتب المرحوم محمد حمدى فى ١٩٥٢/١/٢٩ ، وهو تاريخ يسبق وفاة زكى مبارك بأسبوعين ، فى مجلة « النداء » تحت عنوان « ثمن العلم » حديثا عجيبا جرى بينه وبين زكى مبارك ، يصور أزمته تصويرا مريرا كان علامة النهاية فى حياة خصبة ، ويعلن انطفاء عقل عبقرى قوى •

وهذا هو نص الحديث :

« قال لى وهو يدفع بالكأس فى فمه دفعا • وكان الوقت ظهرا واليوم من رمضان • والأديب الكبير جالس على قارعة الطريق ، فى أحد بارات ميدان ابراهيم باشا • والناس علينا متجمعون ، يشهدون المنظر العجيب •

ـ لماذا تقاوم رغبة صديق وزميل لكفى الصحافةوالادب • ثق يا أخا الصحافة انى لست مجنونا ولا ملتاث العقل • ولم أفقد ذرة واحدة من ايمانى بالله • وكل ما هنالك اننى ضحية لحقيقة علمية كان من سوء حظى أنها بقيت مجهولة حتى كشفتها أنا •

وصب الكأس التى كانت فى يده ، فى فمه ، دفعة واحدة • وشيع السائل الأبيض بجذاذات من الطماطم المملحة ، ثم رمقنى بابتسامة خلتها

تدل على أن الرجل لم يصدق في حرف واحد مما قاله لى ، ثم خلع نظارته البيضاء الساذجة واستطرد يقول :

ـ هل تعرف يا صديقي أن للمخ وزنا وثقلا وكثافة . هل تعرف يا صديقي أن نوع التفكير الذى يباشره الفكر له علاقة بطول عمر المخ وبقائه فى حالة جيدة . أو نقصان أهليته أو فساده ؟ وهل تعلم ياصديقي أن مايسمونه القدرة الابتدائية هي أشد أنواع التفكير استهلاكا للمخ . اذا كنت لاتعلم هذا فعه واستوعبه . وبعد كأس أخرى ، الله وحده يعلم أين تقع فى صف الكئوس التى كان يتجرعها يوميا ، وبعد تشييعها بحبات من الفول النابت ، الذى يعشقه شاربو (الزبيب) جذبنى بيده جذبة قوية . وهو يكاد يتهاوى فى مجلسه . ثم قال :

ـ اننى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلته . لقداستهلكت انشاءاتى الكمية الوزنية للعقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة ، فى مختلف الفنون الأدبية . أجل ، استهلكت دراساتى ومؤلفاتى ماكان لدى من ذلك قبل الأوان . وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنى أريد مواصلة البحث والدرس ، ولكنى لا أجد عندى قدرة على ذلك . وماذا يكون الكاتب والمفكر اذا كف عن الانتاج ؟ هل يكون شيئا أكثر من (ذبالة انسان) ، (عقب أديب) ، (كعب مفكر) . وهل أرضى تخيل هذه المكانة ؟ .. اذن ليكن لى فى الخمر مخبأ وملاذ أقضى فيه مابقى من ثمالة العمر دافعا ثمن العلم الذى حصلته » .

تحدث زكى مبارك عن مواقف كثيرة ترسم صورة لشخصيته المرحة الجذابة ، لعل أقوى هذه الصور أثرا فى النفس ، قصة نزوله الى خليج استانلى بثوب البحر ، حيثم لقى فقيرا هنديا يقرأ الكف . فنافسه فى صناعته . واستطاع ان يجمع الناس حوله ، ويجعلهم ينفضون عن الفقير الهندى . فقد أعلن لهم أنه حصل على شهادة فى علم الكف من باريس .

يقول : « ذهبت فى ضحى يوم صائف الى خليج استانلى ، ونزلت بثوب البحر الى ملعب الغزلان . فرأيت فقيرا هنديا يقرأ الكف لفتاة

تاهد ، تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت • فجلست بجانبها جلسة الباحث المتعقب ، لاجلسة اللاهى اللاعب • وما هى الا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول :

على رسلك أيها الساحر • فأنت فيما يظهرقليل العلم بأسرار الكف • وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى • أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش المجهول ؟ ••

فانزعج الرجل انزعاجا شديدا • وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان • ونظرت الفتاة فى استغراب ، وقالت :

ــ وحضرتك تعرف علم الكف ؟ ••

قلت وأقسم ما قلت غير الصدق : ــ نعم • أعرف علم الكف • وهو خير ما تعلمت فى باريس •

فانعطفت الفتاة ، فى تخاذل ، وقالت : تسمح تقرأ لى كفى •

فأخذت يدها ، ونظرت الى صدرها مرة ، والى عينيها مرتين • ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل ، وما فيه من ابتسام وأنين •

وما هى الا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء ••

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع • وأقبل يسر فى أذنى : تتفضل بكلمة ؟ •• فقلت نعم • وانتحيت بعيدا عن أسماع الظباء •

فقال أعرف أنه لايفل الحديد الا الحديد • أنت تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل • ويغلب على ظنى أنك لاتقرأ الكف ، وانما تقرأ العيون •

ثم قال : أرجو أن تبيعنى هذا الميدان • وقدم عشرة دنانير •

ــ أنا أترك لك الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات ••

ــ أنا لم أغنم فى هذا الموسم غير اربعين دينارا •

ــ اذن تدفع عشرين دينارا ، وتحتفظ لنفسك بعشرين ••

هذه هي القصة التي رواها زكي مبارك ، في عديد من كتبه ،ومقالاته على نحو آخر ، وهي ترسم جانبا من ملامح شخصيته المرحة الساخرة .

ومع ذلك فقد عاش زكي مبارك فلاحا آزهريا حتى بعد أن عاد من باريس . وهو يفخر بأن « أحمد زكي باشا » قال عنه : « «ان زكي مبارك» عاش في باريس ماعاش . وظل مع ذلك فلاحا من سنتريس .. »

وقد تقلب زكي مبرك بين الازياء . فكان معمما . ثم مطربشا . ثم مقبعا . ثم لبس السدارة العراقية .. وهو يرى أن من الخير أن يلبس المرء زى اهل البلد الذى يعيش فيه ..

يقول : « انني تقلبت في ملابسي من حال الى حال . فكنت أولاالبس الطاقية والجلابية . وهو لباس أهلي في سنتريس .. ثم كنت معمما يوم كنت طالبا في الأزهر الشريف . ولم يظهر أني كنت غريبا بين الأزهريين فقد كانت عمامتي أظرف عمامة . وكان هندامي أجمل هنـــدام . وكنت وحدى في الأزهر أمثل مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لايذكر المعتزلة الا قال : قبحهم الله ..

وكان في النية أن أظل أزهريا . فقد انتقلت من مذهب الشافعي الى مذهب أبي حنيفة ، لأكون مفتي الديار المصرية .

ثم نقلتني الأقدار الى الجامعة لأصبح من تلاميذ ، منصور فهمي ، وطه حسين . ومع ذلك فقد ظللت معمما الى أن ظفرت بأجازة الليسانس : في العلوم الفلسفية والادبية سنة ١٩٢١ . ثم أخذت أستعد لامتحـــان الدكتوراه ، فبدا لى أن أصبح (أفندى) فقدمت ماعندى من الجبب الىأحد الطرزية (الترزية) في شارع محمد على ، فصنع منها بذلتين سخيفتين ، شهدتا بأني كنت مهندما في الجبة والقفطان ، ثم أصبحت أضـــحوكة في السترة والبنطلون .

وفي يوم امتحان الدكتوراه اوصاني الدكتور منصور فهميأن أحضر في البذلة السوداء . فلم أفهم المراد . ولولا فصاحتي وبلاغتي في ذلك اليوم لعدني الخاضرون من السفهاء ..

وجاء في رسالتي أني قد أخلع العمامة وألبس الطربوش • ولكني لا ألبس القبعة • ولكني لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين ، حين هاجرت لطلب العلم ، في مارس سنة ١٩٢٧ • ومن الغريب اني لم أصنع كما صنع زملائي • وعهدي بهم يذهبون الى البواخر بالطرابيش ، وانما لبست القبعة من منزلي في مصر الجديدة ، فلم يعرفني المودعون ، وفيهم الشيخ ابراهيم القاياتي ، رحمه الله •

وفي العراق لبست السدارة • وعندي أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس الاندماج المطلق في البلد الذي تعيش فيه • والسدارة العراقية لباس جميل •• »

ولقد رسم زكي مبارك صورا كثيرة لحياته • فلم يحوجنا الى البحث عن هذه التفاصيل الدقيقة التي جاء منها قوله انه كان يضع كل صباح في حافظة كتبه ، وهو في طريقه الى الأزهر الشريف رغيفا جافا يابسا متجهم الملامح ، كان لمبارك زاد يومه • وكان يغمس هذا الرغيف في مرق الفول النابت • وانه في يوم أراد أن يهرس هذا الرغيف ، فلم يلبث أن تفجر الدم القاني من يده •

ويقول عن نفسه « الذين قرءوا « مدامع العشاق » يحسبونني فتى لايتجاوز الثلاثين • والذين قرءوا « الأخلاق عند الغزالي » يحسبونني شيخا يصافح الثمانين » •

وانه ورث خضرة العينين عن أمه ، سقى قبرها الغيث •

وان ذاكرته فيها شذوذ فظيع • وضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام • وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني : فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأني قد شهدتها ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه » •

وهو في اندفاعه في الحياة يرى نفسه كالثور ، يسعى ليدرج حزمة

الحشيش التي يراها على شبرواحد منه ، فيهلكه السعى ، ولاينالها أبدا ، لأنها معلقة بقرنيه ، تسعى أمامه .

ويقول : « ان اعين الناس لاترى فى كل الأحيان . فهم يعيشون فى أعماق ماضيهم ، كصنوف السمك العمياء في أعماق المحيطات !! .. »

غربة القلب

أبرز معالم حياة زكي مبارك هو احساسه العميق الدائم بغربة القلب. انه قد امن بالصراحة والوضوح والجرأة على قول كلمة الحق ، ولذلك عجز عن المجاملة والمداورة . ولو استطاعها لكان أحسن حظا فى حياته. وبالرغم من أنه اختلط بأجواء مختلفة وأوساط متعددة ، وذهب الى أوروبا والعراق ، وطاف بالبلاد العربية ، والتقى بعشرات المثقفين والأعلام . وقرأ مئات الكتب ، وفيها فنون القول عن اللباقة والصراحة والمداراة والتحرز والتقية فانه عجز عن أن يعمق طبيعته الريفية الفلاحة التى ظلت واضحة في حياته وأدبه معا ، طوال حياته .

ولعله أحس كم جرت عليه طبيعته هذه من نتائج ، وأوقعته فى متاعب وأخرت تقدمه فى الحياة ، وحالت بينه وبين أن يصل الى المكان الذى وصل اليه أترابه . وقد كان دائم الاحساس بأنه غريب منبوذ : يقول :

.. « أين وطنك يا قلبى . أحب أن أعرف أين وطنك ، لأمضى معك اليه ؟ أهو مصر . كذبت ثم كذبت . فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ولكنك فى مصر منبوذ مجهول .

قلبى ، قلبى ، رحمة الله عليك فقد سعد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح وقد وصل ناس لأنهم كذبوا وتخلفت ، لأنك صدقت ، ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت وانتفع ناس لأنهم غدروا وخسرت أنت لأنك وفيت . قلبى . قلبى . أحسن الله اليك .

ان هذه العبارات عميقة الاحساس بالألم • فقد كان زكى مبارك يشعر صادقا بأنه تخلف لانه تمسك بالصدق والوفاء والجد • وان غيره تقدم لأنه تمسك بالكذب والخيانة والهزل والغدر •

وهو يرى أن الرجل الذى يجاهد فى الحياة عن طريق الشرف يلاقى من عنف معاصريه ألوف الصعاب ، وتكاد استقامة المنطق تصبح تهمة لكل من يدوس على ما تواضع عليه أهل العصر من زيغ وضلال •

والأصدقاء : ما رأى زكى مبارك فيهم ؟ • •

قال : « الأصدقاء يملكون من ايذائك مالا يملك الأعداء • فالعدو متهم • وتجريحه اياك يتلقاه الناس ساخرين • والصديق مؤتمن • وتجريحه اياك يتلقاه الناس بالقبول » •

وهو يرى أن كلمة الخير مزدراة وهى موضع كراهية الناس • يقول : « ما ذكرت انسانا بالخير فى حديث أو مقال أو كتاب ، الا كان ذلك كافيا لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه • ولا ذكرت انسانا بالشر فى حديث أو مقال أو كتاب الا رأيت من يثنى على أدبى ويصفنى بالجرأة والشجاعة والعبقرية »

ولكن هذا كله لايجعله ينحرف عن استقامة فكره وضميره ••

وهو القائل : « ان الذخيرة الباقية فى حياتى هى أننى أعيش بروحى وقلمى • انه روح لطيف • وقلم نظيف • فما استطاعت حكومة أن تستأجر قلمى •• » ويسأل نفسه بعد ذلك • فيقول : « هل أفقرنى الشرف ؟! »

وبالرغم مما لاقاه من خصومه من عنف وعنت ، فهو يؤمن بأن الله عز وجل أقوى من كل قوى •

« قد علمتنى التجارب وستعلمكم ان الانسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الانسان • فهناك قوة بانية تبيح الجهاد فى سبيل الرزق الحلال وهذه القوة لا تنتظر آراءكم فى التجريح والاغتياب • فانطحوا الصخر ان شئتم فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل ولا قال •• وانما الأمر كله لله »

وله فى هذا المجال كلمات عميقة المغزى • فهو يؤمن بصداقةالأرواح ويراها فى كل شىء نفيس • ويرى مودة العقول من ذخائر الرجال •

ويقول : « مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة »

ولكنه بالرغم من ايمانه بالمثل العليا ، يحس باليأس بين آن وآن ، فينعى على زمانه انه لم يصل الى مكانه الحق : يقول :

« ما الذى غنمت وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، بعزيمة أقسى من الصخر ، وأصلب من الحديد ؟ ••

ما الذى غنمت ، وقد كنت كاتبا وشاعرا ، قبل أن يولد فريق من الذين تؤذينى عندهم نميمة قلمى •

لقد غنيت أهل زمانى أناشيد أيقظت بها صدورهم من أحلام غافيات وأحييت بها ماكان فى قلوبهم من موات • فأين من يسعدنى بكلمة صدق أدفع بها عدوان زمانى ، لأمضى على سجيتى فى السجع والغناء •• وهل عانى أيوب فى زمانه مثل ما عانيت ؟ ••

وهذه الصرخة تصور مدى عمقاحساسه بغربة القلب ، هذه الغربة التى فرضتها عليه طبيعته ، بكل ما فيها من عنف وصراحة وجرأة •

••• وانه أحيانا ليحقد على الأدب ، ويحقد على المرأة • ولكن لماذا يحقد على الأدب ؟ ••

قال : » أحقد على الأدب لأنه لايستقيم له حال ، الا اذا حمل صاحبه على المخاطرة فى ظلماء الوجود • ولن تجد فى العالم كله أديبا ذا مكانه الا كانت له فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت • والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهلهلايؤمنونبوجود الأديب الا اذا رأواأحشاءه تحترق بين السطور • وقد نرى أحيانا ناسا يهاجمون الأديب ويتهمونه بالخروج على التقاليد • وهؤلاء الناس لايفعلون ذلك حرصا على الأخلاق، وانما يقعون فى أعراض الأدباء ، حسدا منهم على مارزق النابغون من

مواجهة أسرار الحياة .. ولكن ما قيمة ذلك . وما الذى فيه من العزاء ؟ ان الأديب سيظل ـ ولو انتصر . كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق .

وقدفكرت كثيرا فى شر الأدب على أهله . ولكنى لم أستطع الخلاص، لأنه كتب على ، أن أحيا من مهنة الصحافة ، ومهنة التدريس ، فهل أفلح اذا اقتصرت على أن احادث قرائى وتلاميذى فى فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات .. ؟! »

ومع هذا فقد ظل زكى مبارك فى كل مناسبة يسجل على نفسه حقيقته التى كانت موضع الخلاف .

« لم أخدعك ـ أيها القارىء ـ فيما تعرضت لشرحه من الحقائق الأدبية والفلسفية ، فلم أتهيب مساقط غضبك ، ولم أتلمس مواقع هواك . وانما صدقت كل الصدق . فرآنى فريق من الملحدين . ورآنى فريق من المؤمنين . ونسبنى قوم الى المجان . وعدنى قوم من الصوفية. وما كنت من أولئك ولا هؤلاء . وانما أنا سائر يبحث عن علم الهداية فى بيداء الوجود . وما بينى وبين الله لايعرفه عدو ولا صديق . وانما علمه عند علام الغيوب ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

الشاعر

بدأ « زكى مبارك » حياته الأدبية شاعرا وجدانيا ، وهذا مما يتفق مع طبيعته العاطفية التى تدافعها الأشواق والأهواء . وقد عرف زكى مبارك بأنه عاشق ومحب وعابد للجمال ، بل انه ليمكن القول بأن كل ما كتبه زكى مبارك هو الشعر من غير القوافى ، لغلبة النزعة العاطفية على كل آثاره .

وقد بدأ حياته الفكرية بدراسة شعرية لعمر بن أبى ربيعة وكان ينشر شعره فى « الجريدة » « والسفور » . وفى مطلع حياته كان ينشر القصيدة فى عشرات الأبيات . ثم لم يلبث أن غير اتجاهه ، فكان ينشر أحيانا قصيدة من بيت واحد . ثم عنى بالموازنة بين الشعراء . ولكنه لم يلبث أن

أصدر ديوانه الأول عام ١٩٣٤ وانتظر ثلاثة عشر عاما حتى أصدر ديوانه الكبير « الحان الخلود » متضمنا كل شعره بما فيه ديوانه الأول •

ولم يكن زكى مبارك ينوى أن يصدر ديوانا آخر على هذه الصورة، بعد أن شغلته الابحاث الأدبية والفلسفية عن الغناء ، والشعر غناء •

غير أن هجرته الى العراق عام ١٩٣٧ خلقت روحا جديدة فى حياته الشعرية • فقد ساجل شعراء بغداد مساجلة قضت بأن ينظم أعظم قصيدة ــ فى نظره ــ بعد قصائد ستريس وأسيوط وباريس • وهى قصيدة «من جحيم الظلم فى القاهرة الى سعير الوجد فى بغداد ، تلك التى تبلغ ١١١ بيتـــا •

ثم يجد زكى مبارك أن اشتراكه فى مجلة « الرسالة » بضع سنين قد حول طاقته الشعرية الى صور نثرية •

وشعر (زكى مبارك) فى الأغلب شعر وجدانى • ويمكن القول بأن شعر زكى مبارك يتسم بالحزن • وعلى ذلك فان «زكى مبارك» • لم يعرف فرحة العيد أبدا • فقد كانت ليلة العيد فى بيتهم مشئومة ، اذ ما كان يمر عيد بدون حزن على ميت ، حتى ان كعك العيد لم يخبز فى بيتهم الا مرة أو مرتين • ويقول زكى مبارك ان أعصابه قد تأثرت تأثرا شـديدا بهذه المناظر التى واجهته وهو طفل ومضت تلاحقه من عام الى عام •

ويقول زكى مبارك « ان لفحة الحزن التى تتوهج فى أشعارى : انما كانت لأنه ليس لى ارادة فى صياغة الشعر الحزين • فما أعرف أن الله ابتلى أحدا من خلقه بالحزن كما ابتلانى » •

وقد صور زكى مبارك أبرز الحقائق فى شعره : فقال :

• ان أشعارى تكاد تكون مقصورة على فن واحد ، هو فن « الغزل والتشبيب » ولعل هذا يرجع الى طبيعة ذاتية ، قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال • ليس فى أشعارى مديح • فما أعرف رجلا أعظم منى لأنظم فيه قصائد المديح •

• الاهتمام بتشريح المعانى : فقد أنظم فى المعنى الواحد عشرات من الأبيات • وهذا يرجع الى فطرتى الفلسفية • التفكير عندى هو جذع النخلة • والوصف هو جريد النخل • والمعنى هو عناقيد الأعنـــــاب • والوصف هو أوراق الأعناب •

• النزعة الصوفية : هو التشبب بالجمال الربانى •

أحبك رب الكون هل أنت شافعي   الى سرحة فى شــط دجلة زهراء
رأيت فنائى فيك حين رأيتهـــا   تحاول اضلالى وتنشـــد افنائى
ومن أنت ياربى ؟ أجبنى، فاننى   رأيتك بين الحسن والزهر والمـاء

• تدوين عواطف عزيزة على • وهى عواطف سجلت فيها وفائى لأصدقائى •

• دقة الأسلوب فهو يقوم على موازين •

ويؤكد زكى مبارك أنه يحب من الشعراء القدامى (ابو تمام) ويذكره بالتطويل فى مقدمة ديوانه (الحان الخلود) • وقد قلد « لامرتين » فى وضع مقدمة لكل قصيدة • وقد نشر شعره فى « الهلال » و « الصباح » و « الشعلة » و « الحوادث » و «الأهرام» و «البلاغ» و «الرسالة» •

وعاش شعر زكى مبارك مع الحياة • ففى كل مكان ، يهز النفس ، كان له فيه نظم • فعندما ذهب الى رأس البر ، وزار جامع « الفتح » حيث مكان شهداء الاسلام مع الصليبيين قال شعرا • وفى ذكرى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ فى الاسكندرية له قصيدة «دار الوجد والمجد» عن الاسكندرية بعد ضربها بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية • كما أوحى اليه الشيب شعرا فى أعوامه الأخيرة • « وشعرى فى الشيب فيه ومضات لاتوجد فى أشعار القدماء • لأن أكثرهم كان يصف قسوة الشيب قبل أن يشيب » •

وقد وضع قصيدة فى توديع مكة المكرمة • ونسبها الى الرســـول الصادق الامين • وقد ذكر زكى مبارك فى بعض كتاباته انه نظم ثلاثين ألفا من الأبيات فى التغنى بالجمال •

ويرى زكي مبارك أنه يتجه في حياته الشعرية الى ما يتجه اليه في حياته النثرية ، « وهوتشريح المعاني والعواطف تشريحا يصل بها الى اعظم غاية من الوضوح والجلاء » .

ويرى المازني أن « ميزة (١) مبارك ، التي تبـدو لي وهي حسن السبك ، وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طي الديوان . ولم يبق في نفسي منها أثر ولم يستقر في ذاكرتي منها طيف . ولكن الدكتـور « مبارك » أديب كبير له ابحاثه وله آثاره المشهورة . وله في ذلك فضـل غير منكور ولا يزيد أن يكون شاعرا أو لايكون » .

وقد رد عليه زكي مبارك بقوله « ان الشعر الذي يسـتخف به الأستاذ المازني لدلالته على معان صغيرة هي العواطف ، هذا الشعر هـو الدليل على اننا عشنا في هذه الدنيا بقلوب الأحياء . فكانت لنا لحظات عقل وأيام جنون والعيش مزاج من الوقار والطيش . ومجموعة من التأملات والمهاترات .

فان كان صديقي أصبح عقلا كله ، فيا ويحه في الاقامة بدار ، الحظ فيها للمجانين » .

ولما قال الدكتور محمد صبري السربوني « ان ديباجة زكي مبارك الشعرية ديباجة بحترية » قال مبارك : « انها كلمة يريد بها الثناء . ولكنني عند نفسي أشعر من البحتري ، وأشعر من جميع الشعراء . . »

ويقول زكي مبارك : « ان الجو الذي يثير الشاعرية في صدري هو الجو الحاد بالبرد أو القيظ . أما الجو المعتدل فهو موسم خمود . ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبي برسم العنف والجموح . وقد علقت على هذا مرة بأنه يرجع الى اني ولدت في شهر أغسطس ، وهـو موسم طغيان النيل . والواقع أن الهدوء يزعجني ، والضجيج الخـارجي ينبه العواطف . . »

وكما ذكرنا من قبل ، انه سكن في بيت في باريس في مكان هادىء

---

(١) نقد المازني للديوان سنة ١٩٣٣ ـ جريدة البلاغ .

فضاق به وتركه • أما فى بغداد ، فقد سكن بجوار مصنع لطرق الحديد ، وارتاح اليه •

أما بالنسبة للشعر ، فيقول زكى مبارك انه نظم فى عهد الحداثة طوائف من المواويل • ومنازل الوحى فى الشعر عنده هى سنتريس وأسيوط وباريس وبغداد •

وقد أصدر زكى مبارك ديوانه (ألحان الخلود) فى فترة أزمة نفسية • اذ كان قد ترك وزارة المعارف ، ووقع فى كثير من المشكلات مع وزراء المعارف وكبار موظفيها • وأحس بأنه لابد أن يطبع شعره • فراح يجمعه من كل مكان • ويقدم له بمقدمات طويلة • وقد دفع مائة جنيه عربونا لطبعه • ويرى أن عِمله هذا هو عين الصواب • فان له أبناء • ولكن ابناءه من روحه أعز عليه من أبنائه من بدنه : « انها اشعارى ومؤلفاتى » اذن يجب أن أنفق على ابنائى من روحى ما أنفقت على ابنائى من بدنى •»

وكما ذكرنا من قبل أن ديوان «الحان الخلود» يرد له شبابه ، وقد جاوز الخامسة والخمسين (سنة ١٩٤٧) فهو عصارة عواطف واحاسيس، قطفتها وأنا أذرع فضاء الله بين شاطىء المانش وشط العرب •

وما كنت أتوهم أنى سأجتاز تلك الأقطار وأنى سأعبر تلك البحار والأنهار • وانى سأكون أخطر من السندباد • »

وكما أوضحنا من قبل ، نجد أن « زكى مبارك » شاعر بطبيعته • والدقائق البسيطة فى حياته تعطى صورة الشاعر الذى يتأثر بالعصافير الجميلة التى كانت تعشش حول نوافذ منزله • فيقدم لها الطعام ويحرص على أن يستيقظ مبكرا ليسمع صوت المؤذن وشقشقة الطيور : « سأعود الى العصافير التى بنت أعشاشها فى شبابيك البيت • لقد تعودت أن تأكل من يدى فى الصباح ، وأنا أراقب ألاعيب الشمس • أنا أحضر لتلك العصافير فتافيت من بقايا طعامى وأضعها على كتفى فتتجمع على كتفى لتأكل

تلك الفتافيت • وهى تغنى بزقزقة ، هى الغاية من حلاوة الغناء » • وقد استوحى من جمال هذه المناظر ما استوحى •

ولقد تأثر بموت أبنائه الصغار الذين كان يكفنهم بيده ويحملهم الى مثواهم الأخير •

وكما ذكرنا من قبل ، فالجسر القائم على نهر السين من ضاحيـة سان كلو ، له فى قلبه مكان • والقنطرة القائمة على نهر السين فى روان لها ايحاء • والجسر القائم على نهر دجلة وقنطرة سدة الهندية لهـا آثار كبار فى قلبه •

يا جيرة (السين) فى مرابعكم — فتى الى النيل يشكو غربة الدار
حنت عليه لياليـه وأسـلمه — الى الحوادث صحب غير أبرار
أحاله الدهر فى لأواء غربتـه — روحا معنى وجسما نضو أسفار
يسعى الى المجد ترميه مخاطره — بناقع من شظاياها وضرار
عزاؤه أن عقبى كل عـادية — يشقى بها الحر ، اكليل من الغار

***

جنت على الليالى غـير ظالمة — انى لأهل لما ألقـاه من زمنى
فما رأيت من الأخطـار عادية — الا بنيت على أجوازها سكنى
ولا لمحت من الآمـال بارقة — الا تقحمت ما تجتـاز من فتن
أحلت دنيـاى معنى لا قرار له — فى ذمة المجد ماشردت من وسن

***

يا جنة الخـلد كيف يشقى — فى ظلك النـازح الغريب
النـاس من لهوهم نشـاوى — ودمعـه دافق صـبيب
يقتـات أشجانه وحيـدا — فـلا صـديق ولا قريب
أقصى أمانيـه حين يمسى — أن يهجـع الخفق والوجيب

***

مبارك الكاتب

بدأ زكي مبارك حياته الأدبية شاعرا • ولكنه لم يلبث أن ترسل وأصبح من كتاب النثر • وظل يزاول النظم بين حين وحين ، كلما دعت دواعيه ، وفرضت الظروف الالتجاء اليه • وزكي مبارك الكاتب قريب جدا من زكي مبارك الشاعر • فهو الوجداني العاطفي ، حتى في مجال البحث الأدبي والعلمي • وقد أخذ عليه ، وهو يقدم أطروحة الدكتوراه « النثر الفني » أمام السربون غلبة الروح العاطفية • ولكن هذا لايمنع من القول ان « زكي مبارك » الكاتب يكاد يكون نسجا وحده ، بين كتاب عصره ، حيث يمتاز بمعالم أربعة : الوضوح • والصراحة • والجرأة • والعاطفة • وهي صفات لم تجتمع لكاتب سواه في هذا العصر على النحو الذي عرف عنه •

فقد بلغ في الصراحة والجرأة الى حد العنف • وقد كان لهذه الجرأة أثرها البعيد في حياته • اذ خلقت الجفوة بينه وبين كل من تناولهم بالنقد • وكما ذكرنا من قبل ، فقد ردد زكي مبارك العبارة التاريخية التي تقول : « ان قول الحق لم يدع لي الحرية في عالم الكتابة والمجتمع» ومحاربته للنفاق : « سأطل في ثورتي الى أن انتصر في حرب ما أمقت من نفاق التقاليد •• وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التي تعبد في مصر والشرق ستتحطم عما قريب • وسينشأ في مصر والشرق جيل جديد يبني أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات • وستهدم صروح العظمة التي تبنى على أساس التوقر والتحفظ : متى أشهد مصرعك ياعصر النفاق ؟ »

وهو يؤمن بأن للأديب مهمة : وهذه المهمة عنده هي حرب الأوهام والأباطيل والأضاليل • ويرى أن الدعوات الوطنية والاجتماعية لم تنجح الا بفضل تحريض الشعراء والكتاب والخطباء •

يقول : « ان الأديب يقضي عمره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا

والناس ، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، وما شرق مشرق أو غرب مغرب فى دعوة وطنية أو اجتماعية الا على هدى من وحى الأديب . ولا استبسل جبان أو استقتل شجاع الا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب » .

وهو يرى أن أعماله الأدبية تتجه الى الايقاظ من الغفوة والجمود فيقول :

« ما قال أحد بأنه يبغضنى ويحقد على ، الا اطمأننت الى تبليغ رسالتى الأدبية ، فأنا أخلق الغرض خلقا لاذكاء نار الغضب والحقد فى القلوب التى طال عهدها بالغفوة والجمود » .

وهو يرى أننا نقضى أعمارنا فى التصنع والمداراة والرياء . ومن أجل ذلك يقل فى أدبنا ذلك الجوهر النفيس : جوهر الصراحة والصدق . يقول « من أعجب العجب أن أعجز عن قول الصدق ، حتى فى الاحوال التى يكون فيها الصدق خيرا محصنا ، لأن الجمهور الذى تعاصره يتأذى من الصدق الذى يسوءه .

ويؤمن زكى مبارك بالقلم . ويراه فى يد الكاتب مثل المشرط فى يد الطبيب . ويقول « اتخذت من القلم مشرطا أعالج به أمراض القلوب .»

وهو بعد ذلك حريص كل الحرص على تسجيل الرأى كتابة ، فهو يخشى أحاديث المجالس ، خوفا من التزيد والتحريف . ويؤمن بأن على الكاتب الا يقول فى السر مايخشى أن يقوله فى العلانية ، وأن يستطيع أن يكتب كلمة يقولها فى مجلس من مجالسه .

« أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات أو عن طريق المؤلفات ، فلا نعلن رأيا الا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المحرفون، ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم . فلا تقولوا فى السر ما تعجزون عن نشره فى العلانية . وما أوصيكم الا بما أوصى به نفسى . ان لسانى غاية فى التلطف والرفق ، وأن اشتهر قلمى بالشطط والجموح . وماكان

ذلك كذلك الا لأنى أكره المواربة وأبغض الأستخفاء . وما حقد علـى حاقد ، الا بما قلت فيه بكلام منشور فى الجرائد والمجلات ، يملك الرد عليه ، حين يشاء . أما ايذاء الناس فى السر فلا أستطيعه أبدا . لأن الله تباركت أسماؤه عصمنى من رذيلة الاغتياب (١) » .

ولكن لزكى مبارك آراء أخرى أشد عمقا . فهو يرى أن الـكاتب لابد « لكى يكون مؤثرا ، ويكون لأدبه طابع الحياة والخلود » أن يرتطم بالغواية .

يقول « أن الأديب لاينبغ الا اذا ارتطم فى الغواية والبؤس . وتلك سنة الطبيعة منذ خلق الأدب الى اليوم . ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح الا اذا قهرتهم الهموم والأحزان .

أضف الى ذلك انهم لا يؤثرون فى قرائهم الا اذا تأثروا هم بما فى الحياة من لين وبأساء ، ولا يقع شىء من هـــذا ، الا ان عاشروا الناس وشاركوهم فى جدهم وهزلهم وحلمهم وجهلهم وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وماالشك وما اليقين . وهذا كله ، أتحسبه بلاثمن؟ هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية .

ويرى زكى مبارك أن الكاتب الصادق لايصل الى الشهرة والمـكانة الا بعد بذل جهد ضخم ودفع ثمن غال ، يقول : « نحن قوم كوتنا صروف الليالى والأيام ، فان اكتوت يدك كما اكتوت أيدينا فستملك من السيطرة على القراء أكثر مما تملك . وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا ، وهو عندنا غادر جحود » .

ويرد على الذين انتقدوا بعض من كتبوا فى شكوى العيش فقال :

« قد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن فى سعة من العيش ، وسيرتقى الذوق فندرك أن الخواص لا يشكون جوع البطون وانما يشكون جـوع القلوب » .

---

(١) الرسالة ــ ٤ من أغسطس سنة ١٩٤١ .

ويعلن زكى مبارك فى كل مناسبة أنه يحب صحبة الورق والمداد :

« ان هيامى بصحبة الورق والمداد سيضيع على جميع المنافع الدنيوية .

وقد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان ، مع أنه ولد قبل أن يولد ابى » وهو يهاجم الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . يقـــول « كان من حقى أن اصوب سنان القلم الى صدور من يأكلون السحت . صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . وقد تمضى الايام ولا يزود أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش يرى الدكتور مبارك أنا من الخطأ أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل . وأن يتوهم أن القراء قد يذكرون حين يخطىء أن الحسنات يذهبن السيئات . وان الذى يحلق ألف مرة قد يغتفر له الاسفاف مرة أو مرتين . كما يسجل أنه لايمر يوم واحد دون أن يخلو الى قلمه ساعة أو ساعتين .

ويؤمن زكى مبارك بأن النجاح فى الأدب قام على سناد من العصبيات الممثلة فى الأندية والجمعيات . ويرى أنه يفضل التحزب المستور « لمعت فى عالم الأدب أسماء كانت أهلا للخمول ، لو واجهت الحياة الادبيـــــة بلا سناد من الأصدقاء والحلفاء » ويندم على أنه ، وقد فاته التحزب فى السياسة فهو يعيش بلا أنصار ولا أصفياء .

ويعلن أنه سيعقد محالفة بينه وبين قلمه ، ويراه أقوى وانفع من ألوف الأصدقاء .

ويقول : « قضيت دهرى بلا نصير ولا معين . وسأظل كذلك طول حياتى ، لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لايخيب ولا يضيع » .

ويعترف زكى مبارك بأنه فى أول أمره بالأدب لم يكن يعرف الفرق بين التسويد والتبييض ، ولا يستبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبـع . وأن قلمه يجرى فى القرطاس جرى الجواد فى الميدان . وهو يرى أن هذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضه لكثير من الجراح ، لأنه لم يكن يملك صده حين ينطلق ، ولكنه لم يلبث أن روضته الأقدار بعـــــد الجموح ، وفرضت عليه أن يلتفت ذات اليمين وذات الشمال . فأصـــبح

اذا كتب شيئا فى المساء يتركه (بلا تطريف) لتسهل مراجعته فى الصباح: « ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الاضافة اليه » . ويعلل ذلك بقـــوله : من المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات . فقد تنكر فى بياض الصباح بعض ما كتب فى سواد الليل » .

ولكنه يرى أن ذلك من المزعج . اذ لاقيمة للحياة الأدبية ، اذا خلت من المخاطر والمهالك والحتوف . فهو يؤمن بأن الكاتب لا يعد فارسا ، الا اذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءه الى الاشتباك فى حروب مع المعانى والآراء والأهواء (١) . »

وهو يؤكد فى كل خطوةأن الصدق جرهالى معاطبومهالكلايصبر على محرجاتها ومؤذياتها الا من كان فى مثل ايمانه . وقـــد صبر حتى اتهمه الغافلون بالبلادة والجمود . « لأنهم لم يعرفوا ان دنيا الأدب فيهـــا مبادىء تروض أهلها على الترحيب بمكاره الظمأ والجوع » .

ويقول « الصدق فى الدنيا غريب . وأنا فى الدنيا غريب » .

وتبلغ به الجرأة الى أبعد حدها ، حين يقول :

« أنا أومن بأنه لايمكن لأحد أن يكون أكتب منى الا اذا استطاع أن يكون (أصدق) منى .. ومن المستحيل أن يكون فى الدنيا أحدأصدق منى » .

ويؤكد أن غايته فى حمل رسالة القلم ليست هى الانتفاع المـــادى « ولو كان غايتى هى الانتفاع المادى لسلكت سبيلا غير هـــذا الســـبيل فللأقلام ميادين تصل بأصحابها الى الثراء العريض .. »

وهو يلح فى تصوير هذا المعنى ويوغل فيه ، فيقول :

« يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان . فما يكون الرجـــل كاتبا الا اذا شعر بأنه يؤيد بقوة روحانية تعصمه أحلاف الزور والبهتان .

---

(١) الرسالة ــ ٢٠ من يولية ١٩٤٢

فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا لحملها بأهل لأنهم عبيدتلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون ان القلموسيلة من وسائل النفع الرخيص » .

ويرى زكي مبارك أن الخطر في انحراف الكتاب عن رسالتهم الاتجاه الى تسلية الجماهير فان ذلك يؤدى الى خطر كبير بالنسبة للأدب ، فيصبح على شفا الهاوية يقول :

« ان الأدب في مصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم وتلك علامة الغثاثةوالهزال . قد يقبلهذا الحالمن الكتاب الذينيشغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم ، كما يأخذها الحاوى في ساحات (الموالد) فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين . كنت أنتظر أن يكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع . فالمجتمع مريض ونحن الأطباء » .

وزكي مبارك يؤمن بأن على الكاتب أن يعدل آراءه ويطورها مع الزمن بحيث لا تتجمد ولا تتبلد ولا تتعارض مع الحياة في خطوها الى الامام ويرى أنه ليس في ذلك عار أو خطأ .

يقول : « يجب أن تنظر الى آرائك كما تنظر الى أثوابك » فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب . والذى يعيش على رأى واحد ، قد يكونأجهلمن الذى يعيش بثوب واحد . فاحذرمنالعيش وأنت بالى الآراء . وقديعيرك الغافلون بالتنقل من رأى الى رأى ، مع أنهم لا يعيرون من يلبس ثوبا بعد ثوب . وانما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية . ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأى الواحد من شواهد اليقين.ولو عقلوا لأدركوا أن العين التى تنظر بأسلوب واحد هى عين بليدة لاتدرك الفروق بين دقائق المرئيات . وكذلك يكون العقل البليد . وهو الذى لايدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات .

الأمر الهام أن تكون أنت أنت ، في تحولك وقرارك . فلا ينبغى أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك . أو أن تكون ظلا لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب .

ويذهب زكي مبارك في أن رسالة القلم البليغ هي رسالة مهولة « يطيب في سبيلها الاستشهاد ، ويرحب في سبيلها بجميع الآلام » • ويقرر بأن هذا الايمان هو الذى جعل تلاميذه يتقدمون فى الميادين الرسمية • وتخلف • وهذا هو ثمن الاعتزاز بدولة البيان •

ويرى زكي مبارك كذلك أن الكاتب ليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع وهو مطلق الحرية في جميع الشئون • وان التعبير عن آلام المجتمع وآماله لايكون أدبا الا اذا صدر عن الكاتب عن ايمان صادق •

وعنده أن منهاج الذاتية الأدبية يتطلب أن يحرر الكاتب عقله وروحه وقلبه من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل • فينظر الى جميع الأشياء والمعانى نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ، ولو كانوا من أعظم الرجال •

ويرى أن على الكاتب البليغ أن يوطن نفسه على الغربة الأبدية • ولو كان فى داره وبين أهله ـ فالمفكرون فى جميع العصور غرباء ـ وبذلك لايكون له ظهير غير قلمة ولا نصير غير روحه •

أسلوبه ومنهجه في البحث

يعكس أسلوب « زكي مبارك » شخصيته وعاطفته الملتهبة الحادة ، ونفسيته الصريحة التى تأبى المداراة أو اصطناع النفاق • ومن خصائصه الاستطراد والقفز من فكرة الى فكرة ، والاسهاب المتنوع الذى يخدم الفكرة وميله الى النمو الموروث من التأليف ، وغلبة النزعة الوجدانية والطلاقة ، ووضوح العبارة مع أصالة المفردات •

وقد تنوع انتاجه ، فكتب فى النقد والبحث والمقالة وأحاديث الوجدان والعاطفة • وهو يقول فى هذا « أنا أعيش كما يعيش أميل فاجيه • فأنا أكتب فى كل يوم وفى كل ليلة ، وتحت يدى عشرات من المقالات وعشرات من القصائد » •

وقد ترك لذلك انتاجا ضخما لم يجمع فى مؤلفات • فقد أمضى سنوات طويلة يكتب الفصول الضافية فى « البلاغ » و « الرسالة » •

عرف أسلوب مبارك بالبساطة في التعبير ، والبـــلاغة في الأداء ، والفكاهة الحلوة • ولم يخل هذا الانتاج الضخم من هنات وسخافات ، ربما كان مرجعها انه يكتب في كل أسبوع ، في موعد محدود ، مفروض بحكم صدور الصحيفة ، وربما كان مرة منحرف المزاج أو مكدودا •

وزكي مبارك بطبيعته صحفي مجادل قوي الشكيمة جريء في الحق ، أو فيما يعتقده حقا • يغلب عليه اللون الوجداني ، مع الرصانة والطلاوة • وأسلوبه حي ينبض بالحياة ، وان كان يدور حول النفس •

يقول : « أنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أني وصلت باللغة العربية الى ماكانت تطمح اليه من « البيان » •

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أني خلقت عذوبة الأسلوب في اللغة العربية وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلف ولا افتعال • وما أذكر أني عرفت التسويد والتبييض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من المقالات ، بعد زمن التمرين الذي سبق سنة ١٩١٦ •

وما أعرف بالضبط ما خصائص أسلوبي : لأني أصدر فيه عن السجية والطبع ، ولكني أعرف بالتأكيد أن الذي يقرأ مؤلفاتي ومقالاتي يشعر بأنه يرى الحياة وجها لوجه • ويشهد صراع الأحلام والأوهام والآراء والأهواء والحقائق والأباطيل » •

وزكي مبارك يصدق في جانب كبير مما أورده في هذه العبارات •

ويركز زكي مبارك مهمته في البحث على العقل واقامة البرهان قبل تلمس النزوات والتوفيق بين المعقول والمنقول • يقول :

« وأنا أمثل المدرسة التي تحكم العقل في كل شيء • وتفرض عـــلى الباحث ان ينقد أولا المصادر التي يعتمد عليها وتروضه على ادراك الفروق بين الأذواق والأحاسيس في مختلف العصور الادبية •

وفي يقيني أنني سأحول النقد الأدبي في مصر تحولا جديا ، وسأعلم القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين ، قبـــل أن يغرموا بتلمس

النزوات الصغيرة ، التى يلقى بها الكتاب هنا وهناك ، وهم يتجادلون ويتحاورون • وأنا أمثل المدرسة التى توفق بين المعقول والمنقول ، وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع ، وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام » •

وفى عرض التراجم الذاتية يرى زكى مبارك أن هناك طريقين لذلك •

فان كان الغرض هو حث الشباب على الافادة من أدب يترجم له كان من الأنسب أن نجسم المحاسن ونتغاضى عن العيوب • واذا كان الغرض درس الطبيعة الانسانية وبيان استعدادها لاصول القوة والضعف ، كان من الأوفق ان نعرض لسير المشهورين ، بتفاصيل ما مر بهم من امارات التحليق والاسفاف •

كما يرى أن نتمثل من نترجم لهم كأنهم أحياء • فنفرض أنهم يملكون حق العتب والملام : « فان كان المترجم له رجلا عرف فى حياته بقوة المراس والاستهانة بالقيل والقال ، صح لنا أن نكتب عنه ، فى طلاقة وحرية •• وان كان رجلا عرف فى حياته بالتحرز من المعارك الأدبية ، وجب أن نكتب عنه فى لطف ورفق ، كأنه حى يؤذيه الهجوم » •

وهو يعلن أنه لاصحة لما شاع عنه افكا وبهتانا بالولع بالغض من أقدار الناس • ويقول : « أقسم أنى لا أهجم على رجل الا بعد أن أدرس مقالته دراسة جدية لاتحاماها عند النضال ، فليس من المروءة ولا من الشرف أن يسخر القلم وهو نعمة من الله علينا فيما لا يليق بالأدب الصحيح (١) •

وقد اتهم زكى مبارك ببداوة الطبع فى السجال والمناقشة • وقد دافع عن نفسه • فقال « ان بداوة الطبع التى كثر الكلام فى ذمها وتجريحها لم يكن من المثالب الا فى كلام الشعوبية • وهم قوم أرادوا الغض من الشمائل العربية • ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد • فكيف ينكر على رجل مثلى ، ظل بدوى الطبع ، فى زمن توارث فيه الصراحة ، وكثر فيه تنميق الأحاديث ؟! » •

---

(١) البلاغ — ٢٦ من اكتوبر سنة ١٩٣٤

وقد حاول زكي مبارك أن يبرر في أكثر من موضع بعده عن ميدان القصة : يقول « .. انني لم أكتب في حياتي غير قصتين : قصة قصيرة ، وهي في صدر كتاب « الأسمار والأحاديث » . وقصة طويلة ، هي قصة « ليلى المريضة في العراق » والقصتان مأخوذتان من الواقع لا من الخيال.

ومن رأيي أنه لا يجوز للكاتب أن يعيق فطرته ، فيكتب فيما لا يحسن من الفنون . وأنا مفطور على النقد الأدبي . وقد تفوقت فيه . فمن الواجب أن أقصر جهودي كلها عليه .

ومن الصعب أن أناقش الأستاذ توفيق الحكيم في القصص ، ومن الصعب على الأستاذ الحكيم أن ينافسني في النقد الأدبي . فلكل رجل منا ميدان . ..»

وقد سجل زكي مبارك رأيه في القصة عام ١٩٣٧ . فقال : القصة في مصر مطية من لا يعرف . وعوام الناشئين يؤكدون أنها فن جديد . وهم يزعمون أن القصة قد توجب التحلل من القواعد النحوية والانشائية» ولا يصلح لها غير المفتعل من الأساليب . وأكثر مانراه من الأقاصيص العصرية ليس الا انتهابا من القصص الصغيرة التي تباع في (محطات) أوربا ليتلهى بها المسافرون » . ان الكاتب الأوربي لاينشيء قصة الا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث ، وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظرة الباحث المتعمق ، فيعرف ما يحيط به من المعضلات الذوقية والاجتماعية والاقتصادية ، فيكون لقصته مغزى مأخوذا من أزمات النفوس والقلوب (١) » ..

ويسجل زكي مبارك في أكثر من مناسبة ، أنه مولع بدرس سرائر النفس الانسانية . وهذا المعنى هو الذي حمله على الصراحة فيما يسجل ويفيد من الأفكار والمعاني . ويخشى أن يكون ضحية للدراسات الفلسفية . ولا يغريه الا شيء واحد ، هو الشعور بأنه أنقذ الأدب العربي من كابوس الرياء والنفاق ..

---

(١) الاسمار والأحاديث ص ١٩٣

ولعل أبلغ ما أخذ عن الدكتور زكي مبارك في منهجه في البحث « الحديث عن النفس » . فقد كان موضع النقد . حتى قال عنه المازني : « لو أخلى زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن » . وقال طه حسين : « ان أكثر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك » .

وقد دافع زكي مبارك عن نفسه في كلمة وجهها الى المـــازني فقال (١) .

« ماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ وهل كان أدبك ياصديقي المازني الا دورانا حول نفسك ؟ .. وهل كتب العقاد مقالا أقوى من مقاله عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟

ان تصوير هموم النفوس وما يحيط بها من مخاوف وآمال ، هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء .

وهل يمكن أن اتعرف الى الوجود قبل أن أتعرف الى نفسي ؟

وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم الا أحاديث نفسية ؟ الم تكن اصالته في التعبير عن المخاوف الروحية ؟ وهل كانت أكثر القصائد الخوالد الا افصاحا عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : « أنا افكر . فأنا اذن موجود » .

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشـــعور بالوجود .

ثم أشار زكي مبارك الى الثناء على النفس ، ذلك الذي يقع فيه من حين الى حين . فقال : « هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هـــذه النزعة النفسية ؟ ، لو أنك فعلت ، لعرفت أني لا أتكبر الا متحديا . والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجمود والعقوق » .

---

(١) الرسالة : ٢٦ من اكتوبر سنة ١٩٤٧.

وجملة القولى : ان أسلوب زكى مبارك هو مزاج من الأسلوب العربى القديم ، والأسلوب الغربى الحديث : فقد حفظ زكى مبارك القرآن فى مطلع حياته • وحفظ خمسة آلاف بيت من الشعر • وقرأ أمهات الكتب العربية ، ثم اتصل بأدب الغرب ، فقرأ فى الأدب الفرنسى أساليب جديدة ، ومعانى متجددة ، كانت بعيدة الأثر فى أسلوبه وتفكيره واتجاهاته •

ولعل حرية فكره واندفاعه تعزى الى الاتجاه الفرنسى فى التفكير • كما أن اصرار مبارك على الجدل ، وايغاله ، يعزى الى ثقافته الأزهرية •أما دعوته الى الحرية ، ومقاومة التدليس ، وتحطيم تقاليد التفكير القديم ، فان لهذا صلة بالفكر الغربى ، الى حد ما • وله صلات بما قام فى نفس زكى مبارك من كراهية للأزهريين الذين ناوءوه اصدار كتابه « الأخلاق عند الغزالى » •

ولا شك أن « زكى مبارك » قد أخذ الطريق الذى سار فيه طه حسين ، وأغرم مثله بالرأى الغريب والمثير • وكما حاول طه حسين أن يكسب الشهرة فى صدر شبابه ، بآراء مثيرة ، عن المنفلوطى ، والمعرى ، وحديث الأربعاء ، والشعر الجاهلى ، فقد اندفع مبارك الى مهاجمة الغزالى فى آرائه ، واتهامه بالجمود • ولكن زكى مبارك يمتاز فى هذا الاتجاه بأنه لم يلبث أن عاد الى الحق ، واعتذر للغزالى ، وصحح آراءه فيه ، فى كتاب « التصوف الاسلامى » ولكن زكى مبارك عاش حياته كلها ، راغبا فى الاثارة ، مندفعا نحو القول الجديد الجرىء ، الذى يهز ، ويدوى ، ويحدث الضجيج •

وجدانيات مبارك

هذا بحر لاساحل له في أدب مبارك . ولو شئنا أن نضيف كل أدب زكي مبارك الى الأدب الوجداني ، لما كان ذلك غريبا . فقد عاش مبارك بعاطفته . حتى أبحاثه العملية اتسمت بالعاطفة . ولما كان زكي مبارك شاعرا بطبيعته فان العاطفة تصبغ كل فنون ادبه . ولقد اتجه الى الوجدانيات في سنواته الأخيرة . وكاد أن يقف أدبه على فن الكتابة الذاتيـــــة والوجدانيات .

وجميع مراحل حياته تبين عمق هذا الاتجاه . فهو في مســـتهل حياته الفكرية ، اتجه الى دراسة شاعر ، عرف بعمق اتجاهاته الوجدانية ، هو عمر بن أبي ربيعة . فقد ألقى محاضراته الاولى في الجامعة المصرية عن (حب ابن ابي ربيعه وشعره) ثم لم يلبث أن شغل نفسه بدراســـة شعر الحب في الأدب العربي القديم في حلقات أطلق عليهـــا « مدامع العشاق » .

وكانت دراساته للنثر الفني والتصوف الاسلامي متصلة أشد الاتصال بالأدب الوجداني . وقد سجل مبارك في مقدمة كتابه عن النثر الفني ، ان الأساتذة في جامعة باريس عابوا على كتابه ، « غلبة النزعة الوجدانية ». وقد اعتذر عنه مسيو ماسنيون يوم أداء الامتحان في السربون ، فذكر أنه شاعر . والشعراء لايستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .

ولكن زكي مبارك اتجه فيما بعد الى خلق مذهب في الكتابة الوجدانية قوامه الأدب الصريح . وقد برز هذا الاتجاه واضحا بعد سفره الى بغداد وكتابته فصول كتابه الضخم « ليلى المريضة في العراق » بأجزائه الثلاثة ، وهي عبارة عن يوميات وجدانية بدأ في تدوينها في أغسطس سنة ١٩٣٧، وانتهى منها في مارس سنة ١٩٣٩ . وبذلك يكون قد شغل نفسه بهـــذا الحديث سبعة عشر شهرا ويزيد .

وقد أراد أن يكتب قصة رحلته الى العراق « في أسلوب وجداني » فجعل أساس الفكرة بيتا من الشعر هو :

يقولون ليلى فى العراق مريضة . فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وقد رمز مبارك للعراق بليلى . وجعل نفسه « الطبيب المداويا » ، وأراد أن يصور قصة هـذا الجزء من الوطن العربى . وقد أصـابته المتاعب والأوصاب ، نتيجة لظروف الاستعمار التى منى بها ..

ثم استطرد الكاتب ، فأخذ يكتب يوميات لرحلته وزياراته لمـدن العراق . ويستطرد ، فيتحدث عن مقابلاته وقراءاته وأفكاره .

وفى خلال هذه الرحلة الطويلة كشف زكى مبارك عن نفسه ، وحياته وأفكاره ومشاعره ، بصورة جريئة . وقد اسـتهل مبارك كتابه بكلمات وجهها الى الدكتور محمد حسين هيكل . أشار فيها الى كلمة جاءت فى كتابه (ثورة الأدب) قال فيها « ان هناك آفاقا من المعانى يتحاماها كتاب العصر الحديث ، وقال انه سيشق هذا الطريق « ويكفر » عن سيئات أولئك الكتاب ، فيتحمل المشاق فى ارتياد تلك المجـاهيل . قال : « وقد إقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء . وأنا أعرف أنى أعـرض سمعتى للأقاويل والأراجيف . لأن الناس عندما لايفهمون كيف يدخل الطبيب على نفسه ، ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول . اقتحمت تلك المهالك ، وليس لى الا سناد واحد ، هو الشعور بأنى أؤدى خدمة للأدب والطب . وهل يخدم الأدب والطب أفضل من التغلغل فى تشريح النزعات والاهواء ؟ »

وقد أحب فى أكثر من مناسبة أن يصور هذا المذهب ، ويكشف عن جوانبه يقول :

« عز على ، أن يقال ان شعراء أوربا قد تفردوا باجادة القـول فى الوجدانيات ، فألفت كتاب (مدامع العشاق) ، ليكون شاهدا على سبق العبقرية العربية الى شرح مآسى الأرواح والقلوب . وساءنى أن يقال ان « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب . فألفت كتاب « ليلى المريضة فى العراق » لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوقون أظفر التفوق على راسين » .

كما اشار الى أنه سلك في هذه اليوميات (ليلى المريضـــة) مسلك الرمز والايماء ، ومسلك الغمز والتجريح • ورأى أن الأدب يوجب أن يرى الأديب جميع الأشياء ، وأن يعرف جميع الناس • « فأنا أشرب المر من عصير الحياة • لاحيلة الى شراب سائغ للشاربين » •

وهو في سبيل هذه الغاية التى آمن بها ، تسلل الى كل بيئة ، وتغلغل في كل مجتمع • لماذا ؟ •• « لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذى يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهي دعوى أعرض من الصحراء » • وهو يـــؤمن بأن الأديب أحوج الرجال الى اختلاج العواطف والافكار والاحاسيس ، ولا يتم ذلك الا اذا استطاع معاشرة الناس من جميع الاجناس •

والأدب عنده كالفن : « يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ،حتى لايفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجـــال الدين ورعاية المتخرجين من دعاة الاخلاق » •

ولا شك أن « زكي مبارك » في اتجاهه هذا يبدو جريئا غاية الجرأة ولقد سبق أن هوجم من أجل هذا الاتجاه ، حينما أصدر كتابه « مدامع العشاق » ذلك الذى قال عنه طه حسين في نقـــده الذى نشرته جريدة السياسة ، وضمته مجموعته « حديث الأربعاء » في الجزء الثالث : «ان كتاب مدامع العشاق يحرض على الشهوات • ومعنى هذا أن « زكي مبارك » من أنصار الادب المكشوف •

انه يقول في مقدمة كتابه « حب ابن ابى ربيعه وشعره » ، ما نصـــ « الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليـــد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ، ورعاية المتحرجين من دعاة الاخلاق • والأدب المستور انما يغشى بالحجب المحلية التى لاندرى أتبقى سائغة مقبولة أم يعدو عليها البدع المستطرف ، فيلقى بها في مهاوى الخمول » •

ولكن زكي مبارك عاد الى تناول هذا الموضوع في كتابه « ليـــلى المريضة » فقال : « ما أردت به الا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ،

ليكون فى ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة الى الفجور والمجون . لأنى بحكم أعمالى الرسمية من رجال التربية ، ولأنى رجل متأهل ولى أبناء .. قد يكون فى القراء من يخفى عليه أنى ادعو الى مبادىء خلقية سامية أغشيها بالفتون ، كما يصنع الطبيب فى تغشية « البرشامة » المرة بغشاء من الحلواء .. »

ويرجع مبارك اتجاهه الى دراسة النفس الانسانية الى غرامه بالأدب الفرنسي منذ سنة ١٩١٥ : « فراعنى أن أراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول ، بأساليب لا أجد لها نظائر فى الأدب العربى . فقررت أن أرجع الى نفسى لأفتش عما فيها من أسرار وغرائب واعاجيب لعل أن أمد الأدب العربى بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب . ومضيت فدرست طوائف من الغرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الانسانية فى العصر الحديث . وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على من رأس ويطول . ثم هالنى أن أرى الناس ينظرون الى ، نظرات الريبة والاحتراس .. »

وقد رأى مبارك أن الأدب العربى أصبح على شفا الهاوية ، بفضل شيوع التدليس فى تصوير العواطف والغرائز والطباع . من أجل هذا كله ، عمد زكى مبارك الى كتابة هذا اللون من الوجدانيات .

ولقد صور زكى مبارك « الحب » فى كتاباته . وكان رأيه جريئا كنظراته الى الوجدانيات .

« ان حديثى عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء . وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان .

نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب . وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية ؟ ..

الحب لايغزو الا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود ، فى

أصعب أوقات الحروب . والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لايضطلع أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن لايغلو الا في صدور أرباب القلوب . الحب جده جد . وهزله جد . ولا يتجاهل هـــــذه العاطفة الا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيء في تكوين الوجود .

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب .

ان التوقر الذي يصطبغه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لايعترفون بغير أوتار القلوب .

واين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعه . والعصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف . أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي ؟ ..

كان أسلافنا أصحاء . فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صـــنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال . وكان الرجل الذيان لايتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والتشبيب .

في مساجدهم رويت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزيغ ، بلا تحامل ولا اسراف وفي بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول .

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى واسمع .

ان سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم . نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشـــات الحزبية ، نحن نفكر في خلق عصبية أدبية . ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هـــو الترجمان الصادق لشهوات العقول وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا الى منازل الحكماء ويطمعنا في الخلود » (١) .

---

(١) مجلة الرسالة : مقال « تشريح عاطفة الحب » ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٠ .

وقد شغل زكي مبارك الناس بالحديث عن « ليلى » . فمن هى ليلى؟ ولماذا شغل بها ؟ اعتقد أن « زكي مبارك » عندما درس الصوفية وأوغل فيها أعجبه تصوير الصوفية للحب الالهى ورمزهم اليه بليلى . لذلك فكر هو فى أن يحول هنا الرمز ناحية أخرى ، على النحو الذى هداه اليـــه تفكيره فى البحث عن سرائر النفس الانسانية . غير انه حين يتحدث عن السر فى كتابته عن « ليلى » يقول انه انما فكر فى اغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية ، التى تصور عذاب الأرواح والقلوب . وأنه لم يكن سيىء القصد فيما صنع . وانما أحب أن يقيم فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب والأحاسيس . يقول : « كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم مازالت غنية ، وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب » .

ولكنه يحس بأن هذا العمل الخطير الذى أقدم عليه لم يكن جزاؤه كما ينبغى : « كنت كالطبيب الذى يحمل المشرط ليداوى جرحاه . فينقل اليه المشرط جراثيم الهلاك » .

ولكن زكى مبارك يؤكد أنه حرر يومياته عن ليلى المريضـــة من جميع القيود والاغلال . وقال انه ليس له من الجمال الا مأرب واحد :

« هو درس الطبائع والغرائز والميول لأخرج من ذلك بمحصـــول فلسفى ، قد ينفع بعض النفع فى اذكاء الدراسات الادبية والفلسفية » .

ومن بين آثار زكى مبارك الوجدانية ، ما أطلق عليه « رسائل مجنون سعاد » تلك التى نشرها فى مجلة الصباح عام ١٩٣٩ بقلم « الدكتور بديع الزمان » وهى مجموعة رسائل غرامية تحدث مبارك عن ظروف كتابتها . فقال :

« هناك كتاب لم يسبق له مثيل ولا نظير ، وهو « رسائل مجنـــون سعاد » تلك التى أنشأها الدكتور بديع الزمان . أما ذلك الدكتور ــ وأنا ذلك المجنون ــ وأنا ذلك البديع ، فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب الصباح ، لأننى كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال .

بدأت تلك الرسائل في بغداد . ولم تكن الموحية ليلى البغدادية . وانما كانت ليلى قاهرية . رمت سهمها فأصمتنى ، وأنا في بغداد . لقـد اعتصرت فؤادى وأودعته تلك الرسائل . »

ومما يتصل بهذا ما بدأ ينشره من رسائل قديمة ، موغل بعضهـا في القدم ، فقد كتب في يونية سنة ١٩٤٢ في الرسالة مقالاعنوانه (الخطاب الذى احترق بسعير الأنفاس) .. يقول فيه :

« هو خطاب تلقيته من فلانة في سنة ١٩١٩ . فما صبر القلب عـلى غرام مشبوب ، يدوم ثلاثة وعشرين عاما . وهي كألف سنة مما تعدون ،

كان الدهر قد سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق ثم استيقظ الدهر ، فعرفت مالم أكن أعرف . عرفت أني لن ألقاها بعـد ذلك ، ولو انتظرت الى أنتشيب ناصية الزمان .

فمن يبيعنى مثقالا من الصبر الجميل عســـاني أتناسى أحـزاني وأشجاني ؟ » .

وعندى أن اتجاه زكي مبارك هذا الى الوجدانيات ، واسرافه فيها ، يتصل بأزمته الأخيرة التي سنفصلها فيما بعد ، فقد أحس بأنه قـد بلغ الغاية . قدم لثلاث اجازات من الدكتوراه ، ومع ذلك فانه لم يجدمكانه ، ولم يلق قدره ، لا في وزارة المعـــارف ، ولا الجامعة ، ولا ميدان الأدب والصحافة . هنالك حاول أن يحدث ضجيجا قويا وصريرا مزعجا . فكان أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدر أزمته الأخيرة .

ومما يتصل بهذا رأى زكي مبارك في المرأة . فقد كان من الغريب أن الذى تحدث عن الحب طويلا ، وجرد نفســـه للوجدانيات ، قد كون رأيا في المرأة . ولكنه رأى جائر ، فقـد حمل على المرأة حملة شـعواء ... ولولا أن هذه الآراء كتبها عام ١٩٣٨ ، وهو في بغداد ، وهـــو في أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدرها أزمته الأخيرة .

وقد أثارت هذه الآراء في ابانها ثورة ضخمة .. وان كان قد أخذ بوجهة نظره كثيرون .

وهى تعطى صورة التناقض بين شخصيته ، حتى ان الناقد ليدهش كيف أن زكى مبارك الذى صور الحب العنيف الغامر لـ « ليلى » فى كتابه هذا ، يذكر المرأة على هذا النحو .

وعندى أن « زكى مبارك » قد كتبها تحت ضغط ظروف غدر أو هجر . وهذه جملة آرائه :

* قضيت أكثر من عشرين سنة فى الدراسات الفلسفية . فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى الا قليلا . لأن عقلى أكبر من قلبى . وأنا أشتهى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بهـــا فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول .

* انتهيت من التجارب الى أن المرأة للرجل عدو مبين . المرأة مخلوق جميل . ولكنه سخيف . لأنها تجهل ما فطرت عليه من الضعف . وهى لا تسيطر ولا تســـتطيل الا على كرام الرجال . والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة بفضل ما فطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء . ولكنها تجهل ذلك وتظن انه لا يوادعها الا بفضل ما تملك من الســـحر والجاذبية . وفى المرأة سحر وجاذبية ، وان كانت شوهاء ، لأنها باب الى الضلال .

* المرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان . وما أطاع رجل امرأته ، الا ذل وهان . وأعظم ميزة لنبى الاسلام هى دعوته الى الحذر من النساء .

* ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوها فى الغيرة ، فهى تخـاف من جميع الهواجس وجميع الظنون . والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض على الرجل أن يتحول من شأن الى شئون ، ليصــــل الى فهم المجتمع الذى يراوحه ويغاديه فى سبيل الرزق أو فى سبيل المجد .

* المرأة هى الجحيم الذى تتمرن به على الاقامة فى سقر ، وهى البلاء الذى يصبه الله على رءوس العباد . هى الشـــقاء المعجل ، والكرب الذى يسبق الموت . والمرأة فى جميع أحوالها مصدر فساد . وهى التى

تفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه . ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها ابليس .

• ومع أن الرجل يعز المرأة بغناه ، فهى تستريب من ظفره بالغنى والعافية ، لأنها ترى فى ذلك بابا لتطلعه الى سواها من النساء وما فى الأرض عدو الا وهو خليق بأن يتعامى عن بعض عيوبك الا المرأة . فهى وحدها العدو الذى لا يغفر ولا يصفح .

زادها الله ذلة الى ذلة وضعفا الى ضعف .

• المرأة تؤثر فى حياة العظماء بلا جدال . لأنها توقظ فيهم غريزة المخاتلة والنفاق والرياء . وهى فضائل يعدها الغافلون من العيوب . بفضل المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ . بفضل المرأة راضتنا المقادير على الصبر الجميل .

آراء زكى مبارك

دفاع عن اللغة العربية والقومية العربية وهجومه على دعاة التغريب

لزكى مبارك جوانب متعددة فى العمل الأدبى ، الذى تخصص فيه. كان أبرز هذه الجوانب دراسته للأدب العربى • ثم دراسته للتصوف الاسلامى • وله آراؤه فى النقد والشعر والقرآن والمرأة •

ولكن هذا الجانب من زكى مبارك هو أعمق جوانبه أو يمثل أصدق آرائه ، ويرسم حقيقة اتجاهه وجوهر فكره •

فقد كان زكى مبارك صادق الايمان بالقومية العربية غيورا على اللغة العربية وبالرغم من انه سافر الى أوربا وتأثر كثيرا بالثقافة الفرنسية والآراء الغربية فى أسلوب البحث وطريقة التفكير • الا أنه ظل من هذه الناحية صادق الايمان بالعربية والعرب ، لم ينحرف ولم يتردد فى رد كل من يحاول أن ينال من أمجاد الفكر العربى أو اللغة العربية • وقد كان ذلك غريبا فى نظر كثير من الناس الذين كانوا يظنون أن « مبارك » قد يحمل الأمانة للفكر العربى ، كما حملها من قبل عدد من الكتاب الذين تأثروا بالفكر الفرنسى ، وجعلوا أمانتهم له أكبر من أمانتهم لأمتهم العربية ، وأوغلوا فى الدعوة الى العامية أو الفرعونية أو ثقافة البحر المتوسط •

وقد سجل ذلك فى مقدمة ديوانه « ألحان الخلود : » فقال « حين رجعت الى القاهرة (مارس — ١٩٣١) أخذت أنشر فى جريدة البلاغ مقالات عن ذخائر الأدب العربى • ولكن الدكتور ابراهيم ناجى ضاق صدره بتلك المقالات • فقد كان ينتظر أن أكتب مقالات عن الأدب الفرنسى »

لهذا كتب مقالات (بتوقيع) مستعار فى احدى الجرائد الاسبوعية تقوم على الغمز والتجريح • واستمر غمزه وتجريحه سنتين • وفى أحد

الأيام طلبت موعدا للتلاقي • فاختار محل جروبي ، تفضل فيه فقدم كأسا من الشاي • وتفضلت أنا فقدمت نسخة من ترجمة كتاب النثر الفني » •

ولا شك أن هذا المثل غني عن أي بيان • فقد كان الظن أن الشباب المثقف الذي تلقى دروسه في الغرب لن يكون متحمسا لنصرة العربية على هذا النحو الذي برز به في صدر جريدة البلاغ ، تحت عنوانه الشهير « الحديث ذو شجون » في الوقت الذي كان الاستعمار قد ركز الدعوة الى العامية والفرعونية والوطنية الصنيعة • فقد دخل في معارك ومساجلات ومصارعات ضخمة في شأن اللغة العربية •

وكان زكي مبارك نسيجا وحده في هذا المجال — بين من عادوا من أوربا فقد كان المرحوم محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وسلامة موسى وغيرهم ، يحملون لواء الدعوة ، مخدوعين أو غير مخدوعين • أما هو فلم ينخدع • ولكنه أصر « منذ عرف اتجاهات أوربا » على ايمانه الخالص باللغة العربية والقومية العربية • وظل وفيا لهما صادق الوفاء ينافح عنهما في كل سبيل • ولم يحصل لذلك على أي « نيشان » أو لقب من الالقاب التي كانت تغدق على من يسميهم الغرب سفراء الفكر في العالم العربي •

ولقد أمضى زكي مبارك أكثر من خمسة عشر عاما يدافع عن تدريس العلوم في الجامعة باللغة العربية • ولاقى في سبيل ذلك كل معارضة من دعاة التغريب ولكنه كان مصرا على دعوته ، يدعمها بالدليل والبرهان

يقول : « ان اللغة الانجليزية لم تسد في كليات الطب والهندسة والعلوم ، لسبب معقول • أنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية • وهذا وهم • أو هو عجز نستر بهذا الوهم المصنوع • فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية والفرنسية ، وانما من ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتينية • وفي مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها ، بعد أن نصقلها صقل الترجمة والتعريب ، فتضاف الى اللغة القومية : اللغة العربية الفصحى لا العامية • »

. . وقد تحقق أمله عام ١٩٣٩ كتب فى ٨ من يناير سنة ١٩٤٠ بمجلة الرسالة مقالا قال فيه : « من مغانم السنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة الدرس فى كلية الطب وكلية العلوم . وهى دعـــوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت . فمن قال انه دعا الى هذه الفكرة مرة او مرتين أومرات فأنا جعلتها حلما أهتف به فى يقظتى ومنــامى ، اكثر من خمس عشرة سنة ، وبسبب الالحاح فى نشر هذه الدعوة رآنى بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء . وأوصدوا فى وجهى كل الأبواب . »

وقد عارض زكى مبارك دعوة ويلكوكس الى العامية وقد أوجدت هذه الدعوة دويا عاليا . فقال : « بلغ الجهل ببعض كتاب العصر أن يصدق ما أشار اليه ولكوكس من أن اللغة العامية لغة مصرية أصيلة يتكلمهـــا المصريون منذ عهد الهكسوس ، على أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن لغة مصر القومية هى اللغة العربية الفصيحة ، لأنها لغة للدرس والتأليف . ولغة المحاكم والدواوين ، منذ أجيال طويلة . وقد رأينا بعـــض الكتاب المشهورين يبدئون ويعيدون فى هذه المسألة لانهم رأوها موضوع عنـــاية أخد المستشرقين . وكل ما يهتم به المستشرقون يجب أن يهتم به الشرقيون فى فهم بعض الناس » .

كما وجه الأنظار اكثر من مرة الى حماية الشـــباب من الدعوات التغريبية . فقال : « ان شباب اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدسائس التى يصوبها المستعمرون والمبشرون الى صدور اللغة العربية . وان واجب الأساتذة فى كلية الآداب حماية أولئك الشباب من تلك السموم الفواتك

كما عارض الرأى القائل بأن اللغة العربية فى مصر لغة أجنبية وبأن المصريين ليسوا من العرب .

ورد على الذين قالوا بأن اللغة العربية فى مصر لغة أجنبية ، فقال : « ان مصر ، لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين ، هى البلد الوحيـــد الذى انقرضت لغاته القديمة ، لتحل محلها اللغة العربية . وهو حـــظ لم تظفر بمثله أمة عربية أخرى . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية . والبلاد العراقية تحيا فيها اللغـــة البابلية واللغة الكردية

ولغات أخرى يعرفها أهل تلك البلاد . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفات . والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة ، بعضها قديم ، وبعضها حديث . والرجل العربى قد يحتاج فى تلك البلاد الى ترجمان .

وقد عصفت عصور الظلمات بلغة القرآن فى كثير من الأقطار العربية . فاضطرت بغداد ، وكانت عزوس العروبة الى أن تتعلم اللغة الفارسية بضعة قرون ، ثم قهرها الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زمنا غير قليل . والشام فى مختلف أقطاره تعرض كارها لأمثال تلك الخطوب . ومع هذا لطف اللهبمصر ، فظلت موئل اللغةالعربية . وكانت المساجد فى القاهرة وفى سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين .

وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين فى ميادين المعقول والمنقول . ان اللغة العربية فى مصر أرسخ من اللغة الفرنسية فى فرنسا ومن اللغة الانجليزية فى انجلترا ، ومن اللغة الألمانية فى المانيا لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش فى بلادها ربع المدة التىعاشتها اللغة العربية فى بلادنا .

وهل فى الدنيا لغةعاصرت القرآن ، وبقيتمفهومة ، على نحو مايفهم القرآن فى جميع البيئات العربية ؟ ان مصر هى التى حفظت لغة القرآنبلا جدال ولا نزاع . ان اللغات المصرية القديمة لن تعود أبدا ، ولو أنفقنا فى سبيلها غاليات الأنفس والأموال ..

وفى الدفاع عن مصر قال : « سأقول وأقول ان مصر هى باعثة الأدب العربى بعد ان طال عهده بالهجود ، نحن خلفاء العرب . والمصحف لا يطبع الا فى بلادنا . وسنرفع راية العروبة فى جميع الميادين »

وقد شغل زكى مبارك نفسه بتفصيل القوة فى عظمة اللغة العربية وعلاج قصورها ووسائل بعثها وأحيائها ودفعها الى الامام .

• ان اللغات من صنع الناس • وان كانت فى بعض صورها من مواريث التاريخ • فما كان يجب على العرب فى العصور الخوالى أن يبتكروا أدوات التعبير عن شئون لم يشهدوها ولم يعرفوها • وانما يجب علينا أن نعبر عما شهدنا وعرفنا ، كما عبروا عما شهدوا وعرفوا لنستطيع القول اننا أهل للانشاء والابداع • وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين •

• لغات العلم والمدنية فى هذا العصر كانت فقيرة •• ثم أغناها أهلوها بالنحت والاشتقاق والاقتباس • فمتى نصنع كما صنع الأحياء من أبناء الزمان • نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان العلم والمدنية فى الشرق ، فنزاحم بها ألسنة الاجانب ، ونستبقى أعمار أبنائنا ، فلا يضيع فى رطانات لا ينتفع بها منهم غير آحاد •

• اننا نريد (لغة) من لغات المدنية ، لغة يفهمها الفلاح والملاح والنجار والبناء • نريد لغة سخيه تسعد أبناءها جميعا بلا حساب • نريد لغة تجمع بين التواضع والجبروت • يرى فيها العوام ما يشاءون من البساطة والجمال • ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق • نريد لغة مبذولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء • يأخذ منها كل انسان ما يناسب عينيه ورئتيه •

• لقد خلقت اللغة العربية للحياة ، ولم تخلق للموت • بدليل أنها لم تنهزم بانهزام الامبراطورية الاسلامية • وهى امبراطورية لم نسيطر على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين • فلو كانت اللغة العربية لم تعش الا بحراسة الامبراطورية ، لوجب أن تزول • ولكنها لم تزل ولن تزول •

للغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس • فمتى تدرس تلك الخصائص ، ومتى تعرف بالبراهين القواطع ، كيف استطاعت الانتصار على الموت ؟ مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت (١)

---

(١) الرسالة ــ ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٣

• ان اللغة العربية لها ماض مجيد فى الحياة العلمية والطبية • ومن السهل رجعها الى مجدها القديم • ونحن لا تعجزنا الاصـــول • وانما تعجزنا الهمم العاتية التى تخلق الممالك والشعوب •

• أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية للانجليز والفرنسيين ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ فاذا كانوا يرون ذلك من مؤيدات الاحتـــلال ، أفلا يرى الوطنيـــون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟ ••

ان حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال • ان اللغة هى أهم مظاهر الاستقلال فعضوا عليها بالنواجذ ، ان كنتم تعقلون (١) •

وقد هاجم زكى مبارك دعاة « الأدب المصرى » ودعاة اللغة العامية» ووصفهم بالافلاس ، يقول « ان بعض الأدباء فى مصر يختلفون فى تسمية الأدب الحديث • وبغيتهم أن يســـموه الأدب المصرى لا العـــربى • ثم يدورون حول فكرة الأدب المصرى • وينتهى أكثرهم الى الاتفاق على انه ليس عندنا أدب مصرى • لأن أكثر موضوعات الادب الحديث ليســـت مصرية • وقد يختلفون فى الصفة اللغوية فيرى فريق منهـــم أن اللغـــة الفصيحة ليست لغة المصريين ، لأنها وردت الينا من بلاد العـــرب • فان سألت ما عسى أن تكون اللغة المصرية اضطربوا اضطرابا شديدا ، لأن اللغة العامية محرفة عن الفصيحة •

وقد سجل زكى مبارك كيف حاولت بريطانيا جعل تعليمنا يعمـــل لاخراج موظفين فلم تفلح ، وكيف حاولت فرض الثقافة البريطانية فلم تفلح • وكيف عمدت الى محاولة انشاء الكتاتيب وتوقيف مشروع الجامعة فلم تفلح • وكيف حاولت جعل الجامعة مباءة للالحاد فلم تفلح • وكيف حاولت محاربة اللغة العربية فلم تفلح (٢)

---

(١) من كتاب اللغة والدين والتقاليد ـ لزكى مبارك •

(٢) جريدة البلاغ ـ حياة مصر الأدبية فى عهد الاحتلال (مقال) يوليو ١٩٣٢ •

ويقول ان المحتلين عجزوا عن قتل حرية الرأى كما حاولها احياء العصبيات والخلافات الدينية . وكيف كان اسم عرابى واسم عمر مكرم ، وقد ظلا طويلا منكودين .

وفى كل مناسبة يدعو زكى مبارك الى أنه قد حان الوقت الذى تحرر فيه بلادنا من السيطرة الأوربية فى العلوم والآداب والفنون . يقول : « ما أدعو الى غض أبصارنا عما فى أوربا من آثار العقول . فهذا كلام لا يقوله رجل متخرج فى السربون . وانما يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لهم أدبا وعلما وفنا . يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لنا عقولا وأذواقا وأحاسيس .

يجب أن يفهم أبناؤنا أننا صالحون لبناء مجدنا الادبى والعلمى بأيدينا .

يجب أن يكون مفهوما أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية نحو ثلاثة قرون . يجب أن يكون مفهوما أن اتخاذ اللغات الاجنبية لغات تدرس فى المعاهد والكليات هو اعتراف خطير بأن لغتنا فقيرة وأننا فقراء »

وكان فهم زكى مبارك للقومية العربية عميقا صريحا مقرونا بعاطفة الصدق والايمان . وقد عمق هذا الفهم جولاته فى العالم العربى ، واتصاله بالبيئات الوطنية الصادقة الايمان بالوحدة العربية .

وأعتقد أن حادثين هامين فى حياة زكى مبارك كانا مصدر هذا الاتجاه ، وسبيلا لاستمراره عنده ، طوال حياته الفكرية . أما الحادث الأول فهو زيارته لمراكش عام ١٩٣٢ بعد انتهاء اقامته فى باريس واتصاله بالمفكرين والوطنيين العرب ، فى هذا الجزء النابض بالحياة ، من الوطن العربى ، والذى كان واقعا ـ اذ ذاك ـ تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى . وفى مراكش يتمثل التاريخ العربى فى أروع صوره : هذه المنطقة التى ترتبط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والتى كانت معبرا لغزوات متعددة فى أرض أوربا . وفيها جبل طارق ، وصورة جيش الغزو العربى بين المدوتين فى طريقه الى الاندلس . ثم غزوات متعددة فى عهد

الموحدين والملثمين وملوك الطوائف • هنالك حيث تبدو الروح العربية من وراء غلاف الاحتلال الفرنسى قوية حية ، هناك تكشفت لزكى مبارك عظمة الأمة العربية وقوة تراثها الحي •

وقد أتيح لمبارك من بعد أن يذهب الى بغداد عام ١٩٣٨ ، ليعمل مدرسا فى مدارسها العليا ، وقد أمضى هناك عاما كاملا حيث تعمق شعوره بالقومية العربية وازداد قوة وحياة • ففى بغداد صورة عهد الرشيد ومرسم الحياة العربية فى انطلاقها ، حيث كانت الترجمة والتأليف ومدارس العلم والحضارة ، وحيث ظهر علماء أعلام ما تزال آثارهم قوية باهرة • ومن شأن هذه الصفحة الضخمة من تاريخ الأمة العربية أن تكسب روح الكاتب العربي قوة ايمان ، وتضاعف أمانته للفكر العربى ، وللبعث العربى الجديد •

ولذلك فقد كان زكى مبارك من أوائل كتابنا الذين عاشوا بين خلال هذه الفترة التى كان الاستعمار حفيا بأن يفصل فيها العرب فى آسيا عن العرب فى افريقية ، وبذلك جمع بين عظمة الأمة العربية فى أقصى طرفيها (بغداد ومراكش) ، وبين المدينتين اللتين تحملان أعظم مظاهر الحضارة فى الامة العربية • وقد كان له فى خلال ذلك جولات فى دمشق والقدس وبيروت أتاحت له أن يرى ويسمع ويتحدث عن روح الوحدة الكبرى •

ولعله أول كاتب أشار الى « أن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تنهض قواعده بغير الاخاء الصحيح • وهو أول من نبه الى خطر المؤامرات الغربية فى سبيل تحطيم هذه الأخوة • حيث يقول : « من أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الاخاء أو قتله فى المهد » •

وقد كانت هذه الرحلات فى العالم العربى عاملا فعالا فى تعميق الايمان بالقومية العربية لكل الذين طافوا به من المثقفين والكتاب ، أمثال المرحوم الدكتور محمود عزمى ، والمرحوم : ابراهيم المازنى • والزيات والمرحوم : عبد الوهاب عزام • وقد دعا مبارك الى عمل مدروس لتحقيق القومية العربية فقال :

« ان الأمر الهام أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف الى الشرق ، خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين ، وتفرض على المصرى أن يشعر بالاخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية . فاذا تجاوزنا ذلك الى العطف عن كل ما صدر عن القومية العربية عددنا الاسلام صوت العرب فى الشرق والغرب ، وأدركنا ان الاسلام ميراث عربى يشـــاطرنا فيه نصارى لبنان والعراق :

« لأن محمدا ، صلى الله عليه وسلم هو أول عربى رفع اسم العرب فى العالمين » .

وقد صور مبارك ضرورة الوحدة . فقال « انما أريد أن أصارحكم بأن مصر مثلا أضيق من أن تسع المصريين . فلابد لنا من اخوان وأصـــدقاء تبادلهم المنافع الأدبية والاقتصادية ، ونبنى على أساس مودتهم صروحا من القوة والثروة ، وانني لأذكر أن شعر حافظ ابراهيم له حفاظ ورواة فى بلاد المغرب ، كما كان لجرير والفرزدق حفاظ ورواة فى الادب القديم وان ديوان حافظ لينشد كله فى سهرة واحدة فى قهوة الجامع فى باريس ينشره الحاج طاهر الصباغ قصيدة قصيدة . ولا ســـيما القصائد الوطنية البذيعة التى قيلت فى دنلوب المستشار الانجليزى للمعارف فى عهد ظلام الاحتلال . والتى قيلت فى حادث « دنشواى » .

ويقول : « هذه الأمم العربية لا خلاص لها الا باتحادها . واتحـــاد المشاعر والاذواق والعواطف له أثر عظيم فى اعداد هذه الشعوب لمستقبلها المأمول .

وليس لنا أن نيئس ، فان الزمن لن يظل على مواتاته للأمم الاوروبية الطاغية التى يعز عليها أن تترك شملنا بلا تبديد وجمعنا بلا تفريق » .

كما يدعو الى احياء ذكريات العرب ، ويرى أن كل احياء لذكريات العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية . وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى » . وهو يخاطب المصريين بقوله : على المصرى أن يفهم أن فى دمه روحا عربية تسوقه الى الانتقـال

من أرض الى أرض فى سبيل المنافع العلمية والادبية • وأن رجولته لا تكمل الا اذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء فى مختلف البلاد »

وقد أشار فى بعض أحاديثه الى ما وجه الى المرحوم : الشيخ مصطفى عبد الرازق عندما قال : ان مصر تقف من الوحدة موقف المشاهدة لا موقف الفاعلية فهجم المصريون عليه وخطئوه بعبارات قوية •

ويقول « ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا أناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين • وأن مصر هى التى استطاعت أن تعرض على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية • وهى التى استطاعت أن تفرض على عصبة الامم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية • وهى التى استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الاسلامية بلا استثناء »

ويقول : أنا عربى ••• والمصريون عرب فى أقوالهم ، وأفعالهم ، وسجاياهم ، ودينهم ، ومذاهبهم • وأدعو الله أن يجعل مصر أبد الدهر من أملاك اللغة العربية لغة القرآن » •

ويقول : « أنا أدعو أبناء العرب فى المشرق والمغرب الى حب جميع البلاد العربية حبا يصيرها فى عيونهم وقلوبهم ملاعب حبيبة • أدعوهم الى التآخى الصادق المتين • أدعوهم الى التصوف فى الأخوة بحيث يصبح كل رجل وهو مسئول عن حياة أخيه فى المحضر والمغيب » •

وقد عارض زكى مبارك الدعوة (التغريبية) التى كانت تقول بحضارة البحر المتوسط ، وعظمة العقل اليونانى • وفند مزاعمها فى أكثر من موضع ومناسبة من مؤلفاته وكتاباته •

وقد صور مقدمة كتابه (الأسماء والأحاديث) كفاحه هذا فقال : « وقفت لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد ، فمزقت أوهام الخوارج على العروبة والاسلام شر ممزق • ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتطاولوا على (ماضى) الأمة العربية • وعاديت من أجل الحق رجالا يضرون وينفعون ويقدمون ويؤخرون • فكان اعتصامى بحبل الحق أقوى ما تذرعت به لاتقاء مكايد الناس ومكاره الزمان • »

ويرى زكى مبارك أن « أهل الغرب لئام ، تطغيهم القدرة ، وتعميهم النعمة. ولن تكون هذه المبتدعات في أيديهم الا وسائل فناء واهلاك وتخريب وتدمير » .

وهو يؤمن بأن أهل الغرب لا يوفون اذا عاهدوا ، ولا يصدقون اذا وعدوا ولا يبرون اذا أقسموا . انهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق المواثيق . ولست فى حاجة الى تذكير قرائى بالسبعين وعدا التى ظفرنا بها من الساسة الانجليز » .

وهو يرى أن كل من يمت الى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة انما هو انسان خادع ماكر خبيث . لا عهد له ولا أمان » .

ويؤمن زكى مبارك بأنه لابد لمن يريد أن يعايش أهل هذا الزمان أن يكون فى مثل لؤمهم وبغيهم وأن يكون له مالهم من قوة البحر والهواء »

وقد هاجم زكى مبارك « كليرجيه » أحد كتاب فرنسا هجوما عنيفا كشف به الستار عن المؤامرات التى يدبرها دعاة التغريب ، الذين يعملون لحساب الاستعمار تحت اسم « العلم الحر » وقال :

« ان هذا الرجل يتعرض للاسلام والأخلاق الاسلامية . مع أنه لم يدرس اللغة العربية فى حين أن واجب العالم يقضى عليه بالحذر والتثبت قبل القطع فى المسائل الخلقية . وقد جرت العادة عند بعض الأوربيين أن يقفوا فى نقد الأخلاق عند ما يشهدونه فى الحانات والقهوات والمراقص ، ويندر أن يفكروا فى درس الاخلاق الاسلامية التى يعيش عليها الناس فى الأقليم . ولو اتجهت أفكارهم الى هذه الناحية لرأوا فيها الأعاجيب . فان المصريين فى الأرياف يتماسكون أقوى التماسك من الوجهة الخلقية . وفى الريف بيوت عدة يعيش أهلها فى الفاقة والمتربة . وهم مع ذلك نماذج فى صيانة الشرف والعرض . وهؤلاء الفلاحون الفقراء هم الدلائل على نبل الاخلاق ولولا ما يعتصمون به من الخلق والدين لكانوا مبعث فتنة وشر . فمن يبلغ مسيو « كليرجيه » أنه كان قصير النظر ، حتى اكتفى فى درس أخلاق المصريين ، بالوقوف عند بعض المناظر التى يشاهدها

أحيانا من يعيش فيالقاهره • ومن يبلغه انانحراف بعض القاهريين ليس الا نتيجة لاتصـــالهم ببعضالفارغين من أخلاط الجاليات الأجنبية • .

ان الذين يذيعون الفاحشة عن الشرق وأهله لا يعرفون أن أهلهم يعيشون في بيوت من زجاج • وينسون أن قوتهم فى الدنيا مستمدة من أصول ينكرها الخلق النبيل •

ان هؤلاء الذين يتلمسون لنا الهفوات لا يعرفون اننا كنا أكرم منهم حين عشنا فى بلادهم • ان مصر لا يعيش فيها من الأجانب الا من يعجز عن الحياة فى وطنه • فترحب بهم البلاد الكريمة وتؤويهم ليكون جزاؤها أن تطول السنتهم وأقلامهم بالزور والبهتان »

ويسجل زكى مبارك موقفه الواضح الصريح من الآراء الغربية :

« ليس من العار أن يتأثر الانسان بفكرة أجنبية ، ولكن العـار أن يدعو لآراء أجنبية لم يتأثر بها ، ظنا منه أن فى ذلك طرافة وابتكار • ومن أجل هذا تضيع جهود كثير من المجددين ، لأنهم فى طرائفهم أدعياء »

ويذكر زكى مبارك أن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهمـوا أن مصر تخلت عن العروبة • ويريدون أن يزهدوا العرب فى الثقـافة المصرية • ويعلق زكى مبارك على كراهيته للانجليز فى أكثر من موضع فهو يذكر بالتقدير جان دارك ، بعد أن زار قبرها ومن فوقه النار موقـدة لا تخبو ويقول معلقا : « أنا أحب جميع من حاربوا الانجليز »

ويقول انه كان يأسى كلما تذكر تقصـيره فى تعلم الانجليز • لم سرت به ظروف سنعد فيها بهذا الجهل ـ لأنه على قبحه ـ كان عنوانا على الشخصية الاستقلالية وفي باريس كانوا يقولون له عندما يعلن جهلهباللغة الانجليزية : كيف يصح ذلك ومصر فيقبضة الانجليز • فكان يجيب:انكم واهمون : وان مصر ليست فى قبضة الانجليز • وانما هى ملك لأبنائها الصناديد • »

ويرد على الغرب ، فيقول : لقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية •

فلنخدعه بما عندنا من مدنية . عنده نور الكهربا . وعندنا نور العدل .
عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق . عنده الاستعمار . وعندنا الاستبسال »
ويقول متحديا : « ما كان العرب من السوائم المهملات حتى يفكروا فى
رعايتكم يا أهل الفرنسيين أو الالمان أو الطليان » .

فى الأدب العربى الحديث

شغل زكى مبارك نفسه بالادب العربى ، فكان من أقوى كتابنا تعمقا فيه . وكتابه « النثر الفنى » يمثل مدى المجهود الضخم الذى بذله مبارك فى مراجعة آثار الادب العربى ، ومعالمه ونقده لهذه الآثار ، والموازنة فيها ولم يتوقف زكى مبارك بعد كتابه هذا عن الدراسات المتصلة للأدب العربى بل استمر فيها . واذا اعتبرنا ان دراساته عن التصوف الاسلامى مستقلة تماما عن هذا الفن ، فان دراساته عن الموازنة بين الشعراء وكتابيه عن عمر بن أبى ربيعة والشريف الرضى ، ومقالاته المتعددة التى لم تجمع فى كتب قد تناولت الكثير من التعليقات والتحقيقات المختلفة للأدب العربى . فضلا عن مراجعاته لكتاب « زهــــر الآداب » للحصرى القيروانى . والكامل للمبرد .و يرى زكى مبارك أن كتابه « النثر الفنى » أول كتاب كشــف النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية .. وانه قهر به المستشرقين ومن لف لفهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلى : انه دليل على أن العرب كان لهم نثر فنى قبل عصر النبوة بأجيال » . ويرى أنه أول من أرجع بكتابه هذا الصور الفنية فى نثر كتاب الصنعة والزخرف الى أصول عربية صحيحة .

وكان الباحثون يحسبون أنها أثر من اتصال العرب بالفرس واليونان وان ما دونه من أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى أقل ما يقال فيــه أنه باب من البحث جديد . وقد سجل زكى مبارك فى مقدمة كتابه أنــه شغل نفسه باعداده سبع سنين . « فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى . وان رأوه أصــغر

من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكر أنى ألفته فى أعوام سود ، لا قيت فيها من عنف الايام ما يقصم الظهر ويقصف العمر . فقد كنت أشطر العام شطرين : اقضى شطره الأول فى القاهرة حيث أؤدى عملى وأجنى رزقى . وأقضى شطره الآخر فى باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد . ثم أصررت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت »

وكما قلنا من قبل لم ينس زكى مبارك طبيعته فى النضال ، حتى مع كبار الاساتذة المتحنين فى باريس ، فقد بدأ بعد وصوله الى باريس مباشرة بمهاجمة آراء مسيو مرسيه (رأس المستشرقين الفرنسيين) لذلك العهد ، والذى كانت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفنى عند العرب . وقد نصحه مستشرق آخر هو (ماسنيون) وأفهمه أن « مرسيه» رجل صعب المراس وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال . ولكن كتب الله الا ينتصح فبدأ رسالته التى قدمها الى السربون بفصلين فى نقض آراء كبير المستشرقين وقد رفض مرسيه ابقاء هذين الفصلين بحجة أنها لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث . ولكن زكى مبارك أصر على ابقاء الفصلين بحجه انهما العماد الذى تنهض عليه نظريته فى نشأة النثر الفنى .

وكما قلنا من قبل ، يقول زكى مبارك عن أثر ذلك « وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره . فمضى يعاديني عداء خفيا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه » .

وهكذا تكشف لنا هذه الحادثة جانبا من شخصية زكى مبارك وتفرده فى مجال علمائنا الذين سافروا الى أوربا وغير أوربا ليحصلوا على اجازات

علمية . ثما سمعنا أن واحدا منهم خاصم أساتذته على هذا النحو ، وأصر على آرائه ورفض آراء الممتحنين .

وقد كشف زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » عن أشياء كثيرة. وعارض فيه آراء المستشرقين . ومن ذلك ان أساتذة الادب العربى فى الشرق والغرب كانوا يعتقدون أن رسالة الغفران هى « أول مسلاة فى اللغة العربية » .

ويظنون ان ابن شـــهيد حاكاه حين ألف « التوابع والزوابع » . فأثبت مبارك أن رسالة ابن شهيد ألفت قبل رسالة المعرى . وان المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد .

ولكن « زكى مبارك » بالغ بعد ذلك فى تقدير كتابه هذا . فقـــال عنه « ستبيد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب « النثر الفنى » فقـــد بادت المدرسة النظامية . وبقيت مؤلفات الغزالى . لأن الفكر صورة من صور والله حى لايموت » .

وكما ذكرنا من قبل ، يقول : « ما ذكرت كتاب « النثر الفنى » الا شعرت بنيران تتأجج فى عروقى » . ويعد كتاب « عبقرية الشريف الرضى» من أجود آثار زكى مبارك فى الأدب العربى . وهو يقف به فى صـــف العقاد بابن الرومى ، وطه حسين بالمعرى .
وقد أشار زكى مبارك الى أنه أعجب بالشريف منذ عهـــد طويل منذ عام ١٩٣٢ . فلما ذهب الى بغداد (١٩٣٨) ابتدأ به على غير موعد . فقد رأى نفسه فجأة بين دجلة والفـــرات ، فتذكرت أنه قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر ، الذى تعصب له منذ أعوام طوال . ويقول انالتشابه بينه وبين الشريف عظيم للغاية : « ولو خرج من قبره لعانقنى معانقـــة الشقيق للشقيق . فقد عانى فى حيـــاته ما عانيت فى حياتى . وكافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمنه . وكافحت فى سبيل المجـــد ما كافحت وجهلنى قومى وزمانى » .

وقد أشـــار الى أن الأدباء فى مصر كانوا يختلفون حول البحترى.

والمتنبي . وكان وحده يقدم الشريف الرضي على هؤلاء الشعراء . ويؤكد زكي مبارك أنه قال للعقاد يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي ان الشريف الرضي كان احق بمجهوده . وانه نبه « طه حسين » بالاهتمام بدراسة شعر الشريف . وأنه فكر في انصاف الشريف الرضي يوم رأى « أنيس المقدسي » في كتابه عن أمراء الشعر في العصر العباسي يهتم بأبي العتاهية ، وينسى الشريف : « مع أن ديوان أبي العتاهية » لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف » . وعنده أن الشريف الرضي شاعر ثائر يوالي تحطيم قيود الذل والاستعباد . ونواحي الرجولة قد اكتملت فيه كل الاكتمال . فهو رجل له صبوات وآمال . وهو عاشق وفارس ومؤمن وزعيم . ويجمع بين المداراة والحلاوة والعنف والرفق . وعنده أن الشريف في بابه أشعر من المتنبي . وأن الشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء . لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الاجيال ويقول : « سيذكر أدباء بغداد أنني أحببت شاعرا هو من ثروة العروبة وثروة العراق »

وقد صور منهجه في دراسة الشريف ، فقال : انه لم يقف منه موقف الأستاذ من التلميذ ـ كما يفعل المتحذلقون ـ وانما وقف منه موقف الصديق من الصديق . وعنده أن من الوفاء للبحث ان يساير الشاعر الذي يعرض عقله وروحه . وما أبعد الفرق بين رأي زكي مبارك في الشريف ، ورأيه في المعري ، فهو يرى المعري قد زهد في أكل لحم الطير والحيوان . ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم : لحم الانسان (فما ترك فئة ولا جماعة الا انتهش لحمها بأنياب حداد) . ويقول : لو استباحت لحم المعري كما استباح لحوم الناس ، لقلت ان ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الاثيم . فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونه بالمروق في حق الدين فشاء له هواه أن يسجل مخازيهم ومآثمهم ، ويفضحهم في العالمين وقد أشار زكي مبارك الى جهوده في ميدان الأدب العربي . فقال :

« رأيت اللغة العربية تتشوف الى من يحدد مقاصد النقد الأدبي . فألفت كتاب « الموازنة بين الشعراء » . وقد طبع مرتين . ورأيت لغة العرب تنتظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب « زهر الآداب » .

ونشرت « الرسالة العذراء » مصحوبة بدراسات وتحقيقات . وراعنى أن يجهل الناس بعض مصادر التشريع الاسلامى . فنشرت رسالة فى تحقيق نسب كتاب الأم » .

وآراء مبارك فى الأدب العربى تتلخص فى ايمانه بالأدب العربى ، وأنه يكفى لتكوين الاديب (١) ، ويرى أن الدراسات الادبية فى الصحف السياسية لم تكن لوجه الله ، ولكن للاستئثار بالقراء . كما يعتقد أن الأدباء المتخرجين فى الجامعة غير الأدباء المتخرجين فى الازهر ودار العلوم . ومما يرويه أنه فى الصراع على لقب أمير الشعب واعلان طه حسين اهداءه إلى العقاد ، ثار محمد الهراوى ، ومحمد الاسمر ، وأهديا اللقب الى (البرنس) ، وهو نساخ فى دار الكتب ، له منظومات فى التهانى بالأفراح والليالى الملاح . ومما ذكره أن « شوقى » أعطاه ثلاثين جنيهـا ليستعين بها على طبع كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ولولا هذه المنحة لعجز عن اخراج الكتاب ـ والمازنى فى رأيه أكبر كتاب اللغة العربية فى العصر الحديث : وله فى نفسه أعظم مكان . وقد أورد أن « معروف الرصافى» قال له ان أسلوب المازنى أشبه بشراب التوت .

وقد سجل نقاد زكى مبارك انه من أول الداعين الى تكوين شخصية للأدب العربى الذى يبدو ضعيفا ضئيلا بجانب الدوى الهائل الذى تدفعنا به الآداب الغربية فى كل يوم .

ولقد سجل زكى مبارك رأيه فى الأدب الذى يكتبه كتاب عصره حين قال :

« لا عبرة بهذه الثرثرة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح . فهى على وفرتها تكرير وترديد لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان . وليس لها شخصية ولا ذاتية تحدث القراء عن حياة أولئك الكتاب »

---

(١) اشترك فى مناقشة فى الجامعة كان فيها مع خليل مطران على الراى بأن الأدب العربى يكفى لتكوين الأديب .

زكي مبارك والتصوف

كتب (زكي مبارك) عن التصوف مرتين : المرة الأولى عام ١٩٢٤ عندما أصدر رسالته « الأخلاق عند الغزالى » والمرة الثانية عندما أصدر رسالته (التصوف الاسلامى) ١٩٣٧ – أى بعد ثلاثة عشر عاما . وفى المرة الثانية تغير رأى زكي مبارك عما كان من قبل – ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه . فقد هاجم مبارك الامام الغزالى فى رسالته الأولى . ولكنه عاد فاعتذر اليه فى رسالته الثانية ، كما نوهنا عن ذلك من قبل . ولكن لزكي مبارك قصة مع الصوفية تسبق ذلك بأمد طويل ، وترجع الى عام ١٩١٢ ، وعندما كان طالبا فى الأزهر . ولعل هذه الصلة التى بدأها فى ذلك الوقت هى مصدر حملته على التصوف ، عندما جاء الوقت الذى يختار فيه الغزالى ، ليجعله موضوع بحثه الذى تقدم به للحصول على اجازة الدكتوراه . وقد ذكرنا من قبل أنه قال : « فى ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة الصوفية وألح بى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الازهر الشريف كان يومئذ من كبار الصوفية . فأخذت عنه العهد . وبدأت أقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية . وكان فى صوتى من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقدمين فى الانشاد وفى ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق . فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء . وكان لى فى سنتريس وغير سنتريس مريدون وأتباع . وأذكر أننى كنت أحسبنى يومئذ من الموفقين .

وفى ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع . فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وتأملت فرأيت السبب تافها كل التفاهة ، فقد غاظه أن أتكلم فى حضرته .. وقد وضعت رجلا على رجل وهى جلسة تدل فيما يعنى على تعاظم وكبرياء . وحاسبت نفسى . فرأيت أنى لم أفعل ذلك عن عمد . ثم خطر بالبال أن الصوفيةايمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من الملهمين لما آخذونى على هفوة شكلية لم يكن لى

في وقوعها قصد ، ولم تسبقها نية سوء وانتهى الحديث بالقطيعةومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ما عانيت وحاولت أن أصلح ما بينى وبين الشـــيخ ، ولكنى لم افلح فى جذب نفسى اليه ، فقد اقتنعت بأن بعض الصوفية ارباب ظواهر ، وان ادعوا أنهم أرباب قلوب • وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالى) الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية فى ١٩٢٤ وهو كتاب تجنيت فيه على التصوف (لم أر كاتبا حتى الآن رجع عن رأى خطأ قديم غير زكى مبارك) • وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستى لما أقمته عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت تريني أنى تحاملت على الغزالى وتعجلت الحكم على آرائه فى سياسة النفس : فقد كان يدعو الى النفرة من الناس ، وكنتأرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية ، ثم تكشفت بعض الحقائق ، فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس •

وكذلك عدت أستروح بذكرىالتصوف وأضمرله الشوق والحنين،

ولكن هل مر هجوم زكى مبارك على الغزالى بدون ضجة وبدون أن يثير معارك ؟ أبدا : لقد فتح كتابه البـاب أمام الأزهـريين ليهـاجموه ويتهموه فى دينه • وكما ذكرنا من قبل ، ان المرحوم : محمد جاد المولى أحد الممتحنين له فى رسالة الأخلاق عند الغزالى • قل : « لما أطلعت عـلى رسالته رأيت فيها ما صدق ظنى فيه : رأيته يهجم على حجـة الاسـلام الغزالى ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد فى حسابه لأعجم عوده وأسبر غوره • فلما أخذت فى محاسبته على ما صـــنع فى نقد الغزالى ، تكشفت جوانب أثارت الشيخاللبان ، فتدخل ، وتدخلمعه جماعة من جلة العلماء ، وكان الجمهـــور يموج من الغيظ ، ولولا حكمة رئيس اللجنة يومئذ ، وهو الدكتور منصور فهمى ، لاضطرب النظام ، وانفرط عقـــد الامتحان

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هــذا الحد • ولكنى تبينت مع الأسف أن هجومى على الدكتور مبارك كانت له عواقب ، فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهــم

الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ أحمد مكى وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكى مبارك قد قضى حياته فى المصاولة والمجادلة ، لما استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب » • ولكن أحمد جاد المولى الذى امتحن (زكى مبارك) سنة ١٩٢٤ فى رسالة الدكتوراه « الاخلاق عند الغزالى » هو الذى امتحنه سنة ١٩٣٧ ــ وبعد ١٣ عاما ، فى رسالة الدكتوراه (التصوف الاسلامى) فهل تغير زكى مبارك بعد هذه السنين ؟ نعم :

يقول « رأيت طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٣٧ : كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلطف ــ ولا أقول بلا تأدب أما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب والذوق • وكان مثالا من أمثلة التواضع والاستحياء • يسمع السؤال بهدوء ويجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس • فماذا صنعت الثلاثة عشر عاما بالدكتور زكى مبارك ؟ لقد تغير تغيرا تاما • وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع • وكذلك يصنع العلم بأبنائه الاوفياء • فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء » .

ويرى جاد المولى « أن زكى مبارك » نموذج فريد من العلماء « فهو حينا يصاول فى الدقائق الفقهية كما صنع حين حقق نسب كتاب « الأم » فنضيفه الى الفقهاء • وحينما يجادل فى المعضلات النحوية فنضيفه الى النحويين • وينظر الى كتاب « النثر الفنى » فتحسبه رجلا يحسن غير النقد (الأدبى) • وتقرأ رسائله الغرامية فيخيل اليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاغتباق ، يهوى الغيد الرعابيب • وتنظر الى رسالة اللغة والدين والتقاليد فتعده من كبار المصلحين • وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين • وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين • ونسمع أخباره فى الاندية والمجالس وأحاديث رحلاته وانتقاله من العمامة الى الطربوش ثم الى القبعة والسدارة فتعتقد أنه من المولعين بدراسة أخلاق الأمم والشعوب » •

أشار زكى مبارك الى أن كتابه (الأخلاق عن الغزالى) كانت له آثار

بعيدة المدى فقد رفض جماعة من علماء العراق مصافحته بحجة أنه آذى الغزالى .

وأشار زكى مبارك فى بحث له عنه نشرته الرسالة (٣ من نوفمبر ١٩٤١) بأنه ألفه فى أوقات كان فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق (وهى ثورة لم أنج من شرها الى اليوم .. وقد أسايرها وتسايرنى الى آخر أيامى . وكيف يهدأ من يروعه أن يرى رجال الدين يعرفون خريطة الحياة فى الآخرة ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية . ان كتاب الاخلاق عند الغزالى لم يكن الا دعوة صريحة الى التشكيك فى أصول الاخلاق الموروثة عند القدماء . » .

ويرى زكى مبارك فى كتابه أن الفضائل سلبية وايجابية . ويقرر « ان الغزالى وجه اهتمامه الى الفضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل الايجابية مثل الشجاعة والاقدام والمرض وما الى ذلك ، فانه لا يكفى أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فان الضعف شر كله » .

وقال « ان أسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيب » . وقال : — ان الغزالى أسره على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، غير أنه عمد الى كسر باب الأسر ليلقى الغزالى لقاء الند للند (ان كان للغزالى أنداد) »

وقد اهتم برسالة الأخلاق عند الغزالى الدكتور «سنوك هو جرنيه» حيث كتب عنها باللغة الهولندية بحثا نوه فيه عن المؤلف . رجع مبارك عن آرائه فى الغزالى وأعلن اعتذاره فى كتاب التصوف الاسلامى فى مقال كتبه فى الرسالة (٢٩ من يوليو ١٩٤٠) عما سلف من نقد له قال تحت عنوان : « اليك أعتذر أيها الغزالى » .

« فى سنة ١٩٢٢ : كنت أقضى أكثر الوقت فى تحرير كتاب (الأخلاق عند الغزالى) وكان ذلك فى أعقاب أعوام شداد واجهت بها نار الثورة

المصرية وأكتوت يدى بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية . فأثر ذلك فى عقـــلى وتفكيرى الى أبعـــد الحدود . وحملنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين .

ثم مرت أعوام راضتنى فيها الدهر بعد الجموح . فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وأنه كان من الحكماء .

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟

وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة ساس يسوس ؟ دلونى على رجل واحـــد غمس يده فى الســـياسة ثم سلم من الأقاويل والأراجيف » .

• كما سجل زكى مبارك أن الدكتور (طه حســـين) اعتذر عن رياسة اللجنة التى أدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية عن (التصوف الاسلامى) بحجة انه رجل « غير مصقول » على حد تعبير زكى مبارك وأنه « قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة العلنية فيحرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور .

• والسؤال بعد ذلك : هل حقا ان « زكى مبارك » قد تأثر بدراساته عن الصوفية ؟ . لقد اعتبر أن التصوف لا يقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتوبة الى الله ، والتجرد من شهوات الدنيا . وانما هو كل افراغ للقوى الروحية والعقلية فى فكرة ساميه . وقد اعتبر هذا من زكى مبارك - فى تقدير الباحثين جرأة له ومخالفة للعقيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان دينى . ولا شك أن « زكى مبارك » قرأ فى سبيل اعداد بحثه الخطير عن التصوف الذى بلغ أكثر من تسعمائة صفحة من القطع الكبير - عددا ضخما من المؤلفات ، ودرس مذاهب دعاة الحب الالهى ، ووحدة الوجود ، وابن عطاء الجيلانى .

وهو يرى أن الصـوفية ابتدءوا حياتهم بالحب (الجنسى) ثم ترقوا الى الحب الروحى . وعنده أن الانتقال من حب الجمال الى التصـــوف

معقول ، ولا سيما في حالة الحرمان من المحبوب ، وعندى أن « زكي مبارك » بعد أن توغل في دراسة التصوف بدأ يحلي أدبه بعبارات منها اتجاه واضح الى الله ... فهو يقول مثلا

« ما كنت أملك غير ايماني بالله ، وهو السر في عقيدة التصوف التي أقمت عليها بناء حياتي » .

ويقول كل شيء يسبح بحمدك يا واجب الوجود ، وأمر الخلائق كله اليك ، أنا عشقتك بالروح والقلب والوجدان » .

ولكنه بلغ في اتجاهه هذا الى حد بعيد فقد بدأ أنه تحرز من كل القيود في حديثه الى الله سبحانه وتعالى ، كقوله مثلا .

« سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني » . أو يقول « ماذا أعددت لي من تكريم وقد سبحت بك فوق « أفنان الجمال ؟ » ويقول « الدنيا لوحة فنية صاغها بديع السموات والأرض بما فيها من حسن ، فهو صنع (فنان) وما فيها من قبح فهو صنع (فنان) . فأنا أدرس المحاسن والمساوى بذوق واحد ، وقد أتفلسف فأزعم ان خلق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم ، وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم ، فقد سواهم بعناية ولعل مرجع هذا الانحراف الذي أصاب « زكي مبارك » هو ايمانه بنظرية وحدة الوجود ، وهي نظرية أقل ما يقال فيها انها تنفي نظرية الجزاء التي هي جزء من شرائع الاديان ، وهي بذلك تبيح للانسان كل تصرف دون عقوبة .

كما يظهر هنا تناقض زكي مبارك ، ففي الوقت الذي يكتب فيه عن التصوف الاسلامي ويقول انه يقيم قاعدة حياته على أساسه تراه يؤمن بمذهب الكشف والتعرية والصراحة في الكتابة عن النفس والغرائز .

ولعل نظرية وحدة الوجود أيضا هي التي دفعته في هذا الاتجاه فقوضت في نظره عقيدة المسئولية ، وقد كان لهذه النظرية آثار مريرة فقد هوجم بها في أيامه الأخيرة ... ولكن زكي مبارك ما يكاد يذهب الى بغداد ويقيم فيها عامه (١٩٣٨) حتى يكتب في يومياته (ليلى المريضة) ... يقول :

« لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع . هل أحسنت هل أسأت ؟ لا أعرف بالضبط . ولكن قلبي يحدثني بأني كنت من المسرفين ، أتوهم حينا أنني أخدم لغتي بهذه الأحاديث ، وأعتقد أحيانا أنني أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث .

أحب أن أعرف نفسي ، فهل أستطيع أن أعرف نفسي : هيهات هيهات لو كنت رجلا فاسقا لعرفت الحدود وانتهيت .

ولكني رجل عفيف . وهنا تظهر دقة الاشكال . ومن الذي يصدق أنني رجل عفيف ، وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات»

فن جديد في الكتابة

(بقلم الشيخ بهنسى عريان نوسى)

بدأ زكي مبارك حياته شاعرا . ثم تفتحت آفاقه في الأزهر . فاتصل بالجامعة المصرية واتجه الى التعمق في دراسة الأدب العربي وأعد رسالته عن (النثر الفني) وأوغل في هذه الدراسات . ثم التفت الى الأدب الصوفي . فألف عنه رسالته الضخمة المعروفة .

هنالك بدأ يشعر بأنه في حاجة الى عمل جديد مثير . فما هذا العمل ؟ . اعتقد أنه اتجه الى أكثر من عمل . اتجه الى الكتابة عن الحب والوجدانيات على أساس أنها دراسة للنفس الانسانية كما فعل في (ليلى المريضة) . واتجه الى كتابة الاحاديث التي تدور في الأسمار ، يضمنها آراءه وآراء غيره من الكتاب ـ كما فعل في كتابه (الأسماء والأحاديث)

ثم اتجه الى خلق شخصيات خيالية يصور بها نماذج من الناس ، كشخصية أبجد أفندي التي كان يرسم بها صورة غريبة لبعض الموظفين . وربما كان يقصد بها الى رسم صورة انسان بالذات .

غير أن من أبرز الاعمال التي ابتدعها هو كتابته عن آدم وحواء . وقد نشر بعض هذه الفصول في الرسالة ، بدأها في يناير ١٩٤٢ . بمقالات

توالت وتعددت أسبوعيا حتى مايو ١٩٤٢ (وقد بلغت أكثر من ١٦ مقالا) وقد جعل موضوعاتها (١) محاكمة آدم وحواء في جلسة سرية في ساحة العدل ، حديث السدرة ، بين الورق والدوح ، تحت شجرة التين ، قبل أن تثور العواصف فوق أثباج الكوثر . اجتماع الملائكة في مسجد الفردوس . وهكذا ... وهو نوع من الفنون التى حرص زكي مبارك على أن يغرب فيها ويتناول مسائل مثيرة وشائكة .

وقد بدأ هذا البحث تحت عنوان « بين الورق والدوح : رسالة مهداه الى مسيو دى كومينين » : استهلها بعبارات تحدث فيها عن شهر عدوان الخريف على آثار الربيع .. أول مرة فى باريس . وكيف كانت قدماه تخبان في أوراق الاشجار وهو يخترق حديقة لكسمبور . ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المنظر الجميل. وقد اعانة على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسى ، الذى يحوى آلافا من صور العدوان البغيض : عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء .

ثم يروى كيف أنه جلس في يوم عاصف تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن الى تساقط الورق : « فوعيت من جواره أحاديث لن أنساها ما حييت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبى وأطلعتنى على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق » .

ثم أجرى الحوار بين الورق والدوح عن الطوفان والسفينة ..

وفى الختام قال : فالله وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح . وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذى يعلم كيف أفر من التصريح الى التلميح لينجو الورق من الافتضاح (٢)

ثم لم يلبث بعد قليل أن عاود الموضوع بصورة أخرى . فروى

---

(١) الرسالة
١٦ من مارس ١٩٤٢
٢٣ من مارس ١٩٤٢
٣٠ من مارس ١٩٤٢
١٣ من ابريل ١٩٤٢
٤ من مايو ١٩٤٢
٢٣ من فبراير ١٩٤٥

(٢) الرسالة — ١٩ من يناير ١٩٤٢

قصة مخترعة خيالية عن كتاب أهداه اليه المرحوم أحمد زكي (باشـا) السكرتير العام لمجلس الوزراء سابقا وشيخ العروبة ، بعد أن وقع الخلاف بينهما ، ثم انتهى الى الصلح . ويقول فيما يقول . ان « زكي باشا » طرب حين رآه يقرأ الخط الكوفي بلا عنـــاء ... ويرد على ذلك بقوله كيف تكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسكريتي . وهذه هي الصورة التي كتبها تحت عنوان بين آدم وحواء (١) .

كثر الكلام في هذه الايام عما كان بين آدم وحـــواء لعهد الجنة وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم . فأقحم خياله الروائي في شئون فصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال . ولم يبق موجب لذلك التورط بعد حكم التاريخ . فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزويد عليه لا يجوز ، وان احتال فزعم انه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائي ان يخلق من الصور مثل ما ســـجل المؤرخ « شيث ابن عربانوس » طيب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة ١٩٣٣ . وانما هداني اليه أستاذنا المرحوم أحمد زكي باشا بعد ان انتهى ماكان بيني وبينه من خصومة وصيال فاذا سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدونهـــا في سطور ، ثم أمضي الى ترجمة شيث بن عربانوس بايجاز تمهيـــدا لشرح آرائه في آدم وحواء باطناب .

.. كانت وزارة المعارف قررت اقامة حفلة تأبين للشاعر أحمـــد شوقي ... بكلية التجارة . فهالني أن أسمع خطيبا تنحنح بعنف ،مع أني لم أكن اجتزت عتبة الكلية . فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح على الرغم من تلك الابعاد الطوال . وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها (ميكروفون) وأقيم لذلك (الميكروفون) مسامع في جميع الأركان ..

---

(١) بين آدم وحواء : الرسالة ٢٣ من فبراير ١٩٤٢

ونظرت فاذا الخطيب أحمد ذكي باشا . فكيف غاب عنه وهو عالم علامة أن الميكروفان سينقل الى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء ؟ أما كان في مقدورة أن يدين وجهه أو يدير المكيروفون قبل أن يقترب بلك الصوت .

اضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه . فأخذت أترصد له غلطة أدبية او تاريخية لاهجم عليه في جريدة البلاغ ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاما غير صحيح ، وهو يتكلم عن روح الرسول في نهج البردة . وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب « المدائح النبوية » فوجدت عندى من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لافحامه بلا عناء .

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتي اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق . وكان رحمه الله آية في الكر والفر . وكان لا يهجم على باحث الا تركه كالرفات بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج

وكانت حوادث فلسطين وصلت الى آلام وجراح . فأرسل زكى باشا الى الحاج أمين الحسيني برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيها . وكان ينتظر أن يصل الى جواب رقيق . ولكنه لم يتلق أي رد من الحاج أمين الحسيني . فكتب اليه يسأل عن سر ذلك السكون فكان الجواب أن البرقية وصلت ، ولكنها لم تكن بامضاء زكي (باشا) وانما بامضاء زكي مبارك .

وامتشق زكي (باشا) قلمه وأنشأ مقالا أخذ أربعة أنهر من جريدة الاهرام . وكان في مقاله أن عامل التلغراف حرف الامضاء . فان كان في مصر ، فالى الليمان وان كان في فلسطين ، فالى البحر الميت . وأعلن زكى (باشا) أن التحريف مقصود . وكانت حجته أن « زكي باشا » قد تحرف الى زكي الابراشي ، بسبب الشين ، ولكنها لاتحرف الى زكي مبارك .

وامتشقت قلمى فكتبت ردا وجيزا ، نشرته الأهرام في أول نهر من الصحيفة الأولى . وكان الرد يتلخص في أن « زكي باشا » هو نفسه الذى أمضى باسم زكي مبارك وحجتي أن (الباشا) مشغول بما نشر على صفحات البلاغ . فأنا ملء قلبه . ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمي . ورأى زكي (باشا) أن التعليل مقبول . فذهب الى ادارة التلغراف وطلب

أصل البرقية ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم (زكي مبارك) ، وبخــــط (الباشا) الظريف . فلم يــكن بد من أن يدرك زكي باشا أن الأقدار (أرادت) أن تطوقه بالخطأ . ليكف عن أذاه فاتصل بي تليفونيا ليدعوني إلى العشاء وامضاء عقد الصلح فأجبت بالقبول ..

وقال لي شيخ العروبة : الجائزة العظمى لمن كان في مثل أدبك أن تهدى اليك النسخة الوحيدة من كتاب (شيث بن عربانوس) ومضى (الباشا) لاحضار الهدية . ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي . وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات ثم يقول : « أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق ، ثم لحظت أن منزلي عظمت في قلب زكي (باشا) عندما رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء فكيف تــكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسكريتي » .

ثم يقول : « عرضته على دار الكتب وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد أحدا يعترف بقيمته التاريخية، وان كان مكتوبا بالخط الكوفي . وهل كنت أجهل أن الطعن في صحته من الممكنات ؟ انما كان همي أن أنتفع بثمنه . وأن أمكن الجمهور من الاطلاع عـــلى مافيه من مقاصد أو أغراض . ولكن الامل في الانتفاع بثمنه أمسى خيــالا في خيال » .

ثم يقول انه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ في ذلك يسجل أنه غير مطمئن الى أنه ألف في العصر الذى تلا الطوفان . ويضيف الى ذلك أن المصادر التى تحت يده لم تتحدث عن شيث بن عربانوس . ولم نسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين فأين وجــد زكي (باشا) ذلك الكتاب ؟ ..

ويقول انه كان في النية أن يوجه اليه هذا السؤال ، لولا أن المنية عاجلت المرحوم (أحمد زكي باشا) لتطول الحيرة في مصدر ذلك السفر الغريب ، ومعنى هذا أن (زكي مبارك) استغل قصة كتاب خيالي مكتوب

باللغة الذوقية ليحقق غرضاً معيناً (١) وأعتقد ان القصة مخترعة من أولها الى آخرها ، وانه اراد ان يرسم صورة آدم وحواء ، ولكنه خشى أن يتهم فيها بالاغراق او المبالغة أو الانحراف فنسبها الى شيث بن عربانوس وروى هذه القصة الطويلة عن خلافه مع زكي (باشا) وصلحه ليبرر نشر تلك الفصول .

ولعل هذا الفصل يعطى صورة لجانب من جوانب شخصية مبارك تضاف الى الجوانب الاخرى لترسم فى النهاية صورته الكاملة .

خصومات مبارك ومعاركه الأدبية

قالوا ان « زكي مبارك » عنيف النقد قوى العارضة ، وقالــــوا انه مشاغب بطبعه وانه غير مصقول ، وقال طه حسين عنه : « حاد الشباب عنيفه » وقالوا أنه ناقد مخيف حتى ليكاد قارئه يلمح الشراسة فى هجومه على خصومه ويشفق بهم من هول وطأته .

ولا شك أن « زكي مبارك » ناقد عنيد لا يهاجم كاتبا الا بعــد أن يدرس مقاتله ، ولكنى لا أعتقد فى الجملة أن قوة زكي مبارك هى فى قوة منطقه وسلاسة معارضته وانما هى فى ذلك العنف الذى يصبه كالحمم على أساس عاطفى بحت .

ولقد تثير هذه المعارك وتهز وتفعل فعل القنابل : تحدث الدوى وتثير الدخان وكلها ليست أقوى فى نظرى من المساجلات العميقة التى يمكن أن تقوم على البحث الهادىء والمنطق العميق والمعارضة الذهنية .

ولذلك فان أكبر مساجلات زكي مبارك كانت من جانب واحد ، فقد تماما فيها الطرف الآخر ووقف منها موقف الصمت ، ولقــد كانت

---

(١) مما كتبه زكي مبارك هذه العبارة : كان الرأى أن أقصر جهودى على اللغات الميتة وهى لغات يدعيها من يشاء كيف شاء بـلا رقيب ولا حسيب .

مساجلاته مع طه حسين ومع أحمد أمين هي أضخم مساجلاته وقد اعتبر صمت معارضيه عنه نصرا له . غير أن الدكتور « زكي مبارك » بدأ يفقد خاصيته هذه بعد قليل . فقد انهزم في معركة النقد الأدبي مع السباعي بيومي عام ١٩٤١ . أما مساجلات عام ١٩٤٤ . وما بعدها (تلك التي آثارها محمد الغمراوي ودريني خشبه « حول النثر الفني والتصوف الاسلامي » فان « زكي مبارك » لم يدخلها . ولم يجد في نفسه الجرأة لخلع ثيابه ولبس ثياب مصارعة الثيران التي كان يرتديها دائما في الفترة الوسطى من حياته (١٩٣١ - ١٩٤٠) .

ولقد أحس بعد عودته من العراق بأنه لم يعد في قوته أو كفايته الأولى . فأخذ يردد قصة بطولاته في النقد :

« متى تعود أيامي فأناضل كما كنت أناضل في الجرائد والمجلات؟»

متى يكون لي خصوم كالذين كانوا في الأيام الخاليات ؟

متى يكون لي خصوم أصاولهم وأنتصر عليهم من أمثال طه حسين ، وابراهيم المازني ، وعلي الجارم ، ومصطفى الرافعي ، وأحمد زكي (باشا) ومحمد لطفي جمعة ، وعبد الله عفيفي ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد فريد وجدي ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد خالد ، وأحمد أمين ، ومن اليهم من أقطاب الرجال ؟

أفي الحق أني صرت كالبعبع الذي يخوفون به الأطفال .

لقد أصبحت أعاني الوحشة والغربة في وطني بسبب التهمة الشنيعة: تهمة الشره الى أكل لحوم الناقدين .

.. يعز علي ، أن تغلق في وجهي ميادين كثيرة بسبب ماشاع وذاع من غرامي بالمشاغبات . يعز علي أن تنسوا أن مشاغباتي انقطعت عن الحياة الأدبية بضع سنين » .

ويروى كيف أنه خوفا من مشاغباته اعتذر الدكتور طه حسين عن رياسة اللجنة التي أدى أمامها امتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية

(بحجة أنى رجل غير مصقول) وأننى قد أخرج على قواعد الذوق فى المناقشة العلنية فأحرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور » .

بدأ زكى مبارك معاركه بعد مناقشة رسالته (الأخلاق عن الغزالى) عام ١٩٢٤ ولكن الفترة التى تلت ذلك حتى سافر الى باريس لم تكن الا فترة استعداد لم ينشر خلالها الا بضع مقالات متفرقة فى البلاغ الأسبوعى ..

أما مقالاته فى باريس خلال فترة اقامته فلم تكن فى الأغلب الا فصولا من كتابه النثر الفنى ، وبعض خواطر ومشاعر وصور عن الحياة فى باريس . ولكنه ماكاد يعود من باريس حتى كان قد أعد حملة ضخمة تعتبر استعدادا لمعركة طويلة من النقد الأدبى ، امتدت سنوات وسنوات ..

فكتب مقالا فى البلاغ فى ٢٤ من يوليه ١٩٣١ :

« قلمى بين الصدأ والصقال »

« ان قول الحق لم يدع لى صديقا » أكثم بن صيفى .

« الغرض الذى أرمى اليه هو تكوين جيل جديد يعتز بالآداب العربية كما يعتز الفرنسيون والانجليز والألمان بالآداب الفرنسية والانجليزية والألمانية . فقد جنت تلك الدراسات الضعيفة غير المأمونة أشنع جناية على اللغة العربية وانصرف شبابنا الى اللغات الاجنبية يستوحونها فى كل مايحس القلب والعقل والروح . وسيرى شبابنا بعد الدرس أن لنا أدبا يشرفنا بين العالمين . وأن لنا أسلافا جديرين بالاعزاز والتمجيد .

« سأروع بعض الأمنين من رجال الأزهر والجامعة المصرية ووزارة المعارف . ففى تلك الديار ناس يأكلون العيش باسم العلم والأدب ثم لايقدمون ولا يؤخرون فى دنيا ولا دين .

لقد قامت ثورتان فى مصر لكتابين اثنين : أولهما « كتاب الاسلام وأصول الحكم » للاستاذ على عبد الرازق . وثانيهما « كتاب الشعر

الجاهلى » للدكتور طه حسين • وقد تبين بعد هذا الهياج واللجاج ان الكتاب الاول اوجد ما اوجد من الثورة لان مؤلفه كان يعـارض بعض الهيئات • وأن الكتاب الثانى أثار ما أثار من الشر لأن مؤلفه أسـاء التعبير ، وهو يتحدث عن التوراة والقرآن • لقد صدر كتاب الاسـلام وأصول الحكم منذ سبعة أعوام فهل عقب عليه مؤلفه بشىء جديد ؟ كلا •

وكتاب الشعر الجاهلى صدر منذ ستة أعوام فهل شفعه المـؤلف بكتاب طريف ؟ كلا • ان الاستاذ « على عبد الرازق » قوة فعالة ولكنه انهزم للصدمة الاولى • فلاذ بالسكوت • والدكتور طه حسين قوة من قوى الذكاء والانتاج ، ولكنه تحول الى رجل حذر ، تقوم الدنيا وتقعد ، فلا يتحـرك ولا يثور » •

ويعلق زكى مبارك على أن النقد قد حمله متـاعب كثيرة فى رزقه وحياته فيقول : « الناقد الصريح فى مصر يتعرض رزقه ومعاشه لضروب من الزعزعة والاضطهاد وقد يتعرض مسلكه فى الحياة الى سفاهة القيـل والقال • وفى مصر عبارة مألوفة حين تظهر مقالة نقدية : وهى « ما الذى بين فلان وفلان ؟ » ومعنى ذلك أن الناقد لايتعرض لمؤلف الا كان فى صورة غرض خاص •

أضخم معركة خاضها زكى مبارك

المعركة مع طه حسين

تعد معركة زكى مبارك مع طه حسين أضخم معركة خاضها مبـارك فى حياته الأدبية • فهى معركة ممتدة تبدأ جذورها منذ قصد مبـارك الى باريس وحمل على آراء طه حسين فى رسالته (النثر الفنى) • فلمـا عاد أنكر طه حسين كتاب « النثر الفنى » ولما سئل عنه : وهو المجلد الضخم الذى يقع فى أكثر من ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير والذى أنفق زكى مبارك فى اعداده سنوات •• قال طه حسين : « كتاب من الكتب ألفـه

فاسب من الذئاب » • هنالك انفتح باب النقد على مصراعيه • فقد مضى زكى مبارك يساجل طه حسين ويصاوله، دون أن يدخل طه حسين بالسجال وقد استمرت المعركة ، سنوات ، وسنوات • وقد استطعت ان اجمع فصولا منها ، تكاد ترسم صورة كاملة لها • وهى تبدأ من ١١ من نوفمبر ١٩٣٢ الى أول ديسمبر ١٩٤١ ـ وهى فترة لاتقل عن عشر سنوات • فى خلال ذلك حدثت مضاعفات ، فقد عد مبارك الى منصبه فى الجامعة سنة ١٩٣٣ ابان الفترة التى كان طه حسين فيها خارج الجامعة • فلما عاد طه حسين ١٩٣٤ رفض تجديد عقد مبارك ، فأثار زكى مبارك • وكتب مقاله : « طه حسين : بين النعى والعقوق » • وقال كلمته المعروفة : « لو جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه » •

فلما أخرج زكى مبارك من الجامعة اهتز لذلك أقرب الناس صداقة لطه حسين • وفى مقدمتهم المازنى •• هنالك دخلت المعركة فى أقسى صورها • فقد بدأ زكى مبارك مجموعة مقالات فى « الصباح » ابتداء من العدد ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ •

واستمرت تحت عنان « مثل من جهل طه حسين » (١٣ من سبتمبر ١٩٣٥) «المثل الثانى من جهل طه» •• (٢٠ من سبتمبر ١٩٣٥) « المثال الثالث » •• (٤ من اكتوبر ١٩٣٥) « المثال الرابع » (١١ من اكتوبر ١٩٣٥) « المثال الخامس » •• (٢٥ من اكتوبر ١٩٣٥) •• «لو جاع أولادى» •• (١٧ من يناير ١٩٣٦) •

ولقد حاولت أن أصور المعركة بنزاهة • ولكنى لم أنشر كل مالدى من وثائق وقد سجل طه حسين عن زكى مبارك عبارته المعروفة (الرجل الذى لا يخطو الى كلمة الا احتال على رأسه عفريت) فكيف استقبل مبارك هذه العبارة ؟ قال :

« الرجل الذى لايخلو الى قلمه الا احتال على رأسه عفريت : تلك كلمتك وأنا عنها راض وبها مختال • فما العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو الى قلمى ؟

أيكون هو الحق الذى سماه الفرنسيون Génie • ان كان ذلك فانت تشهد لى بالعبقرية ، والقول ماقال طه حسين • وهل تكون العبقرية الا من نصيب من يخاصم رجلا مثلك فى سبيل الحق ؟ وما المنفعة التى آرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع ؟ » •

وقد تعددت مناوشات زكى مبارك عن طه حسين ، حتى ليوشك أن يرى الناقد أنه قد شغل نفسه شغلا جما بهذا الكاتب ، الذى كان مثله الأعلى فى مستهل حياته ، والذى حرص أن يسبقه بالحصول على عدد أكبر من شهادات الدكتوراه : ومن ذلك عباراته المتعددة : يقول: «زعمت مجلة الحديث الحلبية أن الدكتور طه أكبر أديب • فقلت ان الدكتور طه أشهر أديب وليس أكبر أديب » •

ويقول : سيبيت الدكتور طه مؤرقا لأنه سيذكر أنه لم يؤلف كتابا فى قوة كتاب النثر الفنى •

ويذكر طه حسين بصداقته القديمة دائما وفى أكثر من مناسبة :

« وهل تذكر يادكتور ما وقع فى نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟ هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذى يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظام الأتينيين لأرسطاطاليس ؟ هل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون فى طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية ؟ » ويستطيل زكى مبارك على طه حسين فيقول انه طلبه بالتليفون ليسأله عن معنى كلمة « زمالك » بمناسبة أن الدكتور طه يقيم بالزمالك فقال : لا أعرف يا دكتور زكى • فقال له مبارك : « ان الزمالك جمع زملك (بضم الزاى) وهى كلمة ألبانية • والأصل فيها أن « محمد على » أسكن جنوده فى تلك البقعة فى مواسم الاصطياف • والزملك هى الخيمة فى اللغة الالبانية •

« ثم يراوح طه حسين ويناديه فى مسألة امارة الشعر : يقول :

«أشيعت ان امارة الشعر بعد شوقى قد انتقلت الى العراق • أخطأت ياسيدى الدكتور • ان الشعر لمصر الى آخر الزمان • أنت نفسك حاولت

أن تكفر عن ذنبك فخلعت امارة الشعر على الأستاذ العقاد • وهو أديب فاضل • بدليل أنك أهديت أحد كتبك اليه ، ولكنه شاعر صغير بالقياس الى العبقرية المصرية ، •

ومن ناحية أخرى يعلن زكي مبارك أن « طه حسين » قد يقع من وقت الى وقت فى خطأ كبير حين يقطع ما بينه وبين أصدقاء لايجود بأمثالهم الزمان •

وفى الصفحات التالية تكشف المساجلة مع طه حسين عن حقائق واضحة : هى عنف زكى مبارك وشراسته فى النقد • ولكنها تبدو فى تضاعيف الصورة قلبا لا يعرف العدوان • ولكنه يتردد فى رد الأذى بأعنف منه •

أول قضية كانت موضع الخلاف بين طه حسين وزكى مبارك ، هى نزعة تمجيد اليونان • وقد سجل زكى مبارك هذا فى بحث قال فيه :

« ساير الدكتور طه الباحثين الاوربيين فى القول بأن الثقافة الأوربية هى مصدر الثقافة الانسانية • وأن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان •

والحق أن للدكتور طه حسين عذرا فى المسايرة•فقد قرأ كتبا ترى هذا الرأى • ولو تريثلعرف أن هناك كتبا أجدرمن تلك الكتب بالتلخيص وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة منالمعارف المصرية •وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء » •

ثم عاد زكى مبارك الى تناول الموضوع بعمق وتوسع •

« قال طه حسين » : ان الأدب الذى يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الادب اليونانى ثم يجىء الأدب العربى •

ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربى أقوى من الأدب الفارسى واللاتينى •

الادب اليونانى فى المكان الأول ، هذا صحيح•ولكن ما راى الدكتور طه أن الادب العربى له المكان الاول أيضا •

الأدب اليونانى له المكان الاول من الناحيه العاطفيه والتمثيلية فانه فى هـذا الباب يجتاز امتيازا صريحا لا يقبل الجدل ولا النزاع • والادب العربى له المكان الاولى من الناحية الدينية • فن البلاغة الدينية باب هام من ابواب البلاغات فى الادب القديم والحديث • فقد شغل ثلثمائة مليون فى العـالم شغلا موصولا بأروع أثر فى البلاغة الدينية ممثلا فى القران • وعندنا أدب الصوفية • أيستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هـــذا الصفاء فى الجوانب الروحية ؟ ••

الأدب العربى يسكت عنه الأوربيون عامدين لأنه يمثل الحضـــارة الاسلامية • وهى حضارة كانت تبغى آوربا هدمها منذ أزمان • ولأنه من جهة ثانية مصبوغ فى أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين ، وأوربا فتنت بما فى الأدب اليونانى من نزق وطيش وخلاعة ومجون • بدليل أنأكبر شاعر شرقى راج أدبه فى أوربا هو « عمر بن الخيام » لانه شـــاعر اللذة والقلق والارتياب •

ويضاف الى هذا أن يقظة أوربا الحديثة اتفق وجودها فى أزمان كانت فيها الأمة العربية منحدرة الى مهاوى الضعف والخمول • فلم تستطع أن تقدم أدبهاالى العالم تقديما حسنايصورماكانلهمن روعة وجمال وقال زكى مبارك : « ان العرب مازالوا أقوياء يخشى شرهم • وذكرياتهم الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام • وكل أحياء لذكريات العرب خليق بأنه يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى •

آثار العرب ترجع فى صميمها الى التشريع • وهو من المعـــانى الجافة التى لايقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين • وليست كذلك آثار اليونان فان معظمها يرجع فى جوهره الى الأدب الصريح الذى يهيج الأهواء ويثير الشهوات ، حتى ليمكن أن يقال ان جميع الشهوات واللذات

الحسية أخذها الأوربيون عن اليونان .. ان الغرب يمجد ذكريات اليونان ولا يمجد ذكريات العرب » .

وقد عاد زكي مبارك الى تناول قضية اليونان عندما عرض لكتاب قادة الفكر للدكتور طه فقال : كما ذكرنا من قبل :

«ساير الدكتور طه الباحثين الاوربيين في القول بأن الثقافة الاوربية هي مصدر الثقافة الانسانية وأن الناس في الشرق والغرب ، وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه عذرا في هذه المسايرة فقد قرأ كتبا ترى هذا الرأى . ولو أنه تريث لعرف أن هناك كتبا أجدر من تلك بالتلخيص وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

وقال زكي مبارك في مقاله : « ان ايمان الدكتور طه بهذا الرأى يرجع الى تاريخ قديم . ففي نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخالق ثروت (باشا) الدكتور طه الى الجمهور في قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية . فألقى المحاضرة الأولى . وقال فيها :

انه عزم على احياء التراث اليوناني ، لأنه يؤمن ايمانا جازما بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب الى القدماء من مفكرى اليونان » .

طه حسين .. ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الاسلام لم يغير تلك العقلية .

زكي مبارك .. ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرنا . وهي مؤمنة بالعقيدة الاسلامية .

أما معركة النثر الفني ، فأنه عندما أصدر مبارك النثر الفني ، استقبله طه حسين بفتور بالغ . فقد سجل النثر الفني عبارة عن طه حسين مؤداها « ان هذا الرجل تربطني به ألوف الذكريات ، ترجع بعضها الى العهد الذي كنت فيه مدرسا في الجامعة المصرية القديمة . يوم كان

يصطنع العدل الذي يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب • وأرق مايتصل بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ ، يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان • وكان اصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص • وكنت وحدي صديقه الذي لايهاب • وزميله الذي لايخون • ولكن حماستي للفكرة التي ادافع عنها ، وغرام الدكتور طه بتسفيهها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كانا مما حملني على مقاومته في عنف وقوة ، حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف ، حين عرضت لدحض أرائه في فصول هذا الكتاب • » ثم صور زكي مبارك القضية موضع الخلاف ، فقال : « هناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأي مسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين • وذلك الرأي يقضي بأن العـــرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية • والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لانه لغة العقل ، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال •

وهذا الرأي أعلنه مسيو مرسيه في المحاضرة التي افتتح بهـــا محاضراته في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام • ثم أذاعه مطبوعا في كراسة خاصة • وقد اختطف الدكتور طه هذا الرأي ، وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته في كتاب (المجمل) » •

هذا جملة ما أورده زكي مبارك في كتابه النثر الفني عن رأي طه حسين • فلما صدر الكتاب وتجاهله طه حسين ، بدأ هجوم مبارك عليـــه على هذه الصورة •

« الدكتور طه لا يقدر على الانصاف • وهو لاينصف حين ينصف الا لحاجة في النفس • وقد تقطعت بيني وبينه الأسباب منذ اعتزمت كشف ما تورط فيه من الأخطاء • والرجل لايرضى الا عمن يؤمنون بأن باطله أشرف من الحق • وأن خطأه أفضل من الصواب •

« أنا ما أسأت اليك بل أحسنت اليك بعض الاحسان ، حين دللت القراء على أنك لم تبتكر ما تورطت فيه من الأخطاء • وانما هي أخطـــاء

جماعة من المستشرقين • فتبعتهم بلا روية • فكان عليهم اثم السيئة السيئة وكان عليك اثم التقليد •

« كنت أنتظر أن تفرح بكتاب النثر الفني لأنه كما تعلم جهد أعوام طوال • ولكن ، خاب الظن وعرفت أنك كسائر الناس تغضب وتحقد • وكنت أرجو أن يكون عندك شيء من تسامح العلماء •

« تعال نتحاسب يا ناسي العهد ، ويا منكر الجميل • لقد مرت أعوام لم يكن يذكرك فيها بخير أحد غيري • وهل كان في أصحاب الأقلام من انبرى للدفاع عن طه حسين غير تلميذه وصديقه زكي مبارك ؟! •• لقد ذكرتك بالخير في جميع مؤلفاتي • فهل يضيع عندك كل هذا المعروف لأني بددت أوهامك في كتاب « النثر الفني » •

رأى الدكتور طه موقفي يوم أخرجه وزير المعارف من كلية الآداب فقد دافعت عنه في البلاغ دفاعا ، ما كان ينتظره • ولعله قد دهش منه • وكنت في محضره ومغيبه من المنافحين عنه • لأن المروءة كانت تطالبني بذلك • أفيعجز الدكتور وهو أكبر مني سنا وأرفع صوتا عن مقابلة المروءة بالمروءة ؟ !

« لقد كان يجب أن يكون الضمير العلمي أقوى وأمنع من أن تؤثر فيه الأحقاد اليومية • وكان يجب أن يكون العلماء أرفع من أن يخضعوا للأهواء والشهوات • وكان الدكتور طه أولى الناس وأجدرهم بأن يتخلق بالخلق الجميل » •

ولم يلبث زكي مبارك أن عاد الى العراك ، فهاجم « طه حسين » بعد أن خرج من الجامعة فقال (١) :

أعلن الدكتور طه حسين بعد اخراج الشعر الجاهلي نداء قال فيه : أشهد أني أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ••

---

(١) البلاغ : ٢٣ من نوفمبر ١٩٣٤ مقال « طه حسين بين البغي والعقوق » كتاب البدائع جـ ٢ ص ١٤٣ .

أنت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور طه » وأنت تكذب التوراة والقرآن اعتمادا على رأى خاطىء ، سرقته من أحد المبشرين ؟! ..

« أنت لم تترك حزبا الا خدمته . ولا جريدة الا توددت اليها بعد عديد من الرسائل الطوال .

« ذهبت الى باريس على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله.. ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخا من آراء مسيو كازانوفا .. واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضا .

« وقف مسيو ماسنيون يوم أديت امتحان الدكتوراه فقال : اننى حين أقرأ بحث طه حسين أقول (هذه بضاعتنا ردت الينا) . وحين أقرأ أبحاث زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة .

« مضيت فانتهبت آراء المستشرقين . وتوغلت فسرقت حجج المبشرين . وكان تصنيك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العامة . وأنت تعلم أنه ليس لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث ...

« كنت لوحة اعلانات لاتذيع الرأى الا لتغيظ الجمهور ، ولتصبح حديث الناس فى الأندية والمجتمعات .

« انت تعرف انى لم أنل القاب الجامعة « المصرية » بلا جهاد . وانت أسقطتنى فى إمتحان الليسانس مرتين . واشتركت فى امتحان الدكتوراه الذى أديته أول مرة مع انك لم تكن عضوا فى لجنة الامتحان . وكان لخصومتك الصورية تأثير فى الدكتوراه – التى حظيت بها للمرة الثالثة » فلم اصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين .

ثم أعاد الهجوم على طه حسين فى البلاغ فى (١٥ من أغسطس ١٩٣٥) « أما الأحقاد التى تتلظى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء ، وتنكل به تنكيلا . ولن تدوم له أيام الطغيان . ولن يبقى له فلان وفلان. والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هو أقل ما انتظره من الجزاء فى المستقبل القريب . ان أعظم منصب فى الجامعة لاينيلنى من المجد ما أنالنى

كتاب النثر الفني • وستبيد أحجار الجامعة المصرية وتبيد ذكريات ، ثم يبقى ذلك الكتاب على مر الزمان • والذين يحاربونني لم يطمعـــوا في محاربتي الا لظنهم اني رجل أعزل • لا انحاز الى حزب من الاحزاب • وليس لي في الحكومة عم ولا خال • ولكن خاب ظنهم • فان الحق أعز وأقوى • ويرون كيف أزلزل أرواحهم • وكيف املأ قلوبهم بالرعب • وكيف أريهم عواقب ما يصنعون •

ان النصر سيكون حليف من يصلون النهــــار بالليل في تثقيف عقولهم • أما الثرثرة الفارغة التي يعتصم بها طه حسين فلن يكون لها في عالم الجد البقاء •

ولقد رسم زكي مبارك قصة اخراجه من الجامعة في حديث طويل: مؤداه :

« أني بدأت أناوش الدكتور طه حسين منذ سنين ، حين تبينت أنه كالطبل الأجوف ، وانه لايعرف من تاريخ الأدب العربي الا قشــورا عديمة المحصول • وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشي عاقبـــة النضال • ثم اتفق اني عينت في الجامعة المصرية فبدا له ان يتشجع ويناوشني، ظنـــا منـــه أني أخاف من المنـــاوشات ، احتفاظا بمنصبي في الجامعة • ودفعا لمغبات القتال • أمهلته قليلا • وتركته يصول في مناوشتي ويجول • وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة ، يوم عين أحمد نجيب الهلالي ، وزيرا للمعارف • وكان يعرف الصلة التي بينـــه وبين نجيب الهلالي • وفي هذا ما يقوي المحالفة بين رجلين لهما خصم لاسند له بين الأحزاب ولا عم له في الحكومة ولا خال •

في تلك الايام أراد طه حسين أن يناوشني • وكان يثق بأني سأسكت فلا أجيب • ورأى فريق من (زملائي) في الجامعة أن أتسامح ، مراعاة للظروف فأقسمت لأجعلنه مثلا في الآخرين • وكذلك كتبت مقــــال « طه حسين بين البغي والعقوق » ذلك المقال الذي أبكى طه حسين بالدمع السخين • وكان يظن أنه لن يعرف البكاء •

وعاد طه حسين الى الجامعة في (زفة) لم يسمع بمثلها منـــذ كان

يسكن فى كفر الطماعين . وظن الناس أنى سألاينه وأماريه . ولـكن هيهات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام الى أن جمع بيننا مجلس اللغـة العربيـة .

في تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيننا .. وكنت أحسب أن لصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات . ولكني فوجئت مفاجأة لم تخطر علي بال . فان الاستاذ أمين الخولى انتظر حتى اجتمع بعض الزملاء ثم نهض فقال : هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين بعد عودته . وأنا أقترح أن تلقى كلمة ترحيب . وأفضل أن يلقيهـا الدكتور زكى مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول .

وكان موقفا فى غاية الحرج . ولكنى تخففت اذ كنت أعرف أن العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول . ومن الحزم ألاأقول كلاما ينطوى على تودد أو ترفق فوقفت ، وقلت :

« اني أرحب بعودة الدكتور طه . وقد (زاملته) من قبل ثـلاث سنين ، وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء . والذي وقع بيني وبينـه لم يكن فيه شيء خارج الا المقال الذى نشرته فى البلاغ ، وهـو مقال أعرف أن فيه شيئا من الشطط ، ولكنى لا أعتذر عنه ، لأنه من بعض ما علمني . ومن الخير أن يتناسى ما فات لان مصلحة العمـل توجب الوفاق » .

وقد ابتسم الاساتذة حين ذكرت أن الشطط كان من بعض ماعلمنى ، وعدوها خطبة لبقة فيها ترضية وفيها احتراس .

أما موقفى من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائما موقف المعارضة الصريحة لنزعات طه حسين . وكان لايسلم منى الا بأخذ الاصوات . وكان أساتذة اللغة العربية لايرون فائدة فى معارضته اذ أنهم كانوا يعرفون أن كل شيء مصيره الى هواه بفضل الوسائل التي يعرفها الجميع .

لا أنكر أنى أسرفت . ولكن الايام أرتني أن الحزم كان أوجب . ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أني قابلت الدكتور طه حسين

بالترحيب ، وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به جنبيه من قوارع التريب ولم يغفر ما كشفت من سرقاته ، وكان الناس يحسبونه من المبدعين .

وفى أوائل شهر مايو دعانى الدكتورمنصور فهمى الى مكتبه ، وقال: أرسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد ، والنظام يقضى بأخذ رأى الدكتور طه حسين فاذهب يابنى وصف ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصور فهمى بما نصه :

« أنا على أتم استعداد لتصفية ما بينى وبين الدكتور طه ، ولكنى لا أفعل ذلك فى هذه الأيام ، ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين ، لقبلت. أما الآن فلا تسمح نفسى بمصافحة الدكتور طه ، وأنا أعلم أن لذلك دافعا من الغرض ، ومع ذلك ما الذى يزعجك يا سيدى العميد ؟ ..

أتظن أن الدكتور طه ينتهز هذه الفرصة ويتشفى منى ، انه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح » .

فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة ، وقال : « أنت يا بنى تسرف فى حسن الظن بالناس » .

ولكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟ : لقد اجترأ زكى مبارك على طه حسين فى ادبه فحاربه طه فى رزقه ، وقال حين طلب اليه تجديد عقده : « أنا لم أستشر فى تعيينه فلا أستشار فى تجديد عقده » .

وكتب المازنى مقالا قال فيه : « انى لأحدث نفسى أحيانا بأنى لوكنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين ، فانه يخيل الى أنه قد مات، طه حسين الذى عرفته وأحببته وأكبرته ، وجاء غيره الذى أنكره» ، كما كتب المازنى يعاتب الدكتور « طه حسين » على فصل زكى مبارك من الجامعه وقال « ان الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها وانه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد الى الفم ، ويطيرها ، فتسقط على الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان »

وقال زكى مبارك : ليس عيبا أن يجوع المرء وانما العيب أن يكسب الانسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة » .

« الذى بيننا لم يكن خلافا فى الرأى • وانما هو قتال عنيف بين شخصين • فالدكتور طه يرى أننى كنت تلميذه • ومن واجب التلميذ فيما يزعم الا يخالف الأستاذ • أما أنا فأرى الدكتور طه رجلا قليل العلم والمعرفة بالادب العربى • وأراه استمرأ السطو على آراء المستشرقين • وأراه فى حياته العلمية نموذجا للفوضى والقلق والاضطراب • فقد يقولون وكيف سكت زكى مبارك عن نشر عيوب طه حسين ، وهو يصاحبه منذ خمسة عشر عاما •

وأجيب بأن الدكتور طه ابتدأ التدريس فى الجامعة المصرية قبل أن نقدم الدراسات الأدبية • فكان منذ سنين مستور العيوب • على أن الخواص يعرفون أننى بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه الفاضح ، وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء •

وأنتم تعرفون أننى رجل صريح لم تستطع الايام أن تروضنى على المجاملة والمداراة • فلم يكن خافيا أن يعرف الدكتور طه أننى لا أحترمه ولا أحترم مسالكه الأدبية • ولا أحترم تهالكه الفاحش على موائد الأحزاب وكذلك هدته غريزته الى وجوب محاربتى فى عملى فى الجامعة المصرية • وساعده على ذلك ناس كنت شجا فى حلوقهم • وكان هو فى أنفسهم مثال الخادم الأمين •

فان كان الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعدونه على اخراجى من الجامعة ، وليتذكر • من عاونوه على شفاء صدره أن انتصارهم ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون •

« لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب « النثر الفنى » وقد بينت أغلاطه وسرقاته • وتحديته أن يدافع عن نفسه • فتخاذلت قواه ولم يملك الجواب • وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب أنه لايملك شيئا أصيلا • وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن مايدعيه من الأراء ليس الا صورا ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع •

« ان قلمى ليس الا محنة صبها الله على طه حسين • ولعله انتقام

من الله صوبه الى صدر ذلك الشخص الذى اجترأ على التوارة والقرآن • واستطاع أن يقول فى وقاحة (للتوارة أن تحدثنا • وللقرآن أن يحدثنا) كأن العلم لا يكون الا حيث تقع مساقط هواه • أما التوراة والقرآن فهما ظنون فى ظنون • طه حسين جاهل • سبحان الله وكيف يكون جاهلا • وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ؟ من الذى وضع طه حسين فى ذلك المنصب ؟ ان الذى وضعه فيه هو أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية • ولطفى السيد ليس حجة فى الأدب العربى • ولم ير فى حياته جامعة أوربية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية •

• ان هذا الرجل لم يكن فى جميع أدوار حياته العلمية الا مرتزقا يتلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم • أو أوقدوا نارهم • ولم يستطع حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر والبيان •

• أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوما من المفكرين • وانما هو أديب قليل الفكر قليل الاطلاع • نشأ فى أوقات لم يكن يعرف الناس فيها غير المجالات الأساسية • وكان النقد فيها قليلا ، فتظاهر بالعلم ، فظنه القراء من العلماء •

لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا ، وانما قرأ فقرات من هنا ومن هناك ، وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن اتصل بالمرحوم ثروت باشا فوضعه فى الجامعة المصرية •

• ظل طول عمره ظلا من الظلال فى عالم السياسة • ولم يترك حزبا الا خدمه ، ودبج فى تقريظه ألوانا من الرسائل الطوال • والاتجاه السياسى صورة من الاتجاه العقلى • والرجل الذى يتردد بين المذاهب السياسية لايبعد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية • وقد اتفق للرجل الصالح جدا ، طه حسين ، أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب : وأن يخدم بعد الحرب أربعة أحزاب • وحظه من الثبات فى المذاهب الأدبية يشبه حظه فى الثبات على المذاهب السياسية : تردد هنا ، وحيرة هناك •

• كيف ينظر الحقيقة الى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن اكبر أستاذ فيها ، لم تقم اعتاذيته الا بفضل انتهاب آثار المستشرقين ؟

• ان (١) أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه .

على أن من بين أسباب الخصومة بين طه حسين وزكي مبارك : ما أوضحه زكي مبارك :

• ترجم لأبى العلاء فأفلح ، ثم ترجم للمتنبى فأخفق .

• أخرج الجزء الأول من الأيام فكان أعجوبة ثم فتر فى الجزء الثانى .

• والجزء الأول من هامش السيرة سفر نفيس ، أما الجزء الثانى، فهو أيضا « سفر نفيس .

• كان أستاذا فى الجامعة المصرية القديمة أستاذا عظيما أما فى الجامعة المصرية الجديدة فهو استاذ هيوب يستر كسله الجميل بالتغاضى عن ضعف الطلاب .

• وأمره فى الصداقة أعجب من العجب . فهو يؤاخيك ويصافيك، لى أن تظن انه قطعة من قلبك . ثم يتحول فى مثل ومضة البرق الى عدو مبين .

على الرغم من ضعفه فى الاضطلاع بتكاليف المواهب رجل كذاب لأنه معسول الحديث ولأنه قد يصدق فى الحب وفى البغض ، الا أنه تهديه حاسة النفع الى أن يعادى من يصادق ، ويصادق من يعادى ، كالذى صنع فى طوافه بأركان الأحزاب .

• ما سبب الخصومة بينى وبينك ؟

منذ أكثر من سبعة أعوام القيت محاضرة فى الجامعة الامريكية عن (البحترى) وسجلتها جريدة كوكب الشرق وشاء (العفريت

(١) ١٨ من اكتوبر ١٩٣٥ ــ الصباح .

الفني يحطل رأسي حين أخلو الى قلمي ، أن أنشر في جريدة البلاغ مقالا عنوانه (الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط في محاضرة واحدة)

ثم لقيتني بعد ذلك في الجامعة الامريكية ، وجادلتني في تلك الأغلاط ، فأعلنت اني أخطأت ، وكان ذلك لأن الجمهور احاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع حجوجك وما كان يجوز لي أن أصنع غير الذي صنعت ، لأن أدبي لا يسمح لي بمصاولتك أمام الناس ، لأن وجهك يشفع لك ، فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الاعزاز والتجميل .

فما الذي صنعت انت في تصحيح الاغلاط التي أخذتها عليك ؟! مضيت فنشرت محاضرتك عن البحتري في كتابك (حـديث النثر والشعر) وأبقيت تلك الاغلاط ، استغفر الله ، بل تفضلت فشكلت الكلمات المغلوطة لتقول انك لا تعبأ بأي نقد يوجه اليك ، فما الذي كان يمنع من تدارك تلك الاغلاط ؟

وما الذي كان يمنع من شرح رأيك في الهامش إن كنت تؤمن بأني لم أكن على حق ثم ماذا ؟ ثم حدث في صيف سنة ١٩٢٩ أن انكرت علي أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفني من رسائل عبد الحميد بن يحيى ، وقلت إن عبد الحميد بن يحيي شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ، وكان ذلك بمسمع من شابين واعيين هما محمد مندور وعلي حافظ .

وكانت حجتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه في مؤلفـات الجاحظ ، فرجعت اليك بعد أيام ، وأخبرتك أن الجاحظ تـكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة ، وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين أحدهما عبد الحميد الأكبر والثاني عبد الحميد الأصغر فلم تجب بحرف واحد ، ثم ألقيت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها : ان عبد الحميـد بن يحيى اخذ شيئا من أدب اليونان ، وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذي أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية .

وقد حملني العفـريت الذي يملك رأسي حين أخلو الى قلمي ، على أن أسجل هذه القضية ، في أحد هوامش كتاب النثر الفني ، فكانت

فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ، ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة : ان زكي مبارك يعوزه الذوق في بعض الاحيان •

• أنا أعرف ما تكره مني • أنت تكره مني الـكبرياء • وكيف أتواضع ، وقد أعانني الله على بناء نفسي ؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس وهل رأيت رجلا مثلي ينهض بأوطار الشباب وهو مثخن بجراح الزمان بعد الاربعين • هل رأيت رجلا قبلي يؤلف الكتب الجديدة في البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أني أنفق في سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب ؟! •

قصة «احمد الله اليك»

عاد زكي مبارك الى مناوشة طه حسين بأسلوب جديد ، حاول فيه أن يسجل بداءة اتجاه طه حسين الى كتابة التاريخ الاسلامي ، فقال :

في شهر يوليو ١٩٢٨ تلقيت وأنا في باريس خطابا من الأستاذ الدكتور طه حسين جاء فيه عبارة « أحمد الله اليك » فالتفت ذهني الى هذه العبارة لأنها لم تكن من العبارات المألوفة في رسائله • وقلت لنفسي : من أين وصل هذا التعبير الى الدكتور طه حسين ، وهو في هذه الأيام يعيش في جيراربير • وصح عندي بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولا بمراجعات كتاب يتصل بالسيرة النبوية لأن عبارة « أحمد الله اليك » تكثر في الرسائل المأثورة في عصر النبوة وعصر الخلفاء •

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه « على هامش السيرة » وتفضل فأهدى الى نسخة ممهورة بعبارة كريمة من عبارات الاهـداء • وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية في جريدة البلاغ • فرأيت أن أتحدث عنه الى قرائي بعناية تحملهم على اقتناء ذلك الكتاب تحقيقا للتضامن بين المؤلفين •

فماذا قلت ؟ قلت : ان الدكتور طه حسين أعظم الاجادة حين يتروى في التأليف وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة في زوية فهو مشغول بموضوعه منذ ١٩٢٨ وان لم يقل ذلك ، فقد كتب الى خطابا في شهر يوليه من تلك السنة ، يقول فيه : أحمد الله اليك . وقد فهمت من هذه العبارة انه كان مشغولا بدراسات تتصل بالسيرة النبوية . وكذلك عرفت أن الظن قد بلغ درجة اليقين وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الاحساس .

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقريظ الظريف ؟ ..

مضى يقـــول : هذا اختراع جديد من اختراعات زكي مبـــارك في الأسمار ، والاحاديث . فليس من المعقول أن أكتب اليه خطابا أقـــول فيه : « احمد الله اليك » وهى ليست من عبارات هذا الجيل .

ولقينى بعد ذلك فجدد استغرابه من العبارة التى نسبتهـــــا اليه .. فقلت : أنها حق ، فقال : انها من المستحيلات .

ومضيت أبحث عن ذلك الخطاب فلم أهتد اليه ، لأن الدنيا كانت اسرفت في اللجاجة واللدد فنقلتنى من أحـــوال الى أحـــوال . وبعثرت ما كنت احرص عليه من رسائل الاهل والاصدقاء . وعدت الى مـــكتبى بالقلب والأغلال ، فلم يبق أمل في الوصول الى نص الخطاب المنشود . ثم أخذت أتحدث في مقالاتى ومؤلفاتى عن أشياء وقعت بينى وبين الدكتور طه حسين . فكان اذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من نوع « أحمد الله اليك » .

ومنذ أيام مضيت لمقابلة (سعادة) الأستاذ الجليل الدكتور عبـــد الرزاق أحمد السنهورى (بك) . وفي يدى نسخة مهداة اليه ، من كتاب الأسماء والأحاديث . فوجدت الدكتور طه هناك . وسألنى السنهورى (بك) عن أغراض الكتاب . فقلت فيه (أقوالا) فاه بهـــا الدكتور طه ولم ينشرها . فنشرتها عنه ، على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط . واللطف الملحوظ في هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول : لابد أن تكون اختراعات من طراز « أحمد الله اليك » .

وسألني السنهوري عن القصة فأجملتها في كلمات قصار ، فرأى أنا من المسئول في جدل جديد ، مع الدكتور طه ، فقال وهو يبتسم : يجب أن يكون الخطاب صحيحا ، مادمت تحدثت عنه في البلاغ . فقلت : وان وجدت وصلى الخطاب . فقال الدكتور طه : ان وجدته فسيكون بخطك . فقلت : وان كان بخط توفيق شحاتة سكرتيرك .. ؟ قال : هذا مستحيل . فقلت : « وهل عندك مانع من أن تحمد الله الى ؟ » .

فقال : أنا أحمد الله في كل وقت ، ولكنني لا أذكر أني حمدته اليك . ثم انصرفت وقد اطمأن من حضروا هذا الحوار الى أنني أتزيد على الناس حين أشاء .

أين ذلك الخطاب ، وأين أنا من سنة ١٩٢٨ . وقد شرقت وغربت وانتقلت من دار الى دار وبعثرت أوراقي مئات المرات .

الي يا أوراقي . الي الي . فقد طال عهدك بالحجاب . ورجعت الى تلك الأوراق ..

هذه أوراق وأوراق وأوراق . هذه مئات من الرسائل ، التي تشهد بأني كنت على صلات مع أرواح جاذبتها زمنا أطراف المحبة والعتاب .

ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المنشود ، وبخط توفيق شحاتة ، الذي صار من أيام « دكتوراه في الحقوق من الجامعة المصرية » .

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول :

« أحمد الله اليك ، على ما أنت فيه من رضى بالاقامة في باريس ، وأتمنى لك المزيد من هذا الرضا . كما أتمنى أن تنتفع بأيامك في فرنسا الى أبعد حد ممكن وتقبل من السيدة ومني تحية خالصة . وشكرا جميلا . » وتاريخ الخطاب ٢٦ من يولية ١٩٢٨ .

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطابا للدكتور طه كتبه الي من الاسكندرية وفيه يقول : « صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك .

أنا مدين لك بشكر كثير .. فقد قرأت كتابيك ونسخت السفرين اللذين تفضلت بارسالهما الي .. ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك

يملسه ابن خلدون . وانا مقتنع فيما بيني وبين نفسي بانها لا تستحق هذه العناية . ومع ذلك فسابقى القطم منذ اليوم لاقرأ ما تكتب ، لأنك انت الذي ستكتبه . لا لانني انا موضوعه . وكل ما ارجوه أن تصدر فيما تكتبه عن الحرية الصادقة الخالصة لا عن الإخاء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الاحيان الى شيء من الرفق . لا يخلو من اثم . وأنا أعيذ اصدقائي من ان يتورطوا من أجلي في اثم الاسراف في البر ، كما أكره أن يتورطوا في اثم العقوق .

وأنا ارجو أن تكون بخير مطمئن النفس ، وأن تكتب الى في شيء من الاطالة والحرية . فان كتبك وأحاديثك تقع من نفسي دائما موقعا حسنا . وليس لدي الآن ما يشغلني عن قراءة كتبك . فأنا أقضي ما بقي من أيام الراحة في قراءة متفرقة ، لانظام لها ، ولا نفع فيها .

طه حسين

فان قيل ، وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق ، أن تفسد العلائق بيني وبين الدكتور طه ، فاني أجيب بأن لله حكمة فيما وقع بيني وبين ذلك الصديق ، لم يكن بد من خصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه الجمهور الى الحقائق الأدبية . وكذلك خاصمت عددا من رجال الأدب كان أظهرهم الدكتور طه حسين . وأنا اليوم في حياد . أو أنني غير محارب . وهما حالتان متقاربتان . فمتى أخلق خصومات جديدة أذكي بها نار الأدب من جديد ؟

يا دكتور طه

ان كنت أنكرت أن تحمد الله الى ، فخطابك تحت يدى ، أقدمه اليك حين تشاء . فان لم تحمد الله الى ، فأنا (أحمده اليك) » .

وعاد زكي مبارك يكتب مرة أخرى عن طه حسين . ويربط بين عمامته وبين نزعته اليونانية فقال : صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق الأزهر بأعوام قصار أو طوال ، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية في ١٩١٤ وهو معمم وأقلته الباخرة من الاسكندرية الى مارسيليا وهو معمم . ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفوا مدهوشين الى شيء يقع في البحر . وقد ألقاه صاحبه في عنف فما كان ذلك الشيء الا عمامة طه حسين .

وقد تحدث الدكتور طه مع احد الصحفيين بانه لم يندم على شيء لما ندم على رمى عمامته فى عرض المحيط ، ولكن الواقع غير ذلك . الواقع ان الدكتور طه قد ولد وعلى رأسه «برنيطة » وقد حدثنى مرة أنه يرجع الى أسلافه القدماء من اليونان فان لم يصح ذلك ، فهو فى نزعته اليونانية مدين لـرواية ألفهـا الشـاعر أحمـد شوقى ، واسمها « ورقة الآس » وفيها تمجيد لليونان (حـدثنى الدكتـور طه بذلك فى أحد الأيام من عام ١٩٢٢ ولهذا وذاك صلة بانتقال الرجل من حال الى احوال فقد انحدر من أسرة اكثرها مشايخ . ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنيـة منقطعة عن حياة المشايخ بتمام الانقطاع والنص على هذا الانقلاب واجب لأنه يفسر ما خفى من أسرار الوحى فى اتجاهاته الادبية والاجتماعيـة هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه ، لأنه سريع القفز والوثب . ولأنه على وفاق مع ضميره الفنى والأدبى . فهو يسايره الى حيث يريد وهو يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد . كان مع الدستوريين وهم يقاتلون الوفديين . وكان مع الوفديين وهم يقاتلون الأحزاب أجمعين . فاذا انجلت المعارك السياسية وانقطع الى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة جامعية . فاذا نقل من الجامعة الى وزارة المعارف كان من المحتم أن يخلق مشكلة فى وزارة المعارف .

فالذى ينظر الى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل متغير متحول . أما الذى ينظر نظر المدقق فيرى التغير والتحول من صور الثبات والاستقرار بالنسبة اليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية فى حيـاته اليوميـة .

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخل فى هيـامه بالفروض والحدوث ، وهو يساور الأبحاث الادبية والتاريخية . فمؤلفاته فى أغلب أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف على البحث الواحـد عاما أو عامين . والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول والانتقال بين المعانى والآراء .

.. زار الدكتور طه باريس ، وأنا هناك ، فلما مضيت للتسليم عليه ،

أدهشني أن آجده في غرفة تطل على ميدان الأوبسرفاتوار ، وهو ميـــدان صخاب ضجاج . فقدرت أنه يسره أن يسمع باريس بعد أن فاته أن يرى باريس .

ويحدثنا أنه حين رجع الى بلده بعد قضاء بضعة أشهر في الأزهر أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء . فما سر ذلك ؟ لم يردفي الواقع غير خلق دنيا يراها عقله ، وان لم ترها عيناه . وقد شهد الدكتور طه عـلى نفسه في مواطن كثيرة من كتاب الأيام باضطراب العقل ، وأقول ان هذا الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية (1)

وسجل زكي مبارك خاتمة الخلاف بينه وبين طه حسين ، فقال :

كان قد شاع اني أخاصم الدكتور طه حسين ، فكتبت في الهجوم عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سيء عند قراء اللغة العربيـــة ، واطلع الاستاذ محمود بسيوني على بعض المقالات فانزعج أشد الانزعاج .وسعى للصلح بيني وبين الدكتور طه حسين ، في حفل مشهور ، حضره العمـداء وكبار الاساتذة بكليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح المشئوم أو الميمون ؟ ، تلفت الناس متوجعين لضياع فرصة ثمينة ، هي فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية . فهل فيكم من يتفضل بالسعاية بيني وبـــين الدكتور طه لأرجع الى مصاولته من جديد ؟ ..

كان بيني وبين الدكتور طه ود وثيق . ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع الأدب بشيء لأن كل ما يصدر عنه كان يقع في نفسي موقع القبول . فلما ثار علي ، وغضبت عليه ، أتيت في مصاولته بالأعاجيب .

وجملة القول فان علاقة زكي مبارك مع طه حسـين كانت محوطة بسياج من التقدير . فما ذكر زكي مبارك طه حسين الا أثنى عليه . وما وقع طه في أزمة الا كان مبارك أول أنصاره . وعندما مات والد طه حسين ، كتب زكي مبارك « رأيت الحزن يعصر قلبي ، حين قرأت أن الدكتور طه فقد

---

(1) أول ديسمبر سنة ١٩٤١ ـ الرسالة .

أباه ، ورثه الله عمر ابيه . ومن عليه بالصبر الجميل . أبو الدكتور طه هو الشيخ حسين علي . وكان رجلا غاية في اللوذعية والأريحية . كان الشافعي يقول : الحر من راعي وداد لحظة . وقد واددت هذا الرجل لحظتين . فمن واجبي أن أذرف عليه دمعتين » .. الرسالة ٢٨ من يوليه ١٩٤١ .

زكي مبارك في معركة مع أحمد أمين من جانب واحد

تعد معركة زكي مبارك مع « أحمد أمين » معركته الكبرى الثانية . وهي معركة قامت من جانب واحد . نشر من أجلها مبارك في الرسالة ٢٢ مقالا . وقال النقاد انها كانت بايعاز من الزيات بعد انفصال أحمـــــد أمين وأعضاء لجنة التأليف عن الرسالة . ونحن نرجح هذا . ونذكر أن زكي مبارك رمى بالسلاح نفسه فانه في الوقت الذي رأى الزيات أن يتخلص منه هاجمه كتاب آخرون في الرسالة بالأسلوب نفسه .

وفي هذه المقالات حاول زكي مبارك ان يتجه الى الدراسة الموضوعية وحشا مقالاته بآراء نافعة ، سنحاول في هذا الفصل ، أن نورد خلاصـة لها ، وقد ذكر مبارك أن السبب الاساسي لهذه المعارك عندما كان مدرسـا بكلية الآداب عام ١٩٣٥ ، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من « ضحى الاسلام » . وقد سرق من الأستاذ ابراهيم مصطفى مســـألة تتصل بتاريخ النحو وسرق مني مسألة تتصل بتاريخ التشريع الاسلامي . فصاح ابراهيم ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة . ولي نعجة واحدة . فكيف يسرقها مني ، انه لطماع . وجلست أنا وابراهيم نتشاكى . وهتفت: سأنتقم لي ولك يا ابراهيم .

بدأت هذه المقالات في ١٢ من يونية ١٩٣٩ واستمرت حتى العدد ١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي .

وسجل مبارك أن « أحمد أمين » كان مشدود البصر الى رجل واحد هو « طه حسين » . وكان يكتب وهو يراه أمامه ، لأنه كان يعرف عدوانه له ، فيخشى صولته . كلما انتهز الفرصة فهاجم غريمه الدكتور طه .

فقال (1) : « ان الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على سترما يقعون فيه من أوهام وأضاليل . وقد يقدمهم الى الجمهور فى جلبة وضوضاء » . وقال فى موضوع آخر «ان الدكتور طه هو المسئول عن أحمد أمين فهو الذى قال (ان أحمد امين لم يكن يعرف نفسه فهداه اليها) . ومعنى ذلك أن « أحمد أمين » لم يكن يعرف انه أديب قبل أن يدله الدكتور طه على الكنز المدفون فى صدره . ان « أحمد أمين » لم يكن أديبا . وانما قال له طه حسين (كن أديبا) فلم يكن .. »

ويرى زكى مبارك أن « أحمد أمين » لايجيد الا حين يصطحب الروية ، يطيل الطواف بالموضوع الواحد عاما أو عامين « وأنه » باحث كبير بلا جدال . ولكنه ليس بكاتب ولا أديب « لم يستطع أن ينقل القارىء من ضلال الى هدى . أو من هدى الى ضلال . وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من « التقرير » الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب » .

ثم يعتذر عن أسلوبه فى النقد . ويقسم أنه يهجم على هذا الرجل وهو كاره لما يصنع « فأحمد أمين رجل محترم وقد وصل بكفاحه الى منزلة عالية فى الحياة الأدبية . وأنا قد ضيعت جميع اصدقائى بفضل جرائر النقد الأدبى . وكنت أحب أن أداوى ماجرح قلمى لأنجو من الدسائس التى تعترضنى فى جميع الميادين » .

ويهاجم زكى مبارك طه حسين لأنه تناقض مع نفسه حين قرر أن يدرس أسلوب أحمد أمين فى كلية الآداب مع أنه أعلن فى قصر الزعفران (ربيع سنة ١٩٢٧) فى مهرجان شوقى ، انه سيجعل خطبته عن الأخطل ، لا عن شوقى ، بحجة أن الجامعة لاتؤرخ للأحياء ..

ويعلل هجومه على أحمد امين بأنه لم يوجه أية اساءة الى معاصريه ولكنه هاجم التاريخ : « ربما جاز أن يقال انه لم يؤذ أحدا من معاصريه ولكن « أحمد أمين » الذى كف شره عن الأحياء وجه شره الى التاريخ .

(1) ٢٣ من اكتوبر ١٩٣٩ الرسالة (جناية احمد امين مقال ١٩٠)

فهو يدرس ماضى اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق • ولو تركنا • شهرين اثنين يؤرخ الأدب على هواه لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالم »وقد كتب زكى مبارك فى الرسالة (سبتمبر ١٩٣٩) يقول :

« نحن أمام فتنة جديدة هى القول بان الأدب العربى لايصلح لتربية الأذواق فى الجيل الجديد • وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين فقد نبتت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون والمبشرون أن يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم لم يبق لها مكان • وأن المصلحة تقضى بأن يوضع الأدب العربى فى المتاحف أو فى مدرسة غير المتخصصين ، على نحو ما يصنع الاوروبيون فى الآداب اليونانية واللاتينية • ثم تقبل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها لغة التخاطب والتأليف ، وبذلك تكون اللغة الفصيحة أما واحدة للغات الشعوب العربية • وقد صرح بذلك مسيو ماسينون فى خطبة ألقاها فى بيروت سنة ١٩٣١ ونقدتها يوم ذاك بمقال أرسلته الى جريدة « البلاغ من باريس » • والحق أن الفتنة التى أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت فتنة براقة خداعة تزيغ الأبصار والعقول • وقد انخدع بها من انخدع فى الأعوام الماضية • وقامت بذلك مساجلات فوق صفحات الجرائد بين الدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين •

وهكذا يبدو زكى مبارك فى معارضته لأحمد أمين فى موقف البطولة حين يدافع عن كرامة الادب العربى وعظمة اللغة العربية • ويقول زكى مبارك فى هجومه على أحمد أمين وأنه ليس له أسلوب : « قد يكون من الباحثين • ولكنه لن يكون من الكتاب ولا الأدباء ان الرجل لايكون له أسلوب الا يوم يصح أن يحس الثورة على مايكره والأنس بما يحب فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص » •

ويمضى فى هجومه فيقول « لقد اشتغل أحمد امين بالقضاء الشرعى بضع سنين ، فهل قرأتم له مقالا أو قصة تدل على أنه توجع مرة واحدة لمآسى الانسانية ؟ •• لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحات فهل سمعتم قبل

أن تسمعوا منى انه عاش بالواحات لو كان أحمد أمين أديبا لحدثكم عن تلك الآلام التى يتحملها المصريون • ولكن أحمد أمين لم يكن أديبا • وانما كان موظفا مخلصا لواجب الوظيفة لايرى ماعداها من الشئون ثم قال له طه حسين كن اديبا فكان •

ويكشف زكى مبارك عن السر فى الخطأ الذى وصل الى أحمد أمين فيقول :

« وصل اليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين • فقد حكم الدكتـور طه بأن العصر العباسى عصر شك ومجون ولأن فيه عصابة مشهورة بالزيغ والفسق وهى جماعة أبى نواس ومطيع ابن اياس • مع أن العصر الذى عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذى نبغ فيه كبار الفقهاء والنساك والزهاد • وهو الذى بلغ فيه الفكر العربى غاية الغايات فى فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق • فهل خطر فى بال أحمد أمين أن العصر العباسى لا يصح الحكم عليه بايثار المعدة واغفال الروح من أجل كلمة أو كلمات فى وصف الاحتيال على الطعام والشراب ؟ »

وهو يعزو أخطاء أحمد أمين الى طه حسين فيقول : ان « أحمـد أمين » يقول ان الادب العربى على اختلاف عصوره ليس فيـه الا كاتب واحد ، يهتم بتحليل المعانى ، هو ابن خلدون • وأن اعجاب أحمد أمـين بابن خلدون يرجع الى أن الدكتور طه حسين شغل به •

وقال مبارك : ان بعد الدكتور طه حسين عن مصر فى أيام الصيف عرض الاستاذ أحمد أمين للمعاطب ، فلو أن الدكتور طه بقى فى مصر ، لكان من الجائز أن يعلن اعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون •

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول انه لايعقل أن ينبغ فى الأدب العربى غير كاتب واحد ، فى ذلك الأمد الطويل الذى سيطر فيه على أقطار آسيوية وافريقية وآوربية ؟ وان الدكتور طه لو قال هذه الكلمة ــ وهى حق ــ لسرت عدواها الى روح الاستاذ أحمد أمـين فاندفع يثنى على الأدب العربى بما هو أهله • ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب العربى ينبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات •

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور فى جلية وضوضاء • فكيف ينتظر أن يقول فى الأدب العربى كلمة حق تشجع رجلا مثلى على مهاجمة رجل يستبيح فى الغض عن أدب العرب مالايباح ؟» وقد صور زكى مبارك خصومته مع أحمد أمين فقال :

« منذ أشهر نشر الأستاذ أحمد امين مقاله الأول فيما سماه « جناية الادب الجاهلى على الأدب العربى » • فلم يعجبنى : لأنى رأيته من الحديث المعاد • ثم لقينى مصادفة فى « المترو » بعد ظهور مقالته الثانية ، فسألنى عما أراه من الأفكار التى أودعها مقالتيه • فقلت له : لم يعجبنى غير نقد الشاهد الذى أوردته من كلام ابن قتيبة • أما سائر أفكارك فتحتاج الى تحقيق • فقال : أنا دعوت القراء الى مناقشة تلك الأفكار وأنا أرحب بكل ما يرد الى من تصحيح •

فهل كان يدعونى الى أن أساجله الحديث ؟

كانت الصداقة بينى وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المتانة والصدق • وما كان ينتظر منى غير ما يحب • وكنت والله خليقا بالتجاوز عن سيئاته ، لو لم يسرف فى الاساءة الى ماضى اللغة العربية فى وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل الرفيعة فى العلوم والآداب والفنون وأنهم كانوا فى ماضيهم من أقطاب الزمان •

وكذلك وقعت الواقعة ، وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التى اعتز بها ذلك الصديق » •

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربى كان فى أغلب أحواله أدب معدة ، لا أدب روح وحجته فى ذلك أن التكسب بالشعر كان عادة غالبة على أكثر الشعراء • وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها فى كل مكان • وهذا الرأى مسروق من كتاب « البدائع » •

• عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب

وأن ينتقلوا بهذه العادة من جيل الى جيل ، فى حين أن الشاعر ربما لايكون مشبوب العاطفة فى كل حين . وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس ١٩٣١ ومنشور فى البدائع .

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحيـــة لاحسية فنال ثناء الاستاذ محمود علي قراعة ، الذي عد كلامه من المبتكرات فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب التصوف الإســلامى جزء ٢ ص ٨٧ ؟

ثم يقول : ان الفخر بغيض ممقوت ، وقد عابه على الأصدقاء قبـل الاعداء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا أشهد آرائى تنتهب ، بلا تحرز ولاترفق ، وبها يرد على خصومى حين يشتجر القتال وكأنها مما ابتكرت أفـكارهم الثواقب وألسنتهم النواطق ؟

ثم يقول : ... اما بعد ، فقد انتهيت من محاسبة أحمد أمين بعد أن أرقت جفونه خمسة أشهر ، كانت كألف سنة مما تعدون . انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث . أما أحمد أمين الصديق فله في قلبى أكرم منزلة وأرفع مكان ، ولن يرانى الا حيث يحب ، في حـــدود المنطق والعقل . فما أرضى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربى ، وماضي الأمة العربية . وسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته فلا يزور عنى وجها ، اذ أراه أهلا للكرامة والحب . وسلام عليه من الصديق الذى لايغدر ولا يخون (١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ ـ الرسالة) .

ثم عاد فكتب مرة أخرى .. « لم يبق شك في أن الأستاذ « أحمد أمين » غضبان بسبب المقولات التى تجاوزت العشرين وأقول اليوم انى استوحشت مما صنعت . والاعتراف يهدم الاقتراف .

وليس من الكثير أن أرجو عفوه . فقد عفا أخ له من قبل . والأستاذ أحمد أمين يعرف أنى رجل ممتحن بعداوات الرجال . وقد عانيت من ذلك مصاعب ، لو صادفت رجلا غيرى لدحرته فى أقصر وقت . فمن حقى عليه وهو صديقى وجارى وزميلى ، وكان في الجامعة المصرية أن يتجاوز

عن سيئاتى . انه ـ والله المثل الأعلى ـ غفور رحيم (العدد ٣٣٦ - ١١ من ديسمبر ١٩٣٩ الرسالة) .

معركة مع السباعي بيومي

هذه معركة من أقسى المعارك التي خاضها زكي مبارك ، ولاول مرة صادفته الهزيمة . فقد واجهه السباعي بيومي ، بعنف وقوة عارضة ، وأخذ يكيل له النقود والمعارضات حتى اضطره الى اغلاق باب المناقشة . وكان زكي مبارك قد استهلها استهلالا عنيفا في الرسالة (يناير سنة ١٩٤١) فقال : الى الاستاذ السباعي بيومي :

نشرت الرسالة كلمة بامضاء محمد فهيم عبيد ، عن كلام وقع منك ، وأنت تحاضر بمدرسة دار العلوم ، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي ، بما لايليق . فان كان ذلك الكلام لم يقع منك ، فانفه في العدد المقبل . وان كان وقع منك، فسارع الى الاعتذار ، ابقاء على ما بيني وبينك من وداد . فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء . والى أن يثبت أن الراوى افترى عليك أعلق غضبي على ما بدر منك . فقد كنت أظن أنك تعترف بأن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق . وسنرى كيف تجيب أن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء . . »

وفي العدد نفسه من الرسالة نشر كلام لطالب من دار العلوم ، يقول فيه : ان الاستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي الا أنه كان يملكه الغرور . وعلق زكي مبارك على ذلك بقوله « سيرى صديقنا السباعي أن تهذيب الكامل لم يكن الا خيانة أدبية . وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب » .

ودارت المساجلة على النحو التالى :

السباعي : ما أحبها الى نفسي خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة بيني وبين صديقي الدكتور . فان في الخصومات الادبية للمتخصصين مجالا واسعا للبحث والتدقيق .

زكى مبارك : هذه طلائع غزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع الى وضع • ثم قال انه لن يصفح عنه أو يشتغل محررا متطوعا بمجلة الرسالة ثلاث سنين وسأقهره كما قهرت أخا له من قبل علـى أن يشتغل محررا متطوعا بجريدة البلاغ ثلاث سنين « امثلى يخاف عواقب الجهر بكلمة الحق • وقد قضيت دهرى ممتحنا بعداوات الرجال ؟ »

السباعى : قال زكى مبارك ان الأستاذ السباعى له حقوق ، وما كنت أفهم الآن تلك الحقوق انما هى حقوق الصداقة ، فأنى ما زلت بهاحفيا وعليها حريصا ولكنك جعلتها ياصديقى « اننى كنت دائما من أنصارك » وليس لمثلى أن ينخدع بخدعة الصبى هذه تسوقها اليه ، فالحقيقة المرة التى أسمعك اياها بعد أن طغيت زمانا ولم ترد ، أنك ماكنت فى يوم زعيما فى الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار • وانما زعامتك نسيج عنكبوت ، حكته من حوله ، وتركك الناس تلهو به وتلعب •

• جعلت عنوان كلمتك الهجوم الأثم على الشيخ سيد المرصفى • وهذا امر غبت عنه ولم تشهده تخيف أقدمت عليه قبل أن ينجلى لك • واذا سوغت تطاولك ان تسميه هجوما فكيف وصفته متسرعا بالاثم فكتب الآثم بما وصفت •

• انى بهذه الخصومة جد مسرور • لأنى سأعرضك على الجمهور على حقيقتك التى غشيتها ما غشيتها • وتسامح الناس معك فيها ما تسامحوا وسيكون أول كشف لك فيما عملت واقعا على (زهر الآداب) (١) لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت فى (تهذيب الـكامل) (٢) ـ الذى عددته جناية أدبية •

• أنا لم أكن أعرف أن اللغة العربية عنيفة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمتك الثانية • وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد الى اللحد • فمن واجبى أن أرحب بمن يعلمنى طرائق الباب •

---

(١) كتاب زهر الآداب الذى حققه الدكتور مبارك •
(٢) كتاب تهذيب الكامل الذى حققه السباعى بيومى عن الكامل.

• ان نظرية « فن المقامات » ــ التي ادعاها الدكتور مبارك ، والتي تقول بان بديع الزمان ليس هو مبدعها ــ وانما كان متأثرا بابن دريد الذي انشأ هذا الفن • هذه النظرية ليست جديدة ، وانما هي مأخوذة من زهر الآداب • وان كل رجال الأدب العربي يعرفونها ، قبل أن يعلن زكي مبارك انه كشفها (وكان زكي مبارك قد ذكر أنه أول من كشف النظرية وأنه سجلها في مقال له بالمقتطف (أبريل سنة ١٩٣٠) وكان من أثر ذلك ان ثارت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي معركة قلمية ، ثم قال مبارك : ان السباعي بيومي سرقها من كتاب النثر الفني •

• تدعي أن صديقا عزيزا قال لك : ان الاستاذ السباعي كان في أحيان كثيرة يجعل مقالاتك من موضوعات الدرس بدار العلوم ، وذلك من شواهد الاعجاب • ويظهر يا دكتور ان هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له • فهو قد أضلك • وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم ولو حدث ما سميت دار العلوم •

• تقول انك لن تصفح عني أو أشتغل محررا متطوعا في الرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لي بالتهديد • فما أنا ممن يغيرهم التحرر ، ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون لأني أكتب للكتابة ، لا طمعا في مال » •

وبعد أن وصلت المعركة الى هذا الحد •• كتب زكي مبارك مقالا صغيرا في البريد الأدبي للرسالة عنوانه (خصومة لا عداوة) قال فيه «ان بعض كبار المفتشين أراد أن يقف الجدال الذي أثاره في وجه الأستاذ السباعي بيومي وأنا أجيب هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة لكف الشر ، بيني وبين من أخاصمهم بقلمي لا بقلبي • فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمت رجالا أعزاء لم يكن يسرني ان يفصم القلم ما بيني وبينهم من عهود • وانصافا لنفسي أقول أني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم • فأنا قد أخاصم ولكن لا أعادي فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني الى أرباب الضغائن والحقود • وأنا اتهم بالقسوة والعنف بغير حق ، فما كان

من هيمى فى كل ما أثرت من المجادلات الا ايقاظ الروح الأدبى واللغوى أما ايذاء الأدباء والباحثين فهو معنى لايمر بخاطرى • لانى أرجو دائما أن يكون الهدم فى عنفه من صور البناء » •

ولكن مغلقا كتب فى الرسالة يقول ان « زكى مبارك » احتج بالأفاضل الذين تدخلوا ، للانسحاب من المعركة التى أثارها • ولكن اذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليفتخر غير ملوم من أحد • وأن وساطة هؤلاء كانت منصبة على « أسلوب الجدل » لاعلى موضوعه • أما الفحص عن الحقيقة وتصاول الأقلام فى الموضوعات الأدبية والعلمية فليس لهم عليها اعتراض • وقالت الرسالة ان مقال السباعى بيومى وصلها وهيأته للنشر • ولكنها امتنعت بعد أن ألقى أحد المتناظرين بالقلم ••

وعندى أن هذه أول معركة انهزم فيها مبارك • وهى أول معركة لاقى فيها مناضلا عنيفا •

مع العقاد

وكان لزكى مبارك مع العقاد معارك • ولكنها ليست فى عنف معاركه مع أحمد أمين وطه حسين •• بل تبدو فيها آثار الترفق •

ولكن زكى مبارك على طريقته يكشف عن رأيه فى شخصية العقاد فيقول (١) ، ان له شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف • فالعقاد الكاتب السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت • فهو من أبناء السماء عند قوم ، وهو من أبناء الأرض عند آخرين •

أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع •

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا فى حال واحدة • حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين • أما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية العدل والسداد وقد يصل به الرفق الى المبالغة فى اظهار المحاسن واخفاء العيوب •

(١) ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ ـ الرسالة •

وقد شاع وذاع أن العقاد رجل حقود ، وهو كذلك ، فالحقد من كبريات الفضائل فى بعض الأحايين ، والرجولة الحقة تفرض الشجاعة الحقة ، ولا تتم الشجاعة لرجل الا اذا جاز ان تصل به أحيانا الى حد التهور والجنون ، وما قيمة القلم اذا لم تخز بسنانه عيون المتعالين والمتعاقلين من حين الى حين « وما حظ الأمة فى أن يتخلق جميع أبنائهـا باللطف والظرف .

وانحراف العقاد فى كتاباته السياسية والنقدية يشهد بأنه سليم الشخصية وللسلامة هنا مدلول خاص هو اكتمال الحيوية والاحساس ، فالعقاد يصادق بعنف ، ويعادى بعنف ، فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين ، وأعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين ، وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه ان أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق ، أما أعداؤه فهـو لهم بلاء وعناء ، وهو يلقاهم فى السر والعلانية بأقبح ما يكرهون » .

وهكذا يصل زكى مبارك الى أن يقول فى العقاد كل ما يريد أن يقول مع هالة ضخمة من التقدير .

ولكن زكى مبارك فى سنواته الأخيرة ، وفى ابان أزمته لا يلبث أن يكشف بعض الحقائق الخافية (٢٨ من يناير سنة ١٩٤٧) ـ البلاغ . فيقول :

« زعم الأستاذ العقاد أن سعدا خلع عليه لقب الكاتب الجبار ، والعقاد كاتب بلا جدال ، وشاعر من أكابر الشعراء ، وله فى نفسى منزلة عالية ، حفظه الله من جميع الأسواء ، ولكن الكاتب الجبار الذى عناه « سـعد باشا » هو عبد القادر حمزة باشا ، كما تشهد بذلك مذكرات محمد كامل سليم ، سكرتير سعد زغلول » ، وقد أوضح مبارك ذلك بعنوان (نسـجل التاريخ قبل أن يضيع التاريخ) فى ذلك الحين ، من كتابة هذا المقال .

هذا ، وقد كان الاستاذ محمد كامل سليم ، السكرتير العام ، لمجلس الوزراء ولهيئة المفاوضات ، خير منصف ، للتاريخ ، وللجميع ، وللقـومية المصرية ، التى لا تشوبها شـائبة الحزبية ، كما كان وما زال ، أديبا ، ذواقة بحاثة عف القلم واللسان ، ذا بحوث وكتب قيمة ، وآراء حصيفة ،

ووطنية صادقة ، فأحبه الجميع ، كما كان محبوبا شقيقه المرحوم : حسين كامل سليم •

زكي مبارك مع سلامة موسى

جرت بين زكي مبارك وسلامة موسى مساجلات • كان فيها زكي مبارك لبقا غاية اللباقة • ولم يكن عنيفا • فهو يبدو فيها حريصا على صداقته مع (سلامة) • غير ان الخلاف كان بينهما واسع الشقة • فسلامة لا يرى أن هناك قيمة لدراسة الأدب العربي القديم • وزكي مبارك يرى كل مجدة في هذه الدراسات ••• لذلك فهو يناقشه على هذا النحو •

كنت بينت لسلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب اليه من الدعوة الى الاقلال من العناية بالأدب العربي • وكانت حجتي أنه يعني الأدب الفرعوني مع أنه أدب موغل في القدم ••• فكيف يلام رجل مثلي اذا قصر عمره على درس الأدب العربي ، مع أنه أدب حي ما زال يسيطر على أذواق الناس في المشرق والمغرب • وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التي تلقت الاسلام ونشرته في العالمين •

وأعود فأقرر أن لدراسة الأدب العربي غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية • وأبدأ فأنقض حجة الاستاذ سلامة موسى اذ يرى أن غاية الادب هي توجيه الحياة الاجتماعية وأن الأدب الحديث أنفع دائما من الأدب القديم •

ثم أرد عليه فأقول : الادب كما يكون ضربا من الاصلاح يكون نوعا من الوصف • وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية • وقد يصير دستورا تخضع له الحياة الاجتماعية • فان كنت في ريب من ذلك فراجع كتب الادب في القديم والحديث ، وستراها سجلات دونت فيها أزمات القلوب والنفوس والعقول • والكتاب الاجتماعيون يعيشون في عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين • ولذلك نراهم يهتمون بشئون لا يلتفت اليها أحد من الشعراء • والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعي ، وليس

بأديب • واللغة عنده ليست الا أداة تفاهم • وكل تأنق فى العبـــارة يبدو لعينيه وكأنه لغو واسراف •

والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسا مثل رأس الاستاذ ســــلامة موسى •

•• والذى يهمنى أن أقرر أن الأديب لا يشبوقه غير المعانى • وهـــو من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية ، وهو لا يعـــنى بالمشكلات الا من الوجهة الانسانية • أما الأوضاع الاجتماعية فموقفه منها موقف الوصاف الذى يشرح المحاسن والعيوب •

وهذا لا يمنع أن يكون الاديب من أهل الكفاح وهـــو حين يكافح يصبح قوة خطرة فى الحياة الاجتماعية لأنه يحلق دائما فى الأجواء العالية ولا يقنع بالقليل •

ولا يجد زكى مبارك أمامه بعد ذلك الا أن يهاجم سلامه موسى بعنف « أن اهتمام الاستاذ سلامه موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقـــات فتات ، خطفه من موائد الاجانب الذين كتبوا عن الاشتراكية • فليس فيـــه أصالة فكرية • أما أعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية فهى الأساس لزعامة مصر فى الشرق • ان تجنى سلامه موسى على مؤرخى الأدب العربى بغير حق ، دليل على أنه : جاهل ، وجهول • وجهالة • ومجهال ، الى كل صيغة من صيغ المبالغة انه يعادى لغة العرب بسبب بســـيط : وهو أنهـــا لغة القرآن المجيد •

بين زكي مبارك وشوقي

يصور زكي مبارك في هذه الكلمة قصة خلافه مع شوقي بشأن مقدمة ديوانه « الشوقيات » .

« (١) كانت الصلة قوية بيني وبين شوقي سنة ١٩٢٥ . وكان قد شرع في طبع الشوقيات . فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة ما زلت أذكر نصها بالحرف « سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية »

وبعد أيام تلطف فأهدى الى ما طبع من الجزء الأول ، مصححا بخطه لأكتب في تقديمه ما أريد .

ورجعت الى نفسي ، فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق . وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي ، مع شاعر ما زال في الميدان . وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه : اني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء . فاني أخشى أن أقول فيها كلاما بعيدا عن هذه المقدمة ان رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الابتعاد . وهو ، بارك الله في عمره ، لا يكف عن مساورة الشعر والخيال ، في صباح ، أو مساء .

وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب ، قابلت الدكتور « طه حسين » ، وأخبرته بما وقع . فغضب أشد الغضب ، وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟ لو طلب شوقي مني ما طلب منك وأنا خصمه ـ لاستجبت بلا تردد . « فشوقي في رأيي أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي »

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من الشوقيات وبه مقدمة الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) . ونادى المنادي بوجوب الاحتفال بتكريم أمير

(١) الرسالة ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٤١ .

الشعراء ، احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية وبرعاية سعد زغلول .

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٧ . ويقول الشعراء والخطباء في شوقي مايقولون باطناب واسهاب

ويتلفت الدكتور هيكل ، كاتب مقدمة الشوقيات ، فيرى من الواجب اصدار عدد خاص من السياسة الاسبوعية لتكريم شوقي . ويدعو للاشتراك في تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث . ويرى شوقي من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات ، كان منها مقالي . ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة للشوقيات .

كانت السياسة الأسبوعية في تلك الايام توجه التيار الادبي في مصر وفي سائر البلاد العربية . وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل هذه هذه المجلة يعتبر تزكية أدبية تفوق الوصف . ولكن شوقي لم يرتح كل الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو قليلا من مقام أمير الشعراء . غضب شوقي على ذلك العدد من السياسة الاسبوعية . وكان شوقي اذا غضب ، غضب معه ألف مرتزق من ادعياء الأدب . فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زورا بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكل في السياسة الأسبوعية مقاله المأثور « أخلاق شاعر الأخلاق » . وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقي ، وتوعده تواعدا أليما . فقد نص على أن شوقي لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال .

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل ، لو كتبت مقدمة الشوقيات .

« ثم ماذا ؟ ثم ذهب شوقي الحقود . وشوقي الذي قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان ويقى شوقي الشاعر شوقي الذي رثاه المازني يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال :

فسد ما بيني وبين شوقي بعد إعتذاري عن كتابة مقدمة الشوقيات

فانقطعت عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضا ، فلم يعد يسأل عنى وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره ، ودعا اليها أساتذة الجامعة المصرية ، ولكنه تجاهل اسمى ، فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصناع •

وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين ، فحرضونى على ايذاء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا أن مال شوقى لا ينال بغير الهجاء • وما أنا ومال شوقى أو غير شوقى هل منحنا الله نعمة القلم الصوال ، لنبتز الأموال ؟

ان شوقى الحقود حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور •

شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده أستاذ الاساتذة فى ميدان القصيد فمن الواجب أن أحفظ عهده الى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمى أو لسانى •

مع لطفى جمعة

كان بين زكى مبارك ولطفى جمعة معارك ، هاجم كل منهما الآخر أعنف الهجوم • وكان من أهم هذه المساجلات معارضة لطفى جمعة لآرائه فى النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى • وقد رد عليه فى عنف ، وقدم بين يدى رده بهذه الكلمات :

« أما لطفى جمعة فأنا عائد اليه ، وماض فى مقارعته ، ليعلم انى أصلب عودا من أولئك الرجال الذين استلانهم فصال فى نقدهم وجال • وألف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد طه حسين فى كتابه عن الشعر الجاهلى) وسأريه أن الأدب أصعب مرتقى وأعز منالا من أن يمتلك ناصيته من يقرءونه فى أوقات الفراغ ••• قد تكون التى يحاول أصحابها أن يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدوها عن مداورات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاءون » • وقد حدث أن دعى مبارك وجمعة الى مناظرة فى كلية الآداب بالجامعة المصرية (مارس سنة ١٩٤٠) موضوعها (انما يزدهر الأدب فى عهود الفوضى الاجتماعية)

وقد خرج زكى مبارك من المناظرة على حد قوله « ما ذكرت هـذه المناظرة الا جزعت وتولانى الندم على الاشتراك فى جدال يضيق به صدر الغالب والمغلوب لأنه لم يمض هفوات مزعجات »

ذلك أن «زكى مبارك» حمل لواء الراى الذى يقول بازدهار الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية ، فواجهه الجمهور بالمعارضة .. وعنده أن المناظرة لم تحمل المعنى الفعلى لهـا .. « وهو ان من يحمل جانبا من الجانبين لا يعنى انه من انصار هذا الرأى . وانما الأمر ان يأخذ كل مناظر نصيبه من المناظرة ليعرض المتناظران ما ذهبا اليه على الجمهور ولا يعنى هذا الايمان بالرأى » . ولذلك يعجب كيف قوبل بالزراية حينما تقدم لهذه المناظرة ... وصور زكى مبـارك موقفه من المناظرة فيقول ان اتحاد كلية الآداب اقترح عليه الموضوع ومضى يبحث عمن يناظره .. ثم علم أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا المشاغب الأكبر على حد تعبير الدكتور هيكل (وهل من العقل أن يتقدم أحد الاساتذة لمناظرتى ، وقد شاع وذاع أنى أكبر المشاغبين ؟ ..)

« وهى تهمة ظالمة . ولكنها حقت على ، وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ، ولكن بلا نفع ولا عناء « لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان .

وأخيرا ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرنى . ولكن أى رجل ؟ كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت فى نفسى هى مكرمة من مكرمات الاستاذ لطفى جمعة . فقد هداه القلب الطيب الى أننى رجل ينهاه الأدب والذوق عن الاسـتخفاف بأقدار (الزملاء) ، ويميل الأستاذ لطفى جمعة على أذنى ، وهو يقول :

أهنئك على أن عرضت سمعتك للأراجيف فى سبيل الحق . ثم ابتسم وانتظر أن يصنع ما صنعت ليظفر بتهنئتى . وينهض الخصـم الشريف ، فيسلك فى تحقيرى جميع المسالك ، ويدعى أننى فوضوى أثيم . وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائى . ويعلن عجبه من أن يكون لى كتاب باسم (التصوف الاسلامى) فى مجلدين كبيرين ، مع أنى من أنصـار

الفوضى الاجتماعية • ويقضى فى تحامله وتجنيه ساعة وبعض ساعة ، وأنا ساهم مطرق ، أكاد أذوب من الخجل والحياء •

وأعود الى نفسى فأندم على تعريض سمعتى لهذا الضيم البغيض • وأعرف أنى أخطأت فى قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف • وأعاهد الله على اعتزال الناس الى يوم الممات • وما الذى يغرينى بصحبة بنى آدم ، وليس فيهم غير شجا الحلوق وقذى العيون •

لقد أقمت دارى على حدود الصحراء ، لآنس بالليل ، ولأسى أننى موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجى موات البادية حين أشاء •

لطفى جمعة الرجل الفاضل الذى أثنيت عليه فى خطبتى ، يقضى فى شتمى ساعة وبعض ساعة • تلك احدى الأعاجيب ان كان الفكر فى زماننا من الأعاجيب •

أين أنا من دهرى وزمانى • أمثلى يشتم جهرة فى كلية الآداب ، وقد حملت على كاهلى أحجار الاساس • هوذلك ، وعلى نفسى أنا الجانى فقد عرضت سمعتى للجدل الذى يسمونه مناظرات • وينتهى الاستاذ لطفى جمعة من خطبته ، وقد مزق آرائى كل ممزق • وقد شفى صدره منى • وقد كانت بينى وبينه تارات وضغائن وحقود (١) •

---

(١) من معارك زكى مبارك التى واجهته ولم يشترك فيها هى معركة سنة ١٩٤٤ قام بها محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة وامتدت من فبراير الى سبتمبر سنة ١٩٤٤ لم يرد على ما كتب عنه الا بكلمات قصيرة فى هوامش الرسالة •

الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة

مبارك مع الزيات

كانت فترة عمل الدكتور مبارك في الرسالة هي أخصب فترات حياته الادبية . فقد كتب بها مدة طويلة . وقد تولى مبارك الاشراف على مجلة الرسالة أغلب فترة الحرب العالمية الثانية على حد تعبيره اذ يقول : « حين خرجت أول صفارة من صفارات الانذار طار الأستاذ الزيات الى المنصورة ومعه الشيخ محمود زناتي . وبقيت وحدى أشرف على تحرير الرسالة بدون مكافأة لأن هذا العمل كان في نظرى خدمة وطنية » .

وقد أشار زكي مبارك الى أن قلمه تجلى في الرسالة الى « ألطف حدود التجلي » فقد كان يكتب في كل عدد ثلاث مقالات ، منها مقال باسمه . ومقال باسم كاتب كبير ، ومقال باسم الأديب المجهول .

ولكن زكي مبارك ترك الرسالة بعد أن وقعت بينه وبين الزيات خلافات متعددة من بينها خلافه بشأن دعوته للصفاء بين الأدباء وبين توفيق الحكيم الذى هاجم الزيات بحجة أنه حاد عن رسالته في الرسالة : وفي ذلك يقول الزيات موجها خطابه الى توفيق الحكيم .

« يقول (١) انى حدت قليلا عن رسالتى في الرسالة . وقليلا هنا معناها زكي مبارك . وزكي مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لابد منه ، ولا حيلة فيه . هو الملاكم الأدبى في ثقافتنا الحديثة أما عنفه وشماسه فهما الصبغ المميز للونه . ولو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقى منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وحمار الحكيم .

(١) الرسالة ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٢ .

على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتى قد بحت من طول ما أهابت به وهو فى قفازه السنتريسى يهـــدر فى المجال بين الجبال ، مغضيا بعض الاغضاء عن قواعد الملاكمة .

وزكى مبارك بعد هـــذا سليم الصدر ، جريح القلب ، رياضى الروح ، لا يتحرج أن يطلب الى صديقه فى مقال هـذا العدد أن ينصره ظالما أو مظلوما ، فى حدود تفسيره الخاص .

وقد رد زكى مبارك على الزيات يعلن مقاطعته للرسالة :

صديقى الزيات : حتى أنت قد خاب أملى فيك . أنا الذى دعـا الى الصفاء بين الأدباء كمـا رأيت ، وبذلت فى ذلك ما بذلت ، ورددت الحقوق الى أصحابها . وأديت الواجبات على تمامها ، وأزلت من النفس أسباب الكدر ، وطهرت القلم من أدران البشر .

.. ليكن اليوم آخر عهدى بك وبالرسالة والأدباء .. لن أكتب شيئا لك ، ولن أذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر . ســأصمت عن أشخاصهم صمت القبر ، لأنصرف الى الانتاج وحده ، من حيث هو انتاج ماضيا فى اصــدار كتبى لقرائى الأوفياء . فلا حلم فى صفاء ، ولا أمل فى مودة بين أدباء .

وخلاف آخر وقع بينهما ـ الزيات وزكى مبارك ـ فقد اختلفا مرة مرة بشأن مقال لمبارك عن الرسول .. فلما استدار العام طلب الزيات من مبارك مقالا لعدد الهجرة وقال له لا تكفر كما كفرت فى مقال الســنة الماضية » .

ويقول مبارك : « سبحان الله . وأنا كفرت فى السنة الماضـية يا زيات ، هل تصدق أن من خصومى من يدرك من عظمة الرســول ما أدرك ؟ » . ان بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدنيا والناس فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لايتقدمون لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذى أعرف وتعرف .

ان من خلق الله من يأكلون الشهد بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم ان أشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح ؟ ..

ويسجل زكي مبارك أن الزيات أخرجه من الرسالة بعد أن أتاح الفرصة للكاتبين محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة فى نشر نقدهما لكتابيه « النثر الفنى » والتصوف الاسلامى » .

ولكن الزيات مع ذلك كان ينظر الى زكي مبارك نظرة تقدير .. حيث يقول « ان كنت قرأت ما ألف وكتب في النقد والمناظرة ، فستظنه خارجا من معركةبولاقية ، كان فيها شدالشعور ، ولكم الصدور ، ونطح الرءوس ، وتمزيق الملابس .

وان كنت قرأت له التصوف الاسلامى فستتخيله ما زال فى سنتريس ، مريدا للشيخ الطماوى الشاذلى . يعكف على الاوراد ، ويشارك فى الانشاد ، ويحمل الابريق ، وينقر الدف فهو أشعث ، أغبر ضاو ، من أثر الذكر والصوم والعبادة » .

وبالرغم من هذه السخرية به ، فزكي مبارك ، عنده ـ : « انأردت كلمة الحق » مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهمفى الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالله ، وأحلوا أنفسهم المحل اللائق بالصراع .

وهو أحدالأدباء الذين لم يقممجدهم الأدبى على الظروفوالحظ .

وان كان الحظ قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود : لأنه يسعلم بكدح قلمه ، وتقدم بفضل جهاده ،ثم كانت الظروف التى تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة .

ومن أثر ذلك كان هذا الاعلان المستمر عن نفسه وعن عمله وهى صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلموجلال الخلق . ولكنها أتت اليه منوراء الوعى على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه .

ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ، ويحذقشيئا منالحياةلاتقى كثيرا مما جرتهعليهبداوةالطبع وجفاوةالصراحة

ولكن هذه الأغراض النفسيه ستفنى فيه وفى الناس ، ويبقى ذلك المجهود العلمى الضخم الذى قدمه الى الادب العربى ، فى شتى مناحيه، شاهدا على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة . »

زكى مبارك وأحمد لطفى السيد

هل تقف مساجلات احمد لطفى السيد مع هذا الكاتب ؟ ما أظن ، فان « زكى مبارك » لم يترك كاتبا دون ان يصاوله ويناقشه ويعترض طريقه بالراى ، ويعلن موقفه من ادبه وأسلوبه . قال زكى مبارك عنه : « فأحمد لطفى السيد لا يؤخذ عليه الاعيب واحد هو أنه لم يستهدف لأى خطر فى سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان . وبذلك خلت آثاره من اللهب الذى احترق به المبدعون من أقطاب الفكر والبيان » .

ووصف زكى مبارك أسلوب لطفى السيد بأنه : كان بطىء الحركة الى حد الجمود . وهو خال من البشاشة البيانية . وأنه كاتب متعمل ، متكلف وهو يجر كلامه بتثاقل وابطاء ، وأنه كاتب هيوب . والحذر المأثور عنه هو الذى قضى بأن تمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج .

وقال زكى مبارك « ان خطبة أحمد لطفى السيد هى لفظ مركب مفيد بالوضع العربى ورد على لطفى السيد حين أشاد بالجامعات الانجليزية وقال عنه : « انه لم يدخل فى حياته جامعة انجليزية » وأن السر فى دفاعه عن الانجليز أنهم لا ينظرون بعين العطف الى من تثقفوا ثقافة فرنسية ، فهو يريد أن يشهد العالم على أنه لا يؤمن بغير الثقافة الانجليزية . وانما يفعل ذلك ، رغبة فى اقناع السادة الانجليز بأنه يصنع فى هواهم ما كان يصنع عمر بن أبى ربيعة ، اذ يقول :

أحب لحبك من لم يكن   صفيا لنفسى ولا صاحبا »

زكى مبارك والرافعى

• وهاجم مصطفى صادق الرافعى (١) عندما كتب مقالاته « صعاليك الصحافة » فقال :

« نأخذ فى حساب الأستاذ الرافعى ، الذى توهم أن الصحافة أصبحت فى أيدى الصعاليك • مع أنه مدين للصحافة أثقل الدين • ولولا الصحافة لظل قلمه يمشى مشية المقيد فى الوحل ، كما كان منذ سنين •

•• أصدر الرافعى كتابا أسماه « وحى القلم » • وطاف به على الجرائد والمجلات ، وكان ينتظر أن تقوم الدنيا وتقعد ولعله كان يرجو أن تزلزل الجبال • فلما رأى الدنيا على حالها من الرزانة والسكون ، راح يهدد ويصخب ، ويتعقب ويتلوم ، ويبغى ويستطيل • ولم يحسب للعواقب أى حساب ••• أكان ينتظر هذا الكاتب أن يترك الصحفيون ما يشغلهم من شئون المجتمع ، السياسية والاقتصادية ، ليفرغوا لكتابه • فلا يكون لهم حديث سواه •• ؟

•• ما رأيك اذا وقف لك أحد الصحفيين فى معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الانشاء والتأليف ؟ • وما رأيك اذا جازاك أحد الصحفيين ظلما بظلم • وقال انك تعيش فى غير زمانك • وأن أسلوبك ليس الا صورة من العوج والالتواء ؟ »

مبارك وأحمد زكى (باشا)

• وهاجم أحمد زكى (باشا) شيخ العروبة • فقال :

« كنا نظن أن الادب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة أدب جديد رفه به أيام الشيخوخة • ولكن يظهر أن هذا الأدب صفة من صفاته لعهد الطفولة ••• فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه

---

(١) المصرى ١٩٣٧ •

فى المدرسة الثانوية (التجهيزية) « ما عندكش مراية ؟ » • وكان فى مقدورى أن أعامله بمثل ما عامله به الأســـتاذ الكبير ، المرحوم محمد مسعود ، مدير المطبوعات ، سابقا • ولكنى رفقت به لشيخوخته ، وقدرت له ماضيه فى خدمة اللغة العربية • والله يشـــهد أنى عصيت جميع الناصحين ، فما رآنى أديب ألا حذرنى عواقب ملاينته • وقد دعـانى الى مهاجمته ناس كرام يعرفون طباعه فآثرت الرفق ، رعاية للواجب ، واحتراما لماضى (خم النوم) حرسه الله (١) » •

وكان موضوع الخلاف « بردة البوصيرى »

مبارك والبشرى

• والمرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » رجل صخاب ضجاج يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد • هل سمعتم بالرحى التى تطحن بها القروية ، هو البشرى فى بعض نثره القعقاع • اذ يندر أن تجد فى نثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف ••

وهو كاتب يذكرك فى كل سطر بأنه أديب يتصـــيد الاوابد من مجاهيل (القاموس) واللسان والاساس •• »

مبارك والمازنى والعقاد والبشرى

• « والمازنى من كبار الشعراء • ولكنه مشغول بالكتابة فى جميع الأوقات ، لجميع الأحزاب • ولم يجد الفرصة للغناء • وقد جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية • فلم يعرف قيمة الصبر فى الانحياز الى احدى الجهات ، فى زمن لا يعيش فيه المفكرون الا بأســـــندة من العصبيات السياسية والاجتماعيـــة •• ولكنه يذكر المازنى فى مـــكان آخر (٢)

---

(١) ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٢ ــ البلاغ •

(٢) الرسالة ٢٦ من يولية ١٩٤٣ •

فيقول : « آنا لا أبالى نقد الدكتور طه حسين لأننى نقدته فى بحثه ، مقالة مقالة . فمن السهل ان يقول الناس انه ينتقد وفى نفسه اشياء وآنا لاأبالى نقد الأستاذ العقاد ايى لان بينن احقادا تنشر فى حين ، وتطوى فى بعض الأحايين وكأن العيون ترى قبل عشرين سنة انك طويل جدا وانالعقاد قصير جدا فشاء برك بصديقك ان تزعم ، آنك القصير ، وانه الطويل . وما زلت تبدى وتعيد ، حتى آمن الناس بقولك ، وظنوا أنك قزم ، وأن العقاد عملاق . . »

ولكن هل كان هذا النقد الا شرا يضيـــفه زكي مبارك الى ما في حياته من احساس بالتجاهل والنكران ؟! ...

لقد أغضب كل الناس ، ولم يترك فى قلب واحد من هؤلاء ، لمحة من لمحات الرضا آو الود ...

بل ان اندفاعه فى النقد كاد يخلق معركة حقيقيـة . فقد دفعـــه اندفاعه الى آن يهاجم الشيخ « سليم البشرى » شـــيخ الأزهر ، ووالد عبد العزيز البشرى ، ويقول ان شرح نهج البردة ، المنسوب اليه ، كتبه ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى . وان الشيخ الكبير ، رحمه الله ، راجعه وحرر فيه بعض الأبواب ، فظن عبد العزيز وأخوته ، أن هذا الكلام فيه معنى اتهام والدهم بالتزوير .

ولقد رسم زكى مبارك صورة لهذه المسألة فى كتابه « الأســـمار والأحاديث » صفحة ٣١٨ تحت عنوان « الاستهداف للقتل فى ســـبيل النقد الأدبى » حتى ان عبد العزيز البشرى اتصـــل به تليفونيا ، وقال ان اخوته غاضبون لأبيهم ، وأنهم مستعدون لان يدبروا (أشياء شنيعة جدا) وأنهم قد يفكرون فى قتل زكى مبارك علىباب داره .

وقد رد مبارك عليه بقوله « اننى لا أخافك ولا أخاف أخوتك ، ولو شئت ، لسقت فى حربكم ألف نبوت من سنتريس .. »

وموقف آخر ، عرض زكى مبارك للمتـاعب ، يوم كتب مقـــالا فى « مجلة الفيوم » تحت عنوان (يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطية)

وظن أهل الفيوم انه انما يعنى المرأة ... فحملت عليه صحيفة أخرى حملات واسعه ، وهاجمته هجوما عنيفا . وهكذا يبدو فلم زكى مبارك كما يقول دائما « امضى من السيف ، وأعنف من القضاء » ولزكى مبارك عبارات فى النقد . جد غريبة ، وجد عنيفة . فهو يقول : « سترى كيف أرجع اليك رجعة السيل فمن عندى كلمة قاسية لا يجرؤ على تذاوبها رجل غيرى ... عندى صواعق سأصبها فوق رأسه ان حدثته نفسه بمصاولتى ... أنا لا أخاف الجهر بكلمة الحق ... الحق الذى يعرفه الجميع اننى رجل مشاغب .. ما أنكر أننى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب أعدائى ، ولا عيب فى ذلك ، فالجروح قصاص .. اننى غامرت فى أكثر من ألف معركة أدبية ثم انتصرت فيها جميعا . فليس فى مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول فى السر والعلن انه انتصر على زكى مبارك » وقد اشترك مبارك فى معارك متعددة غير التى رسمنا صورا موجزة لها مع أحمد زكى (باشا) (نشرت فى باب شيث بن عربانوس) . ويوسف الدجوى ، وحسن القاياتى ، ومحمد عبد المطلب ، الشاعر المخضرم ، عليه رحمة الله ، ومحمد مسعود ، مدير المطبوعات سابقا ، وعبد الله عفيفى ، الشاعر .

المعلم الذى أثار المتاعب

بدأ زكى مبارك حياته معلما . وظل يعلم فى هذا الحقل ، حتى وصل الى منصب مدرس فى كلية الآداب . وعمل أستاذا فى دار المعلمين العالية فى بغداد . ثم عمل مفتشا للتعليم فى وزارة المعارف . وكان مختصا بالتفتيش على المدارس الاجنبية . وكان من قبل رئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية . وقد جمع بين العمل فى الأدب ـ والصحافة والتعليم .

ولكنه كان فى كل لحظة لا ينسى أنه واحد من المفكرين الذين يحملون القلم والذين يستطيعون عن طريقه أن يسددوا الضربات .. وكان يهدد دائما بأنه يستطيع أن يفضح خصومه على صفحات البلاغ ..

ولذلك كانت له خصومات ، مع وزراء المعارف ، أمثال السنهورى واسماعيل القبانى ، ومحمود فهمى النقراشى ••• وقد نقله السنهورى الى دار الكتب ، فكتب فى البلاغ يقول :

« لن أطيع أمرك ، الا يوم يقوم الدليل على أنك وزير ، فقد أسلمت أمور الوزارة الى (قبانى بلا ميزان) – يقصد (اسماعيل القبانى) الذى صار وزيرا للمعارف فى مستهل عهد حكومة الثورة • « وأراد الوزير – وهذه عبارة مبارك – أن يقيم الدليل على أنه وزير بالفعل ، فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتى » •

وفى هذه الفترة الحرجة من حياته قاضاه بنك مصر ، لدين عليه ، وشركة مصر الجديدة ، وكان قد اشترى منها منزلا ••• وامتنعت وزارة المعارف عن دفع ايجار مدرسته بسنتريس المقامة فى منزله ••

وكان الغرض هو تجويع الرجل الذى عرف كرامة الموظف • ودعاه محمد حسن العشماوى (باشا) حينما عاد وزيرا للمعارف الى العودة : فقال له « لن ندخلها مادامو فيها •• »

ولاقى مزيدا من المتاعب ، حينما نقد خطبة العرش فى افتتاحية الرسالة وحقق معه وطلب اليه أن يعتذر على صفحات الرسالة • فقال : « لا أعتذر عن مقال ، كتبته ، وأناأعتقد أنه حق » • فألغى عقده معوزارة المعارف • وقال له الزيات : يعز على يا دكتورأنتخرج من عملكبوزارة المعارف ، بسبب مقال فى الرسالة ، وأرجو أن تقابل العقاد ، صديق النقراشى ، وقال العقاد ان النقراشى لن يستطيع اخراج زكى مبارك من التفتيش خوفا من ألسنة الجرائد الوفدية ، ولكنه سيتعقبه بالتفتيش لعله يجد تقصيرا يقضى بفسخ العقد •

وفى تلك السنة ذرعت فضاء الله من الشمال الى الجنوب • وفتشت جميع المدارس الاجنبية • وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل •

وجاء النقراشى وزيرا للمعارف ، وأمر السنهورى بمتابعة زكى مبارك ، فأخرجاه من الوزارة •

وهاجم زكي مبارك المرحوم « علي الجارم » • فقال : « انه كان كبير المفتشين عندما صدر قرار تعيينه مفتشا بالمدارس الاجنبية (سـنة ١٩٣٧) • وكان يضيق صدره من الشعراء ••• وقد نشر شـاعر قصيدة بامضاء (الجارم الصغير) • فأمر بنقله الى مكان سحيق • وقـد مدح المرحوم علي الجارم جميع الوزراء • وفي الخرطوم ألقى قصـيدة طنانة في مدح الانجليز • وقال « انه يغتـابني في كل مكان ، ثم يلقاني بالترحيب حين يراني »

وهاجم النقراشي • فقال : « كان النقراشي رئيسا للوزارة في آخر ديسمبر سنة ١٩٤٦ • والاقدار تخطيء أحيانا ، فيصير مثل هذا الشخص رئيسا للوزراء ، وقد ثار طلبة الجامعة ، فأصدر أمرا بأن يضربهم الجنود بالرصاص ، وكانت معركة حامية ، بين الطلبة والجنود ، فوق كوبري عباس ، بالجيزة • »

ويقول زكي مبارك انه عمل في دار الكتب في ٢٥ من ديسـمبر سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغاني • ثم دعاه الدكتور طه حسين لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرجته وزارة المعارف ، لأنه « موظف بعقد » ، ورأى السنهوري أنه ما زال ينتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربي بالمعهـد العالي لفن التمثيل ، فكتب السنهوري بخطه كتابا يقول فيه : ان التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت معزول • يقول زكي : « خرجت والدمع ينفجر من قلبي ، قبل أن يتفجر من عيني » • وأعاده المرحوم علي أيوب عندما جاء وزيرا للمعـارف الى دار الكتب ، ثم أعاده طه حسين الى التفتيش في وزارة المعارف •

ورجع الى التفتيش عام ١٩٥٠ في الدرجة الثالثة ، كما كان يوم عينه المرحوم علي زكي العرابي (باشـا) عام ١٩٣٧ وكان اذ ذاك في حدود الستين •

ولعل هذا هو الذي كان يدفع المرارة الى قلم مبـارك • فقد كان يرجو أن يتحسن وضعه المادي بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة (التصوف)

التى نالها من الجامعة المصرية فقالوا له : لايمكن أن تحصل على الترقية الا بعد طبع الرسالة . وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطية .. فكيف يطبعها وهو فقير الجيب « يقول فى التعليق عــلى ذلك : « حالى فى مصر حال عجيب . فقـد عشت دهرى مظلوما وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود .. »

« هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطينى غير مرتب مؤقت الى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ »

« هل يصدق أحد أننى لا أســتطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب المؤقت ، لئلا يشمت أعدائى ، ولئلا يعرف الناس أن رجـــال الادب فى مصر ، قد يعيشون عيش الفقة والاملاق ؟ .. »

« هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف فى مصر قدرت لى مرتبا لا يكفى أن يكون مصروف جيب . ولمن ؟ لرجل متهم بالغنى ، ولايصبح ولا يمسى الا وهو مطوق بأغلال من التكاليف .. »

ويصـــور زكى مبـارك عمله فى دار المعلمين العالية فى بغداد . فيقول : « خلعت عليهم ــ أى الطلاب ــ كل ما أملك من المعارف الادبية والفلسفية ، وعودتهم عادات حسنة ، هى الاعتماد على النفس . واقتحام أخطر الموضوعات ، ومواجهة أصعب المعضـــلات . وكنت أدعوهم الى احراجى بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية »

ويغمز زكى مبارك ويستطيل بأيامه « فى صحبة كلية الآداب التى أمضيت فيها مواسم شبابى ، يوم كنت فتى عارم العزيمة ، يؤذيه أن يقال ان فى الدنيــا كتــابا لم يطلع عليــــه . ويوم كنت مغمور القلب بأرواج الأمانى ، ويوم كنت أتوهم ان الجد فى طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الاعزاز والتبجيل ، ويوم كنت أخال أن الكفاح فى سبيل الأدب قد تنصب له الموازين . كنت طالبا ومدرسا بها من سنة ١٩١٣ الى ســـنة ١٩٣٧ ، ودرت معها من ميدان الاسماعيلية الى ميــدان الفلكى . ومن حى المنيرة

الى قصر الزعفران ، ثم الى حديقة الأورمان ، ولم يزاحم هواها فى فؤادى غير الأعوام التى قضيتها بكلية الآداب فى جامعة باريس .. »

ولعل هذا كله هو الذى جعل « زكى مبارك » ينوح صارخا من الظلم ويردد آهاته فى كل آن . فقد كان يحس فى كل لحظة أنه لم يأخذ مكانه اللائق به بعد ثلاث اجازات (للدكتوراه) وأربعين كتابا قيدت « صيحاته المكتوبة وأناته المكبوتة »

أيامه الأخيرة

لماذا تحطم زكى مبارك ؟

كان لابد لهذا الجهاد الضخم العصبى العاطفى المندفع ـ كما يطلق عليه زكى مبارك ـ ان ينفجر أو يتحطم .. فان هذا الرجل الذى كان يتحدث عن « العافية » ويقول انه لم ير الطبيب يوما ، ولم يرقد فى فراشه ، ولم يعرف المرض ، والذى كان ينتج فى خصوبة عجيبة ، ويصاول فى عناد عنيف ، ويسافر الى أوربا بلا زاد ، وله أسرة وأولاد ، ويحصل على ثلاث اجازات دكتوراه ، ويكتب خمسة آلاف صفحة فى عام واحد ، فى بغداد ، ويؤلف أربعين كتابا فى عشر سنوات ، ثم يجد نفسه مازال موظفا بعقد فى وزارة المعارف لا يأخذ مكانه الحق ، فى الجامعة أو فى مناصب الثقافة ... ويجد الهجوم يواجهه من كل ناحية ، والخصومات تدفع الأحقاد الى النيل منه ، ومناقشاته الأدبية ومساجلاته تتحول الى عداوات وتملأ الصدور بالكراهية له ، فاذا به يبعد عن كلية الآداب ، بعد أن يصل اليها . ويفصل من وزارة المعارف ، بعد أن يلحق بها . واذا به ينعى زمنه وحظه ، ويتحول الى اعصار يدور حول نفسه ويتحدث عن آثاره وانتاجه ، ويزدهى بهما ويفاخر . ثم اذا به يصل الى المرحلة العنيفة حين يحاول أن ينتج شيئا مثيرا ، فيتكلم عن الحب ، ويحاول أن يكشف النفس الانسانية فى جرأة ، ويهاجم المرأة ، ويثير الضجيج . فاذا لم يجد من ذلك كله ما يحقق له آماله فانه يجنح الى الخمر

والخمر أم الكبائر ، واذا به يسرف فيها ، واذا به يبتعد عن المجتمع ، واذا به يمضى أعواما مظلمة حزينة كئيبة ، لا يقرأ فيها كتابا ، ولا ينشىء بحثا . واذا بالمساجلات ، يريدها ، فلا يستطيع الدخول فيها . والكتاب ينقدون كتابيه الغاليين « النثر الفنى ، والتصوف الاسلامى » فذا هو غير قادر على أن يرد على المهاجمين ... واذا به يهتم بالالحاد والكفر .واذا هو عاجز عن مواجهة ما يكتبون .

واذا به يعود الى « البلاغ » ليكتب فصولا ضعيفة الاسلوب ، ليس فيها بيان زكى مبارك الرائع ، ولا فكاهته الحلوة ، ولا سخريته ، ولا قوته ، وعرامته ، وصرامته وانما هى ذكريات تنثال على ذهنه من وراء الوعى ، فيكتبها فى أسلوب ساذج ، وعبارات مفككة ، ويعاود عبـــارته التى تقول « نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ » وما تزال الخمر تقصيه من ميدان البحث والفكر ، حتى يوشك ان ينتهى ، ككاتب ، ثم كانسان ..

وهذه نهاية طبيعية ، فان هذا الجهـــاز الضخم العصبى العاطفى المندفع ، لابد له أن ينفجر أو يتحطم . وقد اختار أن يذوى ويذبل وراء ذلك الشىء الذى يخدر ويذهب العقل لينسى هذه الآلام والمتاعب .

ولقد ذكر بعض النقاد أن المرأة لها أثرها فى تطوره وانحـــداره وفى أزمته ، فلقد كان يحب المرأة فى صورة لم تسو بشرا . وكان يحلم بالحب الكبير الذى صورته بعض القصص العالمية الخالدة . ولقد افتقـد ذلك فى الواقع . فكان قادرا أن يصوره على لسانه كقصة ، يعيشهـــا ويرضى نفسه بأنه عاشها ولو بالخيال .. ولذا بدأ عليه التناقض . فهـو حين يدعو الى الحب والجمال ، ويسرف فى تصوير المرأة بصورة الملائكة يحمل عليها حملاته العنيفة ، فيذكرهـــا بأقسى ما يمكن أن تذكر به . ولا شك أن « زكى مبارك » الفلاح الذى عرف الصوفية والدين فى أول حياته ، والأزهر فى شبابه ، والذى سافر الى أوربا وعاش مع الفرنسيين فى عاصمتهم ، ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ، ما رأى ، وهو الرجل الذى زوجوه فى أول شبابه ، حين خافوا عليه أوهام العاطفـــة فأقام حياته ، وأنجب أبناءه ، قبل أن يذهب الى باريس ، وهو الرجل

الذى كان يفخر بزوجته الفلاحة التى حفظت عرضه مصونا ، وقلبه سليما ...

كان لابد أن تأتى اللحظات التى يحس فيها بحاجته الى عاطفة كبيرة تعوض احساسه بالنقص فى أوضاعه المادية والاجتماعية ، فالدكتور « مضروب فى ثلاثة » يعمل فى وزارة المعارف ، مفتشا للمدارس الأجنبية أو مراجعا فى دار الكتب و (زملاؤه) يشغلون أرقى المناصب ، فى وزارة المعارف ، والجامعة ، لأنه لم يكن متصلا بحزب من الأحزاب . أو ليس له فى الحكومة عم ولا خال ...

والحياة السياسية - اذ ذاك - كانت كذلك لاتعطى الا للأتباع الذين يسبحون بحمد هذا الزعيم أو ذاك .

أما زكى مبارك الذى عرف الحزب الوطنى فى شبابه ، ورأس تحرير جريدة « الأفكار » وعمل مع الصوفانى ، والذى سجن عاما كاملا ابان ثورة سنة ١٩١٩ فقد عز عليه أن يكون ذيلا لحزب من الأحزاب ، ولذلك تخلف ..

وكان كلما ارتفعت به السن ، وازداد درجات من الدكتوراه ، أحس بالندم على ما ضيع من وقت فى البحث والدرس ، فان دكتوراه باريس لم تمده بما كان يطمع ، فظن أن « دكتوراه » أخرى من الجامعة المصرية ربما تعطيه حقه ، ولكن دون جدوى .

هنالك أحس بالظلم ، وندم على أنه ترك صحبة الفأس والمحرات ، وقال : انه لو اتجر بالتراب لكان أغنى الأغنياء . وفى ابان أزمته هذه - وهو المرهف الحس - يرى أنداده ، ومن هم أقل منه ، يصلون الى أعظم المناصب ، بفضل الحزبية والنفاق ... بدت حياته ، وفيها فراغ ، وفى نفسه أزمة ، ولم تفده صرخاته ، ولم يكشف ما فى صدره من نوازع ولهب .. وهو العاطفى بطبعه ، الذى لم يجنح الى العقل ..

هنالك كان لا بد أن يفرج أزمته ، بحل من الحلول ، ولذلك كانت الخمر مغيبة عنه احساسه ساعة أو ليلة . ثم أسرف فيها ...

ومضى يحس فى لحظات ، صحوه ، بالنقص فى حياته الاجتماعية ، من حيث المنصب ، ومن حيث العاطفة •

تلك هى الصورة التحليلية التى أستطيع أن أجدهـا فيما قرأت لزكى مبارك فى خلال هذه الفترة الأخيرة من حياته • ولهـذا الاجمال تفصيل •

فى خلال هذه الفترة كانت مقالات زكى مبارك فى البلاغ ، بعـد أن ودع الرسالة عام ١٩٤٦ الى أن توفى عام ١٩٥١ ، تمثل نفسـيته المضطربة • وتصور هذه المرحلة ايضـا المقدمة التى قدم بها لديـوانه « الحان الخلود » وروى فيها قصة حياته ومصاولاته وخصوماته •

يقول مثلا :

« العالم الأول فى سنتريس جده الشيخ دعاس مبارك • وكان من أكابر العلماء ، واقتفى آثره رجل فاضل ، هو الشـيخ محمد غريب • ولكن اللجنة أسقطته فى امتحان العالمية مرتين •

ويقول : « أما دكتور سنتريس فالجواب حاضر : وهو أننى بالقول والفعل كبير سنتريس ، واملاكى فى بلادى لا يجتازها أحد الا بعـد عبور نهرين ، وبعد أن تحفى قدماه من الشروق الى الغروب »

ويقول : « لقد عرف أبو شادى (صاحب أبولو) كيف يهـاجر الى أمريكا فله معاش ضخم • وقد باع المناحل فى الاسكندرية بأربعـة آلاف جنيه وأنا عاجز عن الهجرة لأسباب كثيرة أهمها فراق وطنى »

ويقول : الأرق يلازمنى فى الاسكندرية بدون ترفق • فمن لحظة الى لحظة أصحو وأوقد النور لأكتب للبـلاغ أو أدون ملاحظاتى عـلى المدرسين • أو لأقرأ كتبا فرنسية حتى أشبع • ثم أصحو مع العصافير ، لأؤدى الواجب الذى أكل منه لقمة العيش • ماذا أصنع ؟ ••

أنا رجل فقير يريد أن يعيش ، وقد سعيت الى الوظيفة ، لأعيش ولولا هذه الوظيفة لما كان من الممكن أن أرى خزان أسوان »

ويقول : « بأى حق يكون الاستاذ الزيات عضوا فى المجمع اللغوى ولا أكون أنا عضوا فى المجتمع اللغوى • اثنان وأربعون كتابا ، منهما اثنان باللغة الفرنسية ، وليسانس ودبلوم ، وثلاث « دكتورهات » ومع ذلك يقال اننى أدعى ما ليس من حقى ، شىء يغيظ • »

ويقول : كتبت مرة فى البلاغ أن المجمع اللغوى فقد هيبته حين خلا منه اسم زكى مبارك واسم خليل مطران • واليوم أقول اننى زاهد فى عضوية المجمع اللغوى ، لأن هذه المنزلة ستجعلنى (زميلا) لحضرة الأستاذ محمد فريد ابى حديد •

لقد قضى محمد فريد أبو حديد خمسين دقيقة ، فى كلام لا ينفع ولا يفيد ، فأضحكنى وأضحك أستاذنا « أحمد لطفى السيد » وأستاذنا طه حسين • أما أحمد أمين فقد عرف كيف ينتفع بالوقت ، فقد أمضاه فى النعاس • أما الدكتور منصور فهمى فقد اكتفى بالتثاؤب الموصول »

ويقول : « يقول المؤذن فى مسجد سيدى جابر « الصلاة خير من النوم » فأبتسم لأنى قضيت الليل سهران أعد النجوم • وقد عددت النجوم فرأيتها مماثلة لشعر الجياد من الخيل • وللناس عقول بعدد شعر رءوسهم وأنا أيضا لى عقول بعدد شعر رأسى •

والعقول فى لغة الصعايدة والشراقوة (عجول) •

ما الذى يوجب أن تشغلنى الذكريات ، فأتذكر أيامى فى مصر وفرنسا والعراق • هذا توجيه الاشواق الى الأحباب • والمغنى المصرى يقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقيه من فوق ساقيه وحبالها مرجان

ويقول :
أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان علقت له ساقية من فوق ساقية وحبالها مرجان

ويقول : « ان راتبى فى وزارة المعارف ضئيل • وأنا أكمله بالمكافأة التى آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس

يديه في الحبر الأسود • ثم انى أنفق نصف مكافأة البـــلاغ على كتب فرنسية وعربية • فما الذى يبقى لأنفقه على نفسى وعلى أبنائى ؟ »

ويقول : « حقيقة لم ألتفت اليها من قبل • هى عودة ذاكرتى • فقد قضيت ثلاثة أيام بلياليهـــا ، بدون نوم فأعدت على نفسى أكثر أجزاء القرآن الشريف ، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك وثلاثة أخماس أشعار لافونتين ولا مرتين ، وهوجو ، ودى موسيه » •

ويقول : « أنا فى حرب مع زمنى • ولكنى سأنتصر لأن الله معى • لا موجب للخوف من الغد • فقد يكون فيه جزاء لا يخطر فى بالك • اذا غامت السماء اليوم ، فستصفو غدا » •

ويقول : « ان بنى آدم خائنون • تؤلف خمسة وأربعين كتـــابا ، منها اثنان باللغة الفرنسية ، وتنشر ألف مقالة فى البلاغ ، وتصير دكاترة ومع هذا تبقى مفتشا بوزارة المعارف »

كما يقول : « يظهر أننى أجنبى • فان عيونى خضراء ، والعيــون المصرية سوداء • يجب أن ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف ، لأنه سخيف فالعقل أتعبنا فى هذه البلاد » •

ويقول : « سأكتب الى البلاغ حديثا أجمل من الورد فى الفجر ، وأشهى من علم الفقير بأن فى جيبه خمسة قروش أو خمسة ملاليم • نكتب للبلاغ بمداد من دمع العيون »

ويقول : أنا حزنت كثيرا حتى صار شعرى أشد بياضا من الصباح

ويقول : فى هذا اليوم سأدفع حسابى الى بنك مصر • وفى الغد أسافر الى الاسكندرية مع سعدية لنغنى معا فى محطة الرمل ••

ويقول : أنا ماض الى تفتيش مدارس الاســـكندرية • وسأنتهز الفرصة فأغرق فى البحر آلامى • والمنتظر أن يوحى الى البحر بقصيدة جديدة • أنا أمضى الى القطار مبكرا لأجد مكانا مريحا بين ركاب ، أختار وجوههم ، وأعرف قيام القطار ، بالمناداة على « البلاغ » •

وفى الاسكندرية أواجه البحر عند غروب الشمس ، وهى تستحم عند الغروب ، وتظل سابحة الى الشروق ، وهى الجمرة التى تظل تحترق وهى تغرق .

من الأغانى القديمة : يا بنات اسكندرية مشيكم ع البحر غية وسأشمت (بزملائى) فى البلاغ ، وأنا منهم مغتاظ . (فعل شمت لايوجد فى اللغة الفرنسية) سأتركهم لنيران الظهيرة فى المطبعة بين تحرير وترجمة وتخبير والتخبير هو استقاء الخبر ، وهى كلمة لا يعرفها أعضاء المجمع اللغوى .

ويقول : ماذاأصنع ؟ يقال : اننى أتحدث عن نفسى كثيرا ، وجوابى هو قول ابن الرومى :

وعزيز على مدحى لنفسى غير أنى جشمته للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر ، يريد يظهر حاله

لابن الرومى شارع باسمه بالقرب من محطة الرمل ، فهل هو ابن الرومى الشاعر ؟ يجوز أن يكون أحد اليونان سمع باسمه فسمى الشارع باسمه ...

اذا نزلت فى محطة سيدى جابر ، وجدت شارعا باسم عمر الخيام ، والسبب يرجع الى أن أحد أعضاء البلدية تأثر بالشاعر . وفى الاسكندرية شارع باسم حفنى (بك) ناصف .

وفى مقدمة ديوان « ألحان الخلود » (١) عبارات من هذا النوع أيضا هى أشبه بتداعى المعانى والذكريات .

. لم تكن الحياة هينة فى العامين الماضيين ، فقد خرجت من عملى فى وزارة المعارف ، بعد معركة عنيفة بينى وبين السنهورى ، فقد شويت وجهه على صفحات البلاغ ، وجعلته أضحوكة يتندر بها الناس فى الأندية والمجالس والقهوات .

---

(١) صدر سنة ١٩٤٧ .

• لى أبناء والحمد لله • ولكن أبنائى من روحى اعز على من أبنائى من بدنى : انها اشعارى ومؤلفاتى • إذن يجب أن أنفق على أبنائى من روحى بعدما انفقت على أبنائى من بدنى •

• جاوزت الخامسة والخمسين ، ولم اشعر بمرض يلزمنى السرير ليلة واحدة وتاذت عيناى من كثرة المطالعة فى المؤلفات العربية والفرنسية ، ومع ذلك نجحت فى امتحان القومسيون سنة ١٩٣٧ ، حين عينت مفتشا بوزارة المعارف • وكانت سنى تزيد على السابعة والأربعين •

• كان الدكتور طه هو رئيس اللجنة التى أؤدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الفلسفة فاعتذر وأناب عنه وكيل الكلية الأستاذ « محمد شفيق غربال » •

وأراد الدكتور طه أن يصرف الجمهور عن حضور امتحانى ، فأعلن فى جريدة الأهرام أنه سيلقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية عن « فكاهات الجاحظ » • ولكن محاضرته ضاعت عليه ، فلم يحضرها أحد بالرغم من الاعلان •

وفى الساعة السابعة اتصل تليفونيا بادارة الكلية ليعرف النتيجة ويا هول ما عرف ! لقد عرف انى ظفرت باجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف ، فما كنت أنتظر أن أظفر بدرجة علمية يمضيها أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وهو من كبار خصمائى • أخذت هذه الدرجة بالقوة ، قوة البحث ، قوة كتاب التصوف الاسلامى • وهو كتاب أشقيت نفسى فيه تسع سنين • انه كتاب لم يسبقنى اليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتى يؤلف كتابا مثل هذا الكتاب •

• وكما قلنا من قبل ، قال : « كنت ألقى دروسا مسائية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الليسيه فرانسيز ، وكنت أخرج مكدودا بعد ساعتين من الدرس • دخلت البيت ، فوجدته فى سكون على غير المألوف ، فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لاتريد أن ترانى لئلا اقرأ فى سطور وجهها أن (أحمد) مات •

آويت الى فراشى ، وهو يقع فى الدور الثانى من البيت ، وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجة • ان للثكل طعما مرا غاية المرارة • وكفنته بيدى • وحملته الى مثواه الأخير • »

« زكى مبارك فى أيامه الاخيرة »

ولقد كان زكى مبارك – فى أيامه الأخيرة – يرتاد المجامع والأندية الأدبية وقد خلا اسلوبه من رفعه وصفائه • فاذا به يغنى ويصرخ ويضحك ولكن هذا التوقد فى كلمات زكى مبارك لم يكن الا مقدمة لانطفاء هذه الجذوة المتوهجة •

وفى هذه الفترة اخذ زكى مبارك – يهمل ملابسه وكتبه وانتاجه ويظهر ان مكتبته أصابتها الفوضى ، كما ذكرت بعض الصحف ورسمت له عددا من الصور الفوتوغرافية – فى برجه العاجى ، وقال المحرر :

« برج الدكتور العاجى مؤلف من خمس غرف وصالة كبيرة • ويضم أكثر من عشرين ألف كتاب ، وضع بعضها فى نحو ثلاثين دولابا ، ووزع البعض الأخر فى أركان الغرف وبقرب النوافذ والمقاعد ، وعلى الأرض •

وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنو منه • ولهذا فان التراب وبقايا السجاير مازالت فى مكانها تزيد وتتكاثر منذ عشرات السنين • وكثيرا ما يهبط الوحى على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت من الشعر ، ثم لا يجد فى هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء ، فيسارع بتسجيل الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ ، أو جدران الحائط • وكثيرا ما غرق (التليفون) بين المجلدان والأوراق فلا يعثر عليه الدكتور الا بعد جهد جهيد •

وفى السنوات الأخيرة كان الدكتور مبارك يقيم طوال يومه وحتى منتصف الليل فى قهوة أمام ميدان التوفيقية • وقد أعفى نفسه من مهام العمل فى وزارة المعارف • ولم يعد يكتب الا كلماته فى البلاغ • فكتب « التاريخ قبل أن يذهب التاريخ » ، تحت عنوان : « الحديث ذو شجون • »

اليوم الأخير

توفى زكى مبارك يوم « ٢٣ من يناير ١٩٥٢ » بعد عملية جراحية كتب لها النجاح وقت اجرائها ، وجاءت نهاية أجله بعدها بساعات وفاضت روحه بمستشفى الدمرداش ، فبينما يسير مع اصدقائه فى شارع عماد الدين ، فى مساء اليوم السابق لوفاته ، اذ اصيب باغماء مفاجىء أدى الى سقوطه على الأرض ، وأصيب على أثرذلك بجرح فى رأسه فحمله مرافقوه الى منزله بمصر الجديدة ، فى سيارة خاصة . وظل غائبا عن الوعى حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى . وكان كبار الأطباء قد أجمعوا على ضرورة اجراء عملية تربنة فى الحال . فنقل الى مستشفى الدمرداش وتمت العملية بنجاح . الا انه أصيب من جراء سقوطه بارتجاج فى المخ ، أدى الى مفارقة الحياة ..

وهكذا تحطم المخ الذى طالما كتب ، وصاول ، وقاتل ، وساجل ، وأثار الدنيا . وكان آخر حديث له فى جريدة البلاغ وآخر كلمة له . هى : « أن (أحمد محيى فؤاد) يذكر فى خطاب له أن زوجته تستغرق فى الضحك ، حين تقرأ مقالاته ، ثم تبكى بعد ذلك . ويطلب توضيحا لهذه الحالة الغريبة . والجواب عند زوجتك يا سيد فؤاد » .

وفى هذا المقال ، قال زكى مبارك :

« أنا مسافر الى الاسكندرية . فهنئونى يا قرائى ، سأرسل الى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتى . فعل سافر معناه بالفرنسية : «قطع الرجل جزءا من حياته . » لأنى مفتش المدارس الأجنبية بمصر . وسأذرع فضاء الله من الشمال الى الجنوب .

وكان يقال من علمنى حرفا صرت له عبدا . والدكتور طه علمنى ثلاثة حروف : ألم تسمعوا أننى دكاترة ؟ ..

الدكتوراه الرابعة من جامعة الاسكندرية . وقد أعددت البحث . وسأنجح . فان تجاهل الأساتذة منزلتى ، فسأهجوهم فى البلاغ ، وهى فرصة لمقالة آخذ بها دنانير » .

وقد رثاه محمد عبد القادر حمزة (باشا) فقال : « كان كنزا من كنوز الأدب العربى ، لا أظن أن مصر سترى له مثيلا بعد عشرات السنين • كان هدية القرية المصرية الى الجامعة الازهرية ثم الى السربون ثم الى الجامعة المصرية •

خلة الوفاء ظهرت فى زيارته للعراق ، وبلغت أرقى صورها • اذكان للفقيد الكريم قطعة من النبوغ المصرى والوفاء ، لم يلبث آن جعل له ولبلاده فى العراق من نباهة الذكر وبعد الصيت مالا أظن ان العراقيين سينسونه أبدا فلما عاد الى مصر ظل اسم العراق لا يغادر قلمه ، حتى مات » •

وقال محمد زكى عبد القادر : « كان زكى مبارك كاتبا مطبوعا وأديبا (فنانا) وشاعرا موهوبا ، ورجلا انطلق فى الحياة كما تشاء الحياة • ولو أراد أن يكون صاحب جاه لكان ولكنه آثر أن يعيش بالعرض لا بالطول، أحب من الحياة شرها وخيرها فأحسن التعبير عنها • أحبها أعمق مايكون الحب ، دخل مرة ، والجمعية العامة لنقابة الصحفيين منعقدة • وفى القاعة أكثر من ثلثمائة صحفى ، مشغولين بالانتخابات • وأخذ الأديب الكبير يغنى • ولفت البعض نظره الى أن هذا ضجيج وعجيج • ورجاه أن يكف فابتسم ابتسامته الرقيقة البريئة • وقال : « كيف اغنى يا أخى •• »

كان زكى مبارك يكتب لنفسه • وهذه هى سمة القوة فى الفن • لم يحاول أن يزوق أو يلبس عمامة الواعظ أو يدعى أنه رجل لا يأثم ••

وصور محمد بيومى الجنيد العقدة النفسية التى جعلت من انتاج الدكتور زكى مبارك فى بضع السنين الأخيرة انتاجا سطحيا ، والتى جعلته ينطوى على نفسه فهزت من كيانه • ولكنه كان يغالب دهره ، ويحاول الصمود أمام الزمان • وكثيرا ما كانت مقالاته فى العهد الاخير مرآة تنعكس عليها أحاسيسه ، فيشكو ثم يشكو ، ثم يعود اليه صحوه فيرى نفسه على حقيقته ، أديبا ملأ الدنيا أدبا وعلما • وأضاف الى المكتبة العربية ثروة ضخمة هى عصارة ذهنه سنوات طوالا » •

وبعـــد !

هل أستطيع أن أقول انني استطعت أن ارسم صورة لحيـــاة زكي مبارك ودراسة لأدبه ؟ ..

الجواب : انني لم أبلغ الغاية التي ترضيني . وانما أردت أن أرسم صورة خفيفة الظلال غير عميقة لهذا الكاتب الذي يمثل جـــانبا قويا من جوانب أدبنا المعاصر ، والذي مضى منذ عشر سنوات ، دون أن يجد من يكتب عنه كلمة ، أو يعرض سيرته وأدبه للناس ، بعد أن كان يملأ الدنيا ويشغل الأدباء والمفكرين ..

لقد كان في منهجي أن أعطي هذه الصورة ، وأكتب دراسات عن أولئك الذين نسيهم الناس وغفل عنهم أقرانهم وزمـــلاؤهم وقد بدأت بالزهاوي . وأرجو أن أكتب دراسات أخرى عن أعلام لم ينالوا ما هم أهل له من تقدير .

ولقد حاولت أن أصور (زكي مبارك) دون تحيز أو مجاملة . لم أجعل لعاطفتي كبير دخل في دراسته . وقد كبحت جماح مشاعري عنـــه حتى يظهر بخيره وشره ، دون عدوان عليه أو مبالغة في تقديره .

فهل تراني وفقت في رسم هذه الصورة ؟ ..

ولقد جعلت لكلام زكي مبارك المقام الأول في هذا البحث وحاولت أن أجعله يرسم الصورة بنفسه دون (رتوش) .

كان زكي مبارك منبسط الأسارير ، ذا عينين خضراوين له جسم متوسط الطول ، متين التراكيب . يقول « ورثت خضرة العينين عن أمي ، سقى قبرها الغيث » .

وقد وصف نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذي يخجل من أن يقول في السر ما يعجز عن قوله في العلانية . وهو يعيش في وطنه عيش الغرباء . وليس لديه من الوقت ما يمكنه من زيارة الشواطىء وقد شغل وقتـــه

بالتأليف والتصحيح ، من الصباح الى منتصف الليل • ووصفه خصومه بانه غير مصقول •

ويقول : انه سيموت قبل الأوان بسبب الاسراف فى الطعام والشراب ووصف النقاد أدبه بأنه أشبه بالعواصف (١) الثائرة ، غير انها تهـــدم لتبنى ، وتقلع لتنبت شجرا مثمرا طيبا •

يفاخر بأنه فلاح لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء ، وعندما بدأ حياته صوفيا كان كثير التساؤل عن كل شيء • وكذلك عاش موصول النقاش واللجاج •

وصف نفسه بأنه يعشق جميع الصور ، ويهيم بجميع المعانى ، وظواهر الوجود • صور شعرية تموج بألوان السحر والفنون •

وهو يرى أن توهج الشيب فى رأسه لم يخمد نار شبابه • يخيفـــه البحر أعنف الخوف ، ولكنه لا يخاف الغرق ، انما يخشى الدوار الذى عانى أهواله عشرات المرات من عبور البحر المتوسط من الاسكندرية الى مرسيليا •

يرى أنه وقف لأعداء العروبة والاسلام بالمرصـــــاد • مزق أوهام الخوارج عن العروبة والاسلام شر ممزق ، ودحر من سولت لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضى الأمة العربية وعادى من أجل الحق رجالا ، يضرون وينفعون • و لاينظم الشعر الا اذا جاشت نفسه وفاض قلبه •

أبرز مظاهر أدبه ، العنف ، والوصول الى آخر الشوط فى الاعجاب أو الكراهية • يؤمن بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها الا للرجل المنفرد • وهى أشبه بالغوانى تنفر من الصاحب والشريك •

يؤثر الأدب الصريح المكشوف على الأدب المقنع الهيوب • يرى أنه لولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين • يرى أنه لم يكن الا طيفا زار فى السحر ساقية الكرخ • وفى بغداد أحب العراق • ومن أجـــل معبه شراب ماء الفرات صرفا ممزوجا بالطين فرآه أشهى من الرضاب المعسول

---

(١) من مصطفى سلامة (مجلة الثقافة)

من طرائفه أنه فى خلال زيارته لبعض أنحاء العراق رأى نباتا اسمه (الهعخع)الذى يذكر اسمه فى مقدمات كتب البلاغة يقول : « وقد بلغته تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف •

ويرى أن كتاب التصوف الاسلامى ، هو خير ما كان وما سيكون فى التعبير عن العبقرية العربية •

ومن عباراته الجميلة قوله : « لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسدد ديونك فهل علمت أن لك عقبى الدار ؟ »

وهو يؤمن بأن العزلة أصبحت طبيعة ثانية له لايمكن منها الخلاص وأنه ما دخل بلدا الا أذاع ما فيه من محامد ومناقب •

وعنده أن المجد أعظم من الحب • وأن المجد هوالذى يسوق أسراب الملاح صاغرات •

وقد عرف زكى مبارك بالولع بالعبارات الفرنسية يضعها بين السطور دون أن يترجمها • وكان يكتب اسمه : (محمد زكى عبد السلام) • ويطبع مؤلفاته على حسابه فى الاغلب ويوزعها فى البلاد العربية •• وقد غنى بصوته فى الاذاعة قصيدة « غرام يوم الثلاثاء » ••

ومن عباراته : أن المستميت لا يموت • فأبرز فنون أدبه : الجدل والسجال • ويوصف أدبه بالحماسة ، والاندفاع العاطفى ، والحديث عن النفس • وقد كان يرى أمامه صورة رجل واحد ، يريد أن يكون نده وقرينه ، وهو طه حسين •

وبعد • فهذا زكى مبارك بحسناته وسيئاته • أردت أن أعطى صورة منصفة صحيحة عنه بخيره وشره ، أردت أن أرسم له صورة كاملة ، لم ألجأ الى التحليل كثيرا ، ولكنى تركته هو يتكلم ويرسم الصورة ، صورة الانسان ، بضعفه وقوته ، فى أوج قوته وشجاعته ، وفى ساعات ظلمه واحساسه بالكرب ، وشعوره بأنه مغبون لم ينصف •

ان عيب زكى مبارك ولعله من حسناته أو علامات الخلاف بينه وبين

كتاب جيله أنه كان كتابا مفتوحا صريحا ، سجل كل شيء ، ولم يخف عنا شيئا من حياته العامة والخاصة .

أما غيره ، فقد أظهر جوانب القوة ، وأخفى جوانب الضعف .

ان عيب زكي مبارك أنه ترك لنا مذكراته فلم نكن في حاجة كبيرة الى البحث عن خفايا حياته . لذلك لم يكن هذا الكتاب الا تنسيقا لآرائه وتقديمها في صورة تعين على رسم صورة لحياته وشخصيته .

ولم يكن من الممكن أن نتجاهل شيئا من الصورة ، لأنه سجلها بقلمه: سجل أهواءه مبادئه .

ولكنك حين تقرأ هذه الصفحات قراءة انصاف ، تراه عظيما ، وترى صراحته ونقاءه واضحين في كل حركة ، حتى في مجونه وشماسه . فانه يجعلك تنظر اليه في ثقة ، حين تراه يحدثك عن كل شيء في جرأة ودون خوف : « ان الذي يخدعك هو الرجل الذي يخفي عنك أشياء ، ويظهر أخرى . انه الرجل الذي يداري أنيابه ، ويبدو لك في صورة الوقار والسماحة وهو مطوى الاضالع على الغل والحقد .

لقد كره مبارك هؤلاء الناس ، وأراد أن يغاير التقليد ، فيبدو لأول مرة في تاريخ أدبه المعاصر الأديب الواضح الصريح فلنعجب به ولننظر له على أنه انسان يخطىء ويصيب ، كل ما هنالك أن الناس الذين نعرفهم قد توقروا وأخفوا عنا حياتهم الخاصة ، أما هو فكان كبير الثقة بأننا لا نزدريه عندما يكشفها لنا .

ان « زكي مبارك » في حقيقة أمره يصور جانبا قويا من تاريخ أدبنا العربي المعاصر وهو مرآة لجيل كامل . فاذا تساءلنا : هل مات أدبه ؟ قلنا : لم يمت . وعندي أن أدب زكي مبارك سيحيا لأن كاتبه حارب الاستعمار . فقد ذهب الى فرنسا وعاد ، وما زالت أمانته لأمته أكبر من أمانته للغرب . ولم تحص عليه كلمة واحدة انحرف فيها الى دعوى التغريب ، بل لعله كان قد ازداد عمقا في فهم القومية العربية والايمان بوطنه الكبير .

ولم يكن زكي مبارك صنيعة حزب من الأحزاب . ولم يكن له سناد

من الأسندة التى رفعت كثيرا من الأدباء فى مصر • فهو يرى أن أحدا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطى والعقاد • وكما أعز ثروت أدب طه حسين • وكما أعزمحمد عبدهأدب حافظ • ولم تقم قيمتهالأدبية على أساس من الشهرة السياسية ، ولم يصل الى مركزه الأدبى بفضل الحزبية المعروفة اذ ذاك •

وزكى مبارك ، الى هذا ، له قدرة واضحة على تصوير الشمائل والأحاسيس ، وقد خلق فنا جديدا ، لم يصل الى مباراته فيه أحد ، وفى أسلوبه رصانة وبلاغة ، يمتزج بالبساطة والطرافة • وما من موضوع علمى يطرقه ، الا أحسست انه يمزج الجد فيه بروح الفكاهة فاذا انت تسر منه، ولا تخشاه • وقد اخترع آفاقا جديدة فى الكتابة الرمزية • كما ابتدع نماذج ، جرى على لسانها ما عجز عن قوله صراحة •

وقد غضب عليه الكثيرون ـ ومنهم المازنى ـ لأنه على حد قول المازنى « يحشر فى كتبه كل ما يسمعه من الناس ، فى مواطن الجد والهزل • ولا يعنيه انه يسوءهم ان يروى عنهم ما يمضون به أوقات الفراغ فى مجالس السمر أو اللهو » •

ويعلق زكى مبارك على ذلك فيقول •• « ولنفرض أن فى تعقب هفوات الناس متعة لبعض الأهواء • فهل غاب عن أذهان الكتاب أن المجالس فيها من الشعر والجاذبية ما لايوجد فيها من العيوب ؟ »

ان هناك أرواحا تتشوق الى تعرف الكرم والنبل فى الشمائل والخصال وتشتاق الى معرفة الجوانب القوية من أخلاق الرجال • فلا يظن أحد اننا نعق الصدق حين نتغاضى عن سرد العيوب • فنحن نعرف أن العصمة لله وحده ، وان فى كل امرىء مغمزا ، ونعرف بجانب ذلك ان الخير فى الانسانية اقوى من الشر ، وأن الانسان بطبيعته مخلوق نبيل ، لا يغيره عن الفطرة الا أصدقاء السوء من الناس ومن الأراء » •

وهو فى كل مكان يحل فيه ، نجده يختزن لأدبه ، ويعب من رحيق

الحياة ، ليحيل ما يرى فنا من فنون الأدب فاذا ذهب الى بحيرة التمساح ، ابان احتلال منطقة القناة ، وتطلع الى قلمه ، فانه يقول :

« وقفت على شاطىء بحيرة التمساح وقفة الغريب ..

ـ ما اشقى أن يعيش المرء فى بلاده عيش الغرباء . فهلا تصدقون انى لم أستطع التفاهم مع من رأيتهم على ذلك الشاطىء الا باللغة الفرنسية ؟

زرت ذلك الشاطىء مرة قبل نصف الليل ، فرأيت مكانا تأتلق فيه المصابيح . وكان فى نيتى أن اركب زورقا لأشهد جمال الليل فى بحيرة التمساح . ثم رجعت عن تلك النية .. عز على ، أن تشهد مياه تلك البحيرة مصريا يلهو ، خشيت أن تسألنى مياه تلك البحيرة عما أملك من سفائن . خشيت أن أجهل مصيرى فى تلك المياه فاعتصمت بالشاطىء » .

وهو يصدق حين يقول : « وأوصى بزيارة البحر من حين الى حين . فهو من أقوى مصادر الايحاء . وهو الذى فجر ينابيع الشاعرية فى صدرى . فقد عبرته أربع عشرة مرة فى ذهابى واياى من القاهرة الى باريس » .

فاذا ذهب الى الصعيد بغية التفتيش على المدارس لم ينس قلمه ، ولم ينس الأدب ، فهو يسجل ملاحظاته وآراءه » .

« قطار الصعيد » ..

« فى هذه اللحظة أشعر بالندم على أننى ركبت القطار السريع ، ولم أركب القطار (القشاش) . وهو القطار الذى يقف فى جميع المحطات ، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء .. يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف . فلا يكاد المسافر يتذكر أن فى كل قرية من تلك القرى أرواحا وقلوبا ، ولأهلها تاريخا أو تواريخ .. هذه منارة تدل على مسجد . فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كان لها أياد بيض فى حفظ العلوم الاسلامية ؟

وذاك فلاح يناجى الأرض مناجاة الحبيب للحبيب ، فأين من يذكر أن

الفلاح المصرى قد يكون أخوف الناس من الله ثم لاتمنعه تقواه من انتهاب شبر أو (فتر) من أرض الجيران » •

وقال : «أحبك ياوطنى•احبك•أحبك باعظممما أحبك مصطفى كامل، ومحمد فريد ، وسعد زغلول •• أحبك يا وطنى وأستعذب عذابى فيك • لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال • لم يعان أحد من الظلم فى وطنه ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم الأثيم الا عرفانا بجمال وطنى • وهل رأيتم جميلا غير مظلوم ؟ »

وهكذا : الصدق هو أول ميزة لأدب زكى مبارك •

وكما قلنا من قبل ، فان من الصدق ، قوله : « يسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها ، وجدتها • فحفظت قلبى سيما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • وهو يصور مشاعره بالنسبة لكل ما يراه ويربط بين مرائيه وبين الأدب » •

« ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بانى لم أر الطاووس وهو ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين •• ولقد احيا فى نفسى هذا المشهد حسرة قديمة طالما عذبتنى بصنوف الآلام ، لتقصيرى فى دراسة الطير والحيوان ، ثم سكنت قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى فى دراسة الحيوان جملة واحدة ، فقد اهتممت بدراسة الحيوان الناطق الذى اسمه الانسان •

على أن الأدب الذى شغلت بدرسه ، وقضيت فيه أنفس أعوام شبابى ليس شيئا آخر غيردراسة أوهام الحيوانالناطق واحلامه ، وتصوراتهوكيف يحب ، وكيف يحقد ، وكيف يخطىء ، وكيف يصيب •

وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدساسين والكائدين واللئام ، فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان ، وطبائعه ، وميوله ، وأطماعه » •

وهو صادق الايمان بوطنه ، وبالأدبالعربى • يردد اسمهما فى كل وقت اذ يقول :

« الى الادب العربى يرجع الفضل فى تأريث البطولة العربية » .

وكان يرى « ان اعظم مجد لمصر هو ان تستطيع التفاهم مع الأمم العربية الاسلامية فى الشرق لتتخذ منهم دروعا حصينة ، تقى اللغة العربية عدوان اللغات الأجنبية . وهو يرى أن أدباء اليوم تغلب عليهم « الحذروالتهيب . وقد ابتلتهم المدنيةبضروب من الصقل والتهذيب» وهى شارة العبودية ، عند من ينظرون فى البلاد أنهم يجعلون الأدب مذهبا من مذاهب العيش . والذى يتأدب ليعيش يظل طول دهره ذليلا جبانا . لايصلح لجدال ولا نضال ، ولا يلين قلمه الا فى مدارج الرياء » .

وهكذا يبدو أدب زكى مباركفىصورة الصراحة والصدق ، ويصل فيها الى اقصى الحدود ..

بل انه يرى ان الأدب عند بعض الأدباء ليس الا وثبة وصولية ، يحققون بها غرضا . تم ينتهى الامر .. يقول : وكبار الأدباء فىمصرلم يعد لهم الا الظفر بالراحةوبلهنية العيش ، وهمينظرون الى الادباءالمجاهدين نظرات لاتخلو من الشماتة والازدراء . وكاد الجمهور يطمئن الى أن الأدب ليس الا وثبة وصولية يصطنعها من رزقهم الله حاسة المعاش .

وبعد . فان جملة القول أن « زكى مبارك » قد عاش أدبه بطبيعته الريفية بكل ما فيها من صراحة وخشونة وصراع . ولذلك وصفه البعض بأنه غير مصقول . وقال عنه اخرون انه الملاكم الأدبى لثقافتنا الحديثة . ولكن زكىمبارك الريفى النزعةلميكن عندهغير الخشونة والعنفوالصلابة. وهى صفات ربما كانت تحمل محمل النقد . ولكنه كان ريفيا أيضا فى صدقه وبساطته وصراحته ، وريفيا أيضا فى نقاء قلبه وبعده عن الأحقاد ، وايمانه الصادق بالرأى الصريح ، والنأى عن الذلة والنفاق .

فلما حاول زكى مبارك أن يصل الى أرقى الدرجات ، ووجد من الموانع ماحال بينه وبين ذلك ، ذهب بقوته الذاتية ، ولم يعبأ بأى معوق ، بل انه فعل ذلك وهو زوج ، وله أولاد . قد يقال انهم ربما يمنعون الرجل ــ أى رجل ــ عن الاندفاع فى مغامرة لايعرف لها غاية .

واستطاع ان يصل الى ارقى الدرجات العلمية • ولكن صراحة زكى مبارك واعتزازه بكرامته ، وصدقه ، وبعده عن النفاق ، وصلابته فيما يؤمن به ، وطبيعته الريفية بما فيها من عيوب ومحاسن قد أبعدنه عن تيارات الأحزاب ، ومن ثم لم يستطع آن يصل الى مكانه الحق ، حيث كان التابعون للأحزاب من العلماء والأدباء والموظفين هم الذين يصلون وحدهم • على حين انه كان قد سدت أمام ذوى النزعات الاستقلالية أو المبادىء القومية ـ بعيدا عن مواطن الشهوات الحزبية ـ أبواب الرزق أو مدارج الرقى •

فلما اندفع زكى مبارك مرة آخرى ليحصل على اجازات آخرى من الدكتوراه لم يزده ذلك شيئا ، ولم يحقق له أملا من آمال الوصول الى المكان اللائق به •

هنالك انفجرت نفسه فى صيال مستمر ، ومعارك متصلة بينه وبين ادباء جيله ، اراد بها آن يؤكد شخصيته ، ولم يكن فى بعض هذه المعارك متجنيا ، وانما كان قد حيل بينه وبين الرزق صراحة ، فكان لذلك أثره فى نفسه •

فلما تعددت هذه الصور على أيدى وزراء المعارف ، الذين كان قد صاولهم ، فحملوا فى أنفسهم له السخيمة ، اهتزت شخصيته اهتزازاعنيفا فمضى ينحرف عن طريقه ، ويغرب فى هذا الانحراف ، ويدارى عقله الواعى بحجب جديدة ، هنالك مضت حياته مظلمة كئيبة حتى انتهت فجأة على نحو بالغ القسوة •

ولكن ذلك لا يمنع من القول ان أدب زكى مبارك كان فى خلال حياته كلها ـ حتى فى ابان أزمته النفسية ـ صادقا صريحا قويا ، فيه الايجابية والوضوح •

ويمكن أن يوصف أدب زكى مبارك بأنه أدب القوة والايجابية • وهو فى مجموعه ، حيث يرسم وجها جديدا ، فيه القوةوالجرأة والصراحة والنزعة العاطفية •

ولذلك ، فهو لن يموت •• وسيحيا •• وستبقى ذكرى زكى مبارك طيب الله ثراه •

فهرس

الموضوع	الصفحة



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



العدد ٣٥ الثمن ٢٠ قرش